سياسية عربية
كل الحقيقة للجماهير

AL-HADAF

الهدف

العدد السنوي

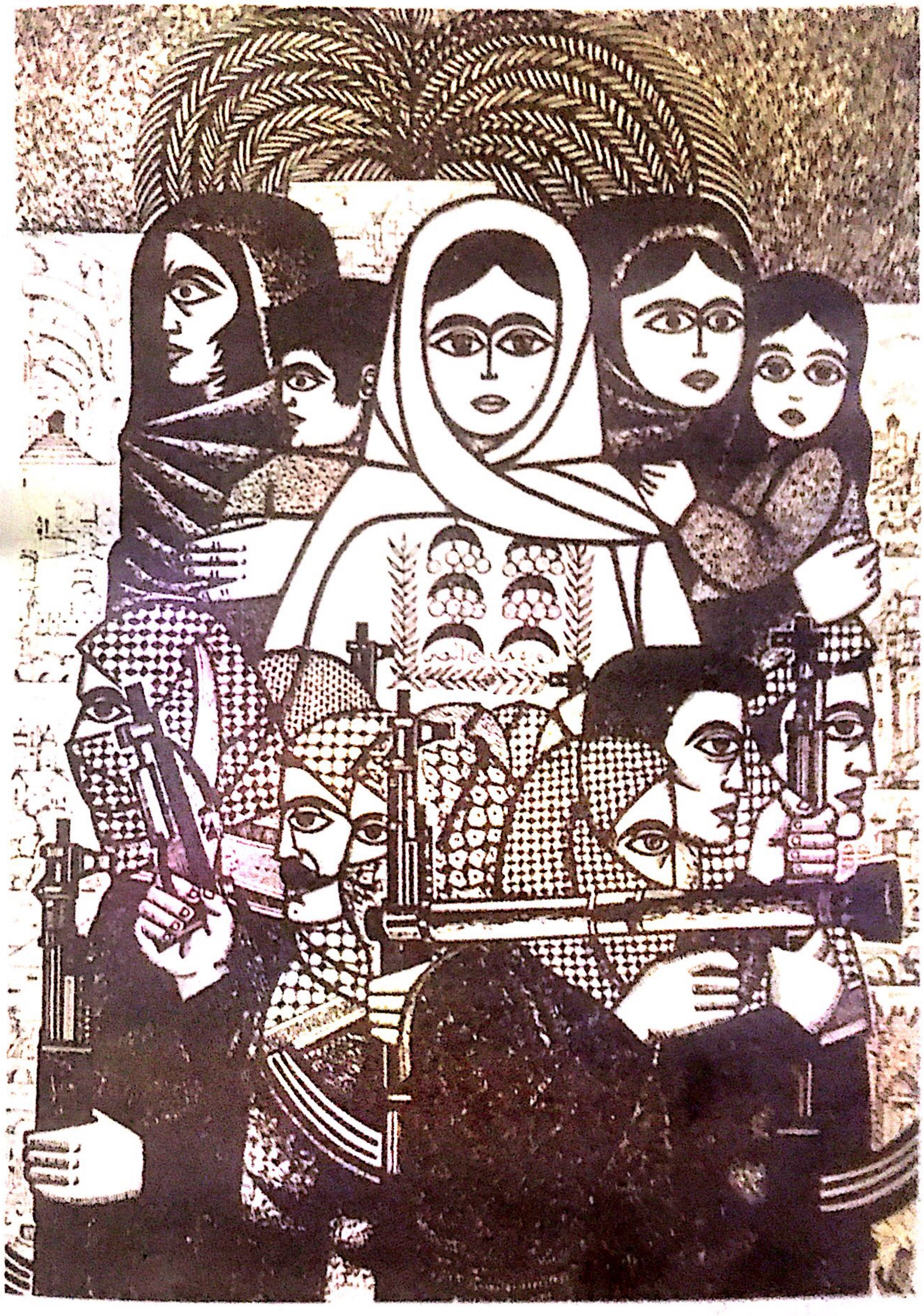
العدد ١٣٥٠. شباط (فبراير) ٢٠٠٤. السنة الخامسة والثلاثون. الثمن ٤٠ ل.س. ٢٠٠٠ل.ل

AL-HADAF - No.1350 - 5/2/2004



فلسطين والعراق

ومفارقات الديمقراطية الأمريكية



تحية للفنان الراحل برهان كركوتلي

فلنتمسك بحقوقنا وضرورة صيانتها من التبديد

يتمسك شعبنا في ملحمته البطولية، وصموده الأسطوري بحقوقه الثابتة في العودة، وإقامة الدولة المستقلة كاملة السيادة وعاصمتها القدس ويقاوم كل الممارسات العنصرية الفاشية لحكومة شارون، ورغم أن الجيش الصهيوني ينشر الدمار والخراب في مدننا وقرانا ومخيماتنا والتي وجدت طريقها عبر برنامج إسرائيلي يستهدف تحقيق أهداف عجز الاحتلال بكل جبروته وقسوته عن تحقيقها منذ عام ٤٨ حتى الآن، إلا أن إرادة الصمود مستمرة ومتجذرة في صفوف شعبنا وإرادة المقاومة أكدت وعلى مدى قرن من الزمان إنها السلاح الأمضى القادر على وضع حد لسياسة الغطرسة والعنجهية لحكام إسرائيل دون إغفال كل الأسلحة الكفاحية ودورها في زيادة عزلة إسرائيل وكشف طابعها العنصري العدواني، كل هذا يحتم علينا في السلطة والمعارضة امتلاك أدوات الفعل السياسي، والكفاحي، والتنظيمي القادرة على قيادة معاركنا السياسية والكفاحية مع هذا العدو المتغطرس، بنجاح حيث لابد من الإقلاع عن سياسة ردات الفعل إزاء مشاريع ومخططات إسرائيل الاستعمارية الفاشية العنصرية والتي كان آخر إبداعاتها الاستمرار في بناء جدار (الفصل العنصري) الذي يشكل أكبر تحد للبشرية وميثاق الأمم المتحدة باعتباره شكلا من أشكال التمييز العنصري، وعاملا من عوامل تأجيج الصراع في منطقة الشرق الأوسط، لما يمثله من مخاطر على مستقبل الفلسطينيين وطموحاتهم والمنطقة بأكملها، وعلى مستقبل الأمن والاستقرار في المنطقة والعالم، وهذا العمل مخالف لكل القيم الإنسانية والقانون الدولي، مما يتطلب إعدادا فلسطينيا مناسبا لمعركة الجدار في محكمة العدل الدولية، لتشكل تلك المحاكمة مدخلا لمحاكمة إسرائيل وسياساتها وممارساتها، ومسؤوليها السياسيين والعسكريين، ومنطلقا لإدانة الدعم الأمريكي لهذا العدوان وكشف زيف ادعاءات الطرفين بتحالفهما الاستراتيجي لمحاربة الإرهاب بينما حقائق الأمور على الأرض تكشف مدى ما تحمله آلة الحرب الإسرائيلية الأمريكية الهوجاء الوحشية، على الشعبين الفلسطيني والعراقي من مخاطر على مستقبل البشرية، وتعبد الطريق لزيادة الإرهاب على المستوى الدولي.

وما محاولات إسرائيل الأخيرة وقيادتها من التهديد والتلويح باتخاذ إجراءات من طرف واحد إلا محاولات لنزع أي أمل في السلام في المنطقة واستمرار سياساتهم الإقصائية الوحشية والتي ستلقى مقاومة عنيفة وحازمة من طرف القوى الوطنية والإسلامية وكامل شعوب المنطقة وتعزز قناعتنا بضرورة استمرار البحث الجدي والوطني لآليات استمرار الانتفاضة والمقاومة وتصعيدهما بكل الأشكال الممكنة والقادرة على تحقيق إنجازات على الأرض تساهم في تضييق الخناق على حكومة شارون لإجبارها على التراجع عن مخططاتها الجهنمية ضد الشعب الفلسطيني.

وما تراجع حكومة شارون في صفقة التبادل مع حزب الله إلا دليل ساطع على قدرة القوى الثورية المؤمنة بعدالة قضيتها على فرض التراجع على المعتدين الغاصبين وإجبارهم على القبول بشروط المناضلين وستعزز تلك الصفقة ليس فقط من ثقة الوطنيين الفلسطينيين بقدرتهم على فرض سلسلة من التراجعات على حكومة شارون بل وتؤكد أهمية التشبث بالموقف المستند إلى الحقوق الثابتة للشعوب في نيل حريتها واستقلالها وعدم استعدادها لقبول أية شروط تنتقص من تلك الحقوق. وستفتح الباب أمام تراجع بعض القوى التي ترى في الظروف والمعطيات الدولية سببا في استعدادها للتعاطي مع الشروط والإملاءات الإسرائيلية الأمريكية. فالحقوق الكاملة غير المنقوصة تنتزع بخوض المعارك الكفاحية، والسياسية، وصلابة الموقف وديناميته الإيجابية القادرة على نزع كل ذرائع القوى المعادية، الهادفة لوصم نضالنا الوطني بالإرهاب. فنضالنا مشروع، ويساهم في تعزيز الأمن والاستقرار ويسعى إلى تعزيز مناخات العدل والأمن على المستوى المحلي والعالمي.

ونحن على يقين أن إنجازات حزب الله في موضوع الأسرى وفي مواجهته إسرائيل تعتبر إنجازات لشعبنا وثورتنا وتشكل مدخلا لتعزيز أواصر علاقتنا مع أشقائنا في لبنان وسوريا، من أجل خلق مناخ لتضامن عربي فعال يسعى إلى صيانة الحقوق الوطنية والقومية، وصيانتها من التبديد، وهزيمة المخططات الإسرائيلية والأمريكية الهادفة إلى تفكيك تضامننا وتحويله إلى عامل سلبي بدلا من تطويره لمصلحة مساندة حقيقية للنضال والمطالب المشروعة لشعبنا.

ونؤكد أن عذابات ومعاناة شعبنا وقدرته على استيعاب كل دروس الماضي خلقت مناخا وطنيا شعبيا أسس لصمود أسطوري ولمقاومة متجذرة قادرة إذا ما استغلت بطريقة إيجابية أن تؤسس لقدرة الحركة الوطنية الفلسطينية على التمسك باستراتيجية سياسية وكفاحية، مؤهلة للمحافظة على حقوقنا الوطنية الثابتة، وغير قابلة للتصرف والتنازل من أي جهة كانت باتجاه تعزيز تمسكنا بحق العودة، بإقامة دولتنا الوطنية المستقلة كاملة السيادة وعاصمتها القدس. ومساندة كل القوى المحبة للأمن والاستقرار في العالم لهذا الحق المقدس.

AL-HADAF
الهدف
سياسية عربية.شهرية

٥ شباط (فبراير) ٢٠٠٤ - العدد ١٣٥٠ - السنة الخامسة والثلاثون
الثمن ٤٠ ل.س

AL-HADAF- No.1350 - February - 2004



أسسها عام ١٩٦٩ الشهيد غسان كنفاني

رئيس التحرير: جواد عقل

سكرتير التحرير: أحمد م. جابر

المدير الفني: زهدي العدوي

ثمن النسخة

لبنان ١٦٠٠ ل.ل	الجزائر ٢٥ ديناراً	المغرب ١١ درهم
سوريا ٣٠ ل.س	ليبيا دينار واحد	أمريكا وكندا ٣ دولار
الأردن ٥٠٠ فلس	تونس ١,٢٥ د.ت	ألمانيا ٥ ماركات
العراق ٢٥٠ د.ع	صنعاء ١٥ ريالاً	اسبانيا ٣٠٠ بيزيتة
الإمارات ١٠ دراهم	السودان ٦ جنيهات	

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي بما فيها أجور البريد:
سوريا ٦٠٠ ل.س - لبنان والأردن ٣٠ دولار
- بقية الدول العربية ٥٠ دولار

يتم الاشتراك بإرسال إشعار الإيداع بقيمة الاشتراك السنوي
(أو نصف السنوي) باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:
بنك بيروت والبلاد العربية - شتورا - لبنان
رقم الحساب:
(AC No.0013-373179-001)
أو بإرسال شيك بنكي باسم رئيس التحرير
دمشق / ص.ب: ٣٠١٩٢

المكاتب

دمشق- ص.ب ٣٠١٩٢ - هاتف: ٦٣٣٥٢٦٧ - فاكس: ٦٣١٩٣٧٤
بيروت: ٣٠٩٢٣٠ - عمان: ٦٩٦٦٣٤٠ - الجزائر: ٥٩٤٥٤٨ - ٣٨٤٣٠٤
بغداد: تليفاكس ٧٧٨٤٦٩٠ - صنعاء: ٢٠٥٨٤٩
الموقع الرسمي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على الانترنت:
بالانكليزية: http://www.pflp-pal.org
بالعربية: http://www.pflp-palestine.org
الهدف على الانترنت: http://www.alhadafmagazine.com
البريد الالكتروني: alhadaf@mail.sy

التوزيع

- التوزيع في الجمهورية العربية السورية:
المؤسسة العربية لتوزيع المطبوعات
- التوزيع في المغرب: الشركة الشريفية للتوزيع والصحف

كلمة

في الساعات الأخيرة من العمل على هذا العدد، تلقينا في هيئة التحرير خبرين، أحدهما أفرحنا من الأعماق، وهو الإعلان عن التوصل إلى اتفاق بين حزب الله والعدو عبر الوسيط الألماني، سيتم بموجبه تحرير مئات الأسرى الأبطال من سجون العدو الصهيوني.

كنا نتمنى لو أن كل أشقائنا في معتقلات الفاشية الصهيونية يخرجون إلى ضياء الحرية، بل لو أن كل هذا الكيان العنصري القاتل يقتلع من جذوره، ولكننا نعرف أنها مجرد خطوة في طريق النضال الطويل.

نقول لأخوتنا ورفاقنا المحررين، هنيئا لكم العودة إلى أحضان شعبكم، وهنيئا لنا عودتكم إلى الصفوف. نقول لهم: كنتم راية الشرف والكرامة في زنازينكم الموحشة التي زينتموها بنور الصمود والمثابرة والاجتهاد الذي ربما يكون أكثر ما أزعج العدو وأتعبه، في مواجهة أناس يرفضون الموت ويصرون على الحياة.

مرحبا بكم جميعا، تحية لكل اسم وكل جبين وكل عين تلسعها الشمس بعد غياب، والعقبى للنسور الباقين خلف القضبان.

الخبر الثاني كان مفجعا ومؤلما، رحيل عبد الرحمن منيف، واحد من شيوخ الرواية والأدب العربي، بعد سبعين عاما عاش معظمها في المنفى والغربة الموحشة. نفتقد في لحظة حالكة من الزمان، ولعل فيما تركه الراحل الكبير، صاحب أرض السواد ومدن الملح، ما يخفف وجع الغياب.

الهدف التي طالما استضافت الراحل على صفحاتها وطالما كان من أخلص أصدقائها، تعبر عن عميق الحزن والخسارة لرحيل الروائي الكبير، مدركين أنها خسارة لا تعوض، للأدب والفكر وثقافة الحرية.

أ.ج

في هذا العدد

ثقافة وفنون

موضوع الغلاف



فلسطين والعراق ومفارقات الديمقراطية الأمريكية



سعدات للهدف: طرح المشاريع السياسية لا يكفي اذا لم تتحول هذه المشاريع الى عمل سياسي ونضال يومي تمارسه الجماهير الشعبية

١٣



بعد ١١ سبتمبر تحولات السياسة الأمريكية في المنطقة العربية من دعم الاستقرار إلى الدفع نحو التغيير

٤٦



وداعا.. عبد الرحمن منيف

٦٢

حكومة شارون

وسقوطها الأخلاقي والسياسي

منذ فترة من الوقت والبشرية تطرح استفسارا حول الأبعاد الأخلاقية والقانونية لجرائم حكومة إسرائيل المتواصلة والمستمرة ضد الشعب الفلسطيني. والتي فاقت بشاعتها ودمويتها ووحشيتها أعتى الاحتلالات والعهود الاستعمارية التي شهدتها العديد من شعوب الأرض فمن الاستخدام المفرط لكافة أنواع الأسلحة ضد المواطنين العزل المنتفضين، إلى ممارسات عسكرية فاشية إرهابية ذات طابع إبادي واستئصالي، بدات بحصار شنيع قل نظيره في التاريخ، إلى ممارسات القتل والتدمير للإنسان، والشجر والحجر الفلسطيني. وتدمير المخيمات وتجريفها كما حصل في جنين ومخيمات رفح والعديد من القرى والمدن والمخيمات الفلسطينية مرورا بسياسة الاغتيالات، التي تتنافى وأبسط قواعد القانون الدولي والاعتقالات التي طالت عشرات الآلاف من الشعب الفلسطيني، وحرب التجويع التي يستهدفها الحصار الظالم المستمر وسياسة العدوان. ورغم تستر الإدارة الأمريكية ورعايتها وحمايتها لمثل تلك الممارسات والسلوكيات الغريبة عن كل ما هو إنساني وقانوني، وتمادي قادة البيت الأبيض في تقديم الغطاء لحكومة الإجرام في إسرائيل واعتبارها رائدة السلام في المنطقة واعتبارها في مقدمة الصفوف التي تواجه الإرهاب وتسعى إلى اجتثاثه بإجراءات وحشية ممنهجة ومدروسة، وموافقاً عليها أمريكياً ونتيجة منطقية لاستقواء إسرائيل وحكومة شارون بالموقف الأمريكي. وترافق هذا الأمر مع ضعف وتردد للأداء الرسمي والشعبي العربي. واصلت إسرائيل أعمالها البربرية وابتدعت مخيلة قادتها صنوفاً جديدة من الممارسات العنصرية الفاشية. فيجري بناء جدار الفصل العنصري وإقامة المستوطنات تعبيرا ومشهداً لعنصرية تدميرية تسعى لاستخدام كل مكونات آلتها العسكرية والإعلامية والسياسية لخدمة أهداف غير نبيلة وغير إنسانية في محاولة يائسة لتحطيم إرادة المقاومة والاستبسال للشعب الفلسطيني الذي واصل المقاومة رغم كل ما يواجه نضاله من إجحاف، ارتباطا بالظروف والمعطيات التي افرزتها التطورات على المستوى العالمي والإقليمي.

لكن نذر الشر بدأت تدق حيث لم يعد ممكناً إخفاء وطمس حقائق تلك الممارسات السوداوية على أرض فلسطين الطاهرة. فأفواج المتطوعين الأجانب للدفاع عن الشعب الفلسطيني وصلابة وثبات الموقف الشعبي الفلسطيني ساهما بقسط وافر في خلق الأرضية والمناخ الملائمين لتلمس العديد من شعوب الأرض لمخاطر وأهوال السياسات الشارونية الرعناء، ليس فقط على الشعب الفلسطيني والشعوب العربية إنما على البشرية جمعاء.

ح.ع

أركان الإدارة الأمريكية بسياساتهم يفقدون الكرامة والعقل



فلم يعد ممكناً السكوت عن الجرائم والممارسات الإسرائيلية التي فاقت في عنصريتها وعدوانيتها كل تصور لدرجة أن سفير إسرائيل اعتدى وبشكل ملفت للنظر على صورة الفدائية (هنادي جرادات) في معرض في مدينة استوكهولم، لفنان إسرائيلي كره الحرب والعدوان، وأراد أن يقول إن الأمن والاستقرار لا يمكنه أن يصنعه المجرمون من أمثال شارون وحكومته، والتي تسارع الخطى للاستفادة القصوى من التطورات لمصلحة تنفيذ سياسة نيو عنصرية فاشية، تحقق استمرار احتلال إسرائيل للأرض الفلسطينية، وتمكن المستوطنين من نهب المزيد من الأراضي، وابتلاع (جدارهم العنصري) لمئات القرى والمساحات فإسرائيل تواصل القيام بجرائمها البشعة ضد الإنسان حيث تقوم دباباتها وجرافاتها بهدم آلاف المنازل في مدينة رفح الباسلة في سابقة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها، فعمليات التطهير العرقي تجري في وضح النهار وفي ظل صمت عربي وعالمي منقطع النظير. لكن بالمقابل تتعاظم حركة الدعم والتأييد الشعبي للنضال المشروع للشعب الفلسطيني، وتتكشف للبشرية حقائق جديدة عن بشاعة وصفاقة الإجراءات الإسرائيلية المتناغمة مع سياسة أمريكية معادية لكل ما هو إنساني وأخلاقي، تحت حجج واهية لم تعد تلقى تأييداً كما في السابق، نظرا للمخاطر التي تخلقها مثل تلك السياسات على مصير الإنسانية، بغض النظر عن (الكليشات) التي تقدمها إدارة بوش لمحاربة الإرهاب والديمقراطية لأن الكراهية والحقد والعنف التي تثيره مثل تلك السياسات قد تجر الويلات والحروب على البشرية وتجعل من قدرة الشعوب وقياداتها على إعادة الأمن والاستقرار أمرا في غاية التعقيد.

لأن السلوك والممارسات الإسرائيلية الأمريكية في منطقتنا تشير بوضوح إلى السياسة الاستعمارية الشوفينية العنصرية واستهدافاتها غير نبيلة وغير إنسانية، فأركان الإدارة الأمريكية بسياساتهم يغذون الكراهية والحقد وردات الفعل فحين يصرح ممثل الحمائم في إدارة بوش: إن حزب الله مسؤول عن ردات فعل إسرائيل يتناسى هذا الحاقد أن الأمم المتحدة أكدت: أن الجرافة المدمرة تجاوزت الخط الأزرق.

فهذا المعسكر المعادي لكل ما هو إنساني يتبنى مواقف جاهزة معدة سلفا في أروقة المخابرات المركزية والموساد. وتقوم المؤسسات السياسية والإعلامية الأمريكية الإسرائيلية بكل جبروتها بترويجها للإعداد لمغامرات عسكرية جديدة ضد شعوب المنطقة والعالم الثالث وها هو حليف شارون المتغطرس بوش يؤكد أنه ليس بحاجة من أحد للاعتداء على الدول، والقيام بمغامرات عسكرية جديدة عليها - تجلب له الخط المتعثر - في العراق.

وانطلاقا من إيماننا بأهمية تماسكنا على المستوى المحلي - فلسطينيا - واستعدادنا للقيام بخطوات عملية جزئية تضمن لنا تحقيق وحدة سياسية وتنظيمية قادرة على تنظيم كفاحنا ونضالنا بما يتلائم ويتوائم مع قدرتنا على مواجهة المخططات العنصرية الإسرائيلية وإطلاع العالم على حقيقة هذا الكيان الفاشي وممارساته اليومية ضد الشعب الفلسطيني.. فقطاعة الجرائم وبشاعتها تستوجب قدرا أعلى من المسؤولية الوطنية على جميع أطراف الحركة الوطنية الفلسطينية، لنكون جديرين بحمل لواء تضحيات وصمود شعبنا، رغم كل الظروف الإقليمية والدولية المجحفة بحق نضالنا الوطني.

هذا يتطلب أن تقلع حكومة السلطة عن اتخاذ قرارات سياسية ومبادرات سياسية كردات فعل على الفعل الإسرائيلي والسلوك الشاروني، الذي حاول أن يموه حقيقة مشاريعه السياسية وممارسات حكومته الفاشية بالتلطي وراء مواقف سياسية يعرف نفسه أنها غير قابلة للتحقيق والتنفيذ، لأنها تفتقر إلى كل المعايير والمقاييس الدولية وتتناقص مع إرادة المجتمع الدولي ومؤسساته، الراغبة في إقامة سلام في منطقة الشرق الأوسط يقوم على أساس قرارات الشرعية الدولية، والتزام الجميع بضرورة إخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل. فلذلك نجدهم وحلفائهم الأمريكيين يسرعون الخطى لطي صفحة إخلاء منطقة الشرق الأوسط من تلك الأسلحة الفتاكة والتي لا تملكها عمليا وفعليا سوى إسرائيل التي يوجد بها على أقل تقدير ٦٠٠ رأس نووي وآلاف الأطنان من الأسلحة الجرثومية والكيمياوية.

فإسرائيل وحليفها ليسا في وارد الإجابة على السؤال المركزي الذي يقول كيف يمكن تحقيق السلام والتقدم نحو الديمقراطية والازدهار في ظل آليات ومناهج التدمير، والعبث وسياسة الاعتقال الجماعي، ورفض الانصياع لقرارات الشرعية الدولية، وميثاق الأمم المتحدة؟

وعلى السلطة الفلسطينية بدلا من المبالغة في مثل تلك المبادرات السياسية وردات الفعل أن تعمل مع كل الأطراف المعنية من أجل أوسع إدانة دولية لإسرائيل وسياساتها العنصرية الأحادية. من خلال توفير كل الوثائق والأدلة الدامغة للطبيعة غير الإنسانية والأخلاقية لجدار الفصل العنصري بحيث تشكل مداولات محكمة (لاهاي) بخصوص الجدار مدخلا لتبيان حقيقة إسرائيل وأعمالها الإجرامية بحق الشعب الفلسطيني فمعركة الجدار يجب أن تستمر على كافة الصعد والميادين الشعبية والدولية لعزل إسرائيل وكشف أضاليلها ومناوراتها الخبيثة على الأسرة الدولية، حيث أنها صاحبة أكبر سجل حافل بالجرائم والانتهاكات ولا تضاهيها في هذا السجل سوى حليفتها إدارة بوش.

فالجدار العنصري يمثل مظهرا من مظاهر العنصرية والنيوفاشية الإسرائيلية الموغلة في وحشيتها ودمويتها.

فالخطوات الإسرائيلية تتسارع، حيث يلتهم الجدار العنصري الأراضي والمياه والسكان والحلم الفلسطيني ويسعى إلى تدمير وتحطيم وهزيمة الإرادة الوطنية الفلسطينية، التي تؤكد أن إرادة الشعوب المؤمنة بحقها بوطنها وتراثها وكرامتها الإنسانية وحقوقها الثابتة، لا يمكن أن تقهر وإنما ستلقى كل مشاريعهم الشيطانية الفشل وستتحطم على صخرة صمود شعبنا الذي يلقى الدعم والتأييد من كل الشعوب والقوى المحبة للعدل والأمن والاستقرار في العالم.

المعسكر المعادي لكل ما هو انساني يتبنى مواقف جاهزة معدة سلفا في أروقة المخابرات المركزية والموساد

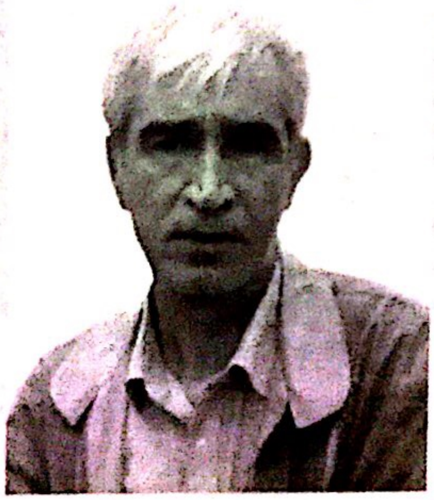
على السلطة الفلسطينية ان تعمل مع كل الأطراف المعنية من اجل أوسع ادانة دولية لإسرائيل وسياساتها العنصرية الأحادية

حملة التضامن مع سعدات في الذكرى الثانية لاعتقاله

مسيرات واعتصامات ومذكرات احتجاج في الوطن والشتات تدعو للإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين

بمناسبة مرور عامين على اعتقال الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/أحمد سعدات، عمت الوطن المحتل ومخيمات اللجوء والشتات العديد من الفعاليات التضامنية التي طالبت بالإفراج الفوري عنه وعن جميع المعتقلين السياسيين في سجون الاحتلال والسلطة.

في غزة أقامت لجنة الدفاع عن الرفيق سعدات يوما تضامنيا، تحدث فيه الرفيق يونس الجرو عضو اللجنة المركزية للجبهة الشعبية، والأخ أبو علي شاهين عضو المجلس الثوري لحركة فتح، وعبد الرحمن أبو النصر نقيب المحامين.



هذا ودعا الخطباء إلى الإفراج الفوري عن الرفيق سعدات ورفاقه، كما شدد المتحدثون على إطلاق سراح المناضل/مروان البرغوثي أمين سر حركة فتح في الضفة الغربية والرفيق/عبد الرحيم ملوح عضو اللجنة التنفيذية لـ (م.ت.ف) عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية والقائد الشيخ/حسن يوسف والرفيق/ركاد سالم الأمين العام لجبهة التحرير العربية، والأخ/حسن خضر عضو المجلس التشريعي وغيرهم الاف المناضلين الذين يقضون في سجون الاحتلال دفاعا عن الحقوق الوطنية والقومية المشروعة للشعب الفلسطيني في كل مكان.

وفي نفس المناسبة طالبت الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان بالإفراج الفوري عن الرفيق سعدات ورفاقه الآخرين، واعتبر المحامي/راجي الصوراني مدير المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان في غزة: «إن اعتقال سعدات غير قانوني، كما اعتبر رئيس رابطة المحاميين الديمقراطيين الدولية/جينتدراشارما في كلمة ألقاها نيابة عنه الرفيق يوسف الجرو: «إن عدم الكشف عن أسباب الاعتقال انتهاك لحق الإنسان الأساسي».

- وفي قلقيلية أيضا نظمت القوى الوطنية والإسلامية ونقابة محامي فلسطين مسيرة احتجاج كبيرة رفعت لافتات طالبت فيها السلطة الفلسطينية بالإفراج الفوري والسريع عن سعدات ورفاقه وإغلاق ملف الاعتقال السياسي. وفي نهاية المسيرة اعتصم المحتشدون أمام مبنى المحافظة حيث تم إلقاء عدة كلمات في هذه المناسبة بعد ذلك سلم المتظاهرون مذكرة وطنية موجهة للرئيس/عرفات ورئيسي مجلس الوزراء والمجلس التشريعي تدعوهم إلى التحرك السريع من أجل الإفراج عن سعدات ورفاقه.

- وبتاريخ ٢٠٠٣/١٢/٢٩ قام المحامي/أحمد الصياد مدير عام مؤسسة «مانديلا» بزيارة الرفيقين القائدين أحمد سعدات وعاهد ابو غلمة في مكان احتجازهما في سجن أريحا.

- وفي مدينة غزة نظمت الجبهة الشعبية اعتصاما امام مقر الصليب الأحمر الدولي يوم ٢٠٠٤/١/١٥ ألقت الرفيقة/مريم أبو دقة - عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية بيانا خلال الاعتصام قائلة: «إن دفاعنا عن القائد سعدات ورفاقه، أبو غلمة، وباسل الأسمر، ومجدي الريماوي، وحمدي قرعان هو دفاع عن الثوابت الوطنية».

كما وجه المعتصمون مذكرة احتجاج إلى رئاسة وأعضاء المجلس التشريعي جاء فيها: «نتوجه إليكم لتقوموا بدوركم، وواجبكم في مساءلة السلطة التنفيذية، وكل من له مصلحة في استمرار اعتقال الرفيق سعدات ورفاقه الأربعة الآخرين».

- ومن أمريكا الشمالية طالبت لجان التضامن مع الشعب الفلسطيني في مذكرة موجهة إلى الرئيس عرفات، بالعمل على تنفيذ المطلب الشعبي الفلسطيني والعربي والإنساني، القاضي بإطلاق سراح المناضل الوطني الكبير سعدات ورفاقه المناضلين.

- ومن جزيرة الحرية كوبا وجه السيد (أومبيرتو ايرنانديس) الأمين العام لمنظمة تضامن شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية «برقية تهنئة للجبهة الشعبية» بمناسبة الذكرى ٣٦ لتأسيسها، معلنا في نفس الوقت وقوف المنظمة مع الرفيق سعدات، مطالبا بإطلاق سراحه الفوري.

- ومن العاصمة الكوبية هافانا وصل العديد من برقيات التضامن مع الرفيق سعدات موقعة باسم ممثلي كل من الأحزاب والمنظمات التالية:

- الحزب الشيوعي التشيلي.
- الحزب الشيوعي الكولومبي.
- الحزب الشيوعي السوداني.
- الحزب الشيوعي البيروني.
- الجبهة الوطنية مانويل رودردجنس/تشيلي.
- جيش التحرير الوطني الكولومبي.
- حزب الشغيلة الدومينكانيين.
- الوحدة الثورية الوطنية الغواتيمالية.
- القوات المسلحة الثورية الكولومبية.
- الجبهة الاشتراكية البويرتوريكية.
- قوة الثورة في جمهورية الدومينيكان.
- حركة الاستقلال الجديدة في بويرتوريكو.

- وفي هافانا أيضا أقيم مهرجان تضامني مع الجبهة الشعبية في ذكرى تأسيسها ٣٦ ومع الرفيق سعدات ورفاقه الأربعة بمناسبة مرور عامين على اعتقالهم تحدث في المهرجان كل من الرفيق/صلاح صلاح، ومندوب الأحزاب والمنظمات المعتمدة في كوبا، والرفيق/باسل إسماعيل مسؤول منظمة الجبهة في كوبا.

كتائب الشهيد «أبو علي مصطفى» تعلن مسؤوليتها عن قصف مستوطنة «نفيه دكاليم» وثكنة عسكرية قرب مستوطنة «نيتسار حزاني»

يوم ٢٠٠٣/١٢/١ وردا على همجية الاحتلال وجرائمه المستمرة ضد شعبنا من رفح حتى جنين، قامت مجموعة خاصة من سرايا الشهيد جيفارا غزة بقصف مستوطنة «نفيه دكاليم» بتسعة قذائف هاون من عيار ٧٤ ملم. والثكنة العسكرية الصهيونية القريبة من حدود مستوطنة «نيتسار حزاني» بصاروخين موجهين من نوع جيفارا. وقد اعترف راديو العدو بالهجومين.

كتلة اتحاد الطلبة التقدمية في جامعة القدس تنظم ندوة سياسية لكشف مخاطر الجدار العنصري

تحدث في الندوة المهندس/جمال جمعة من الحملة الشعبية لمقاومة بناء الجدار العنصري، وشرح المخاطر الناجمة عنه وما سيتركه من آثار كارثية اقتصادية واجتماعية ونفسية على أبناء شعبنا الفلسطيني.

جبهة العمل الطلابي التقدمية في جامعة القدس تنظم معرض رسومات كاريكاتيرية

نظمت جبهة العمل الطلابي كتلة الشهيد «أبو علي مصطفى» معرض رسومات كاريكاتيرية للفنان ناجي العلي، ولوحات تشكيلية للانتفاضة المباركة، واستمر المعرض خمسة أيام.

طواقم لجان العمل الصحي تواصل العمل التطوعي في نابلس

تفيد المعلومات الواردة من مدينة نابلس أن الطواقم الطبية تمكنت من تقديم العلاج ميدانيا لعشرات الآلاف من الحالات التي وصلتها. من جانب آخر وزع اتحاد لجان المرأة واتحاد لجان العمل الصحي معونات تموينية على الأسر المحتاجة في المدينة وفي منطقة القريون التي تخضع لحصار شديد من قبل قوات الاحتلال.

رئيس التنظيم الشعبي الناصري في لبنان الدكتور أسامة معروف سعد يبرق مهنئاً

أرسل الدكتور أسامة معروف سعد برقية تهنئة إلى الدكتور/جورج حبش مؤسس الجبهة الشعبية بمناسبة الذكرى ٣٦ لانطلاقتها جاء فيها:

تأتي ذكرى تأسيس جبهتكم هذا العام في ظل مشهد عربي ودولي مفجع، فالغطرسة الأمريكية بلغت أوج استبدادها وإجرامها.. مع واقع عربي مأساوي لم نشهد له مثيل من قبل.. لكن نضالات شعبكم ستنتصر في نهاية المطاف.. ولن نهزم مهما بلغ المتآمرون من قوة واستبداد وظلم.

المكتب السياسي للجبهة الشعبية يبرق مهنئاً الحزب الشيوعي اللبناني بمناسبة انعقاد مؤتمره التاسع

أرسل المكتب السياسي للجبهة برقية تهنئة إلى الرفيق/خالد حدادة الأمين العام الجديد للحزب الشيوعي اللبناني بمناسبة انعقاد المؤتمر التاسع للحزب وانتخابه أمينا عاما جاء فيها:

نعبر عن سعادتنا لنجاح مؤتمركم التاسع وانتخابكم أمينا عاما للجنة المركزية. ونؤكد حرصنا على العلاقات التاريخية الوطيدة التي جمعت حزبينا.. ونأمل أن تتطور هذه العلاقات لما فيه مصلحة شعبينا وتحقيق أهدافهما المشتركة في الحرية والعدالة والازدهار.

الجبهة الشعبية تنعي المناضل والمفكر أحمد صدقي الدجاني

ببالغ الحزن والألم تلقت الجبهة الشعبية نبأ وفاة المناضل والمفكر الفلسطيني والعربي الكبير/أحمد صدقي الدجاني عضو اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف السابق الذي أمضى وأفنى عمره وحياته في خدمة قضايا شعبه وأمته.

إن الجبهة الشعبية إذ تنعي الفقيد الكبير، فإنها تتقدم لعائلته وأصدقائه ولشعبنا الفلسطيني والعربي بأحر التعازي.

الدكتور/جورج حبش ينعي إلى جماهير الشعب الفلسطيني وأمتنا العربية المفكر والروائي العربي د. عبد الرحمن منيف

خسرت الثقافة العربية والفكر والأدب العربي، وخسرت القضية العربية الفلسطينية الدكتور/عبد الرحمن منيف، أحد أبرز المفكرين والأدباء العرب، الروائي الذي كتب لفلسطين وللقضايا العربية، والذي أبدع في خماسيته الرائعة (مدن الملح)، حاملا نبوءة فكرية لما يحصل في عالمنا العربي من نكبات وآلام وجراح.

والمفكر د. عبد الرحمن منيف بفكره ورؤيته كان منارة تضيء طريق أجيال المستقبل، التي راهن عليها في تطلعه الدائم نحو المستقبل المنير القادم لا محالة. رأى الدكتور/عبد الرحمن الأمل في انتفاضة شباب وأطفال فلسطين، الذين أطلق عليهم لقب «حناظلة فلسطين»، وعمل طوال حياته من أجل الانطلاق بالنهوض القومي العربي من المحيط إلى الخليج.

إن ما راكمه المفكر الراحل الروائي/عبد الرحمن منيف من إبداعات، كتابات سيبقى إرثا أدبيا وفكريا نعتز به، كما تعتز به أمتنا العربية التي فجعت بفقدانها أديبها الجليل وعميد الأدب العربي المعاصر د. عبد الرحمن منيف.

إنني أنعي إلى أمتنا العربية الصديق والأخ العزيز على قلوبنا الدكتور/عبد الرحمن، وأؤكد أننا سنواصل الطريق الذي ناضل عليه الراحل الكبير، سنواصل مسيرة المفكر القومي العربي المناضل والمبدع الكبير/عبد الرحمن، من أجل حقوق الإنسان العربي وحرية أوطانه، ومن أجل فلسطين والانتفاضة وكافة الحقوق العربية.

تحية إلى روح شهيد فلسطين، شهيد الفكر القومي العربي المناضل الكبير الروائي د. عبد الرحمن منيف.

د. جورج حبش
مؤسس حركة القوميين العرب
والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

مهرجان تضامني بدمشق

مع الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين

بدعوة من اتحاد الكتاب العرب واتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين أقيم مساء يوم الثلاثاء الموافق ٢٠/١/٢٠٠٤ في مقر اتحاد الكتاب العرب بدمشق مهرجان تضامني مع الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية.

وقد حضر المهرجان العديد من الشخصيات السياسية والثقافية والنقابية وفي مقدمتهم الدكتور/علي عقلة عرسان الأمين العام لاتحاد الكتاب العرب، والسيد/محمود الخالدي ممثل (م. ت. ف) في دمشق، وشخصيات أخرى هامة من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وممثلي فصائل المقاومة الفلسطينية، وبعض من قادة وكوادر وأعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وعلى رأسهم الرفيق/أبو أحمد فؤاد عضو المكتب السياسي للجبهة مسؤول اللجنة السياسية - الإعلامية، وحشد غفير من المهتمين.

في بداية المهرجان دعا عريف الحفل الرفيق/ماهر اليوسفي (كاتب وأسير محرر) الحضور للوقوف دقيقة صمت إجلالا وإكبارا لشهدائنا الأبرار، شهداء الأمة العربية وشهداء المقاومة والانتفاضة الفلسطينية.

ثم ألقى بعض الأبيات الشعرية الحماسية للشاعر الكبير/محمود درويش بعد ذلك ألقيت كلمات المشاركين في المهرجان وفيما يلي أهم ما جاء فيها:

كلمة التضامن مع الأسرى والمعتقلين في السجون الصهيونية وسجون السلطة ألقاها الرفيق/أبو أحمد فؤاد مسؤول اللجنة السياسية - الإعلامية في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

فيما يلي أهم ما جاء فيها:

أيتها الاخوات.. أيها الاخوة.. أيتها الرفيقات.. أيها الرفاق

أيها الحضور الكريم..

نلتقي اليوم لنكرس في لقائنا صورة تضامنية ويوما تضامنيا مع الحركة الأسيرة في السجون الصهيونية.. نلتقي اليوم وقد مضى عامان على اعتقال الأمين العام للجبهة الشعبية القائد المناضل/أحمد سعدات ورفاقه في سجن أريحا.

ولنعلن من هنا تضامننا أيضا مع معتقلي سجن (غوانتانامو) أريحا، الذي يقع تحت إشراف أمريكي بريطاني.. ولتعيدنا الذاكرة إلى الأسباب التي أدت إلى اعتقالهم ومحاكمتهم بوصفها تندرج في إطار الصفقة.. وكانت محاكمتهم بمثابة محاكمة للمقاومة، وأدانت جميع القوى والفصائل الفلسطينية والعربية اعتقال الأمين العام المناضل/أحمد سعدات ورفاقه المناضلين والأخ فؤاد الشوبكي، كما قال القضاء الفلسطيني كلمته وأصدر قرارا بالإفراج الفوري عن الرفيق أحمد سعدات ولكنه لم ينفذ! إن إجراء المحاكمة والسجن قوبل بالرفض من قبل شعبنا ورفضته كافة القوى الفلسطينية والعربية، وكانت كل المبررات التي قدمتها السلطة لاعتقاله ورفاقه والأخ الشوبكي غير مقنعة وكافية... فاليوم نلتقي للمطالبة بالإفراج الفوري عنهم بعد مضي عامين على سجنهم في أريحا.

نلتقي اليوم لنوجه التحية إلى شعبنا الصامد في فلسطين، شعب الانتفاضة والمقاومة، شعبنا الذي غمد بالدم والتضحيات والعذاب طريق الحرية والاستقلال.

نلتقي لنحيي المعتقلين والأسرى في السجون الصهيونية، لنحيي المناضل/مروان البرغوثي ونجله المعتقل، لنحيي المناضل/حسام خضر، لنحيي المجاهد/حسن يوسف، لنحيي المناضل/سمير القنطار والمجاهد/مصطفى الديراني والمجاهد/الشيخ عبيد وأنور ياسين، ونحيي المناضل القائد عضو اللجنة التنفيذية لـ (م. ت. ف) ونائب الأمين العام للجبهة الشعبية الرفيق/عبد الرحيم ملوح، لنحيي المجاهد الأسير/جمال أبو الهيجا وكل المقاومين والمناضلين الفلسطينيين والعرب الذين يعانون عذاب السجون والمعتقلات الإسرائيلية.. كما نحيي أمهات الأسرى والمعتقلين وزوجاتهم وأبنائهم الذين ينتظرون بفارغ الصبر بزوغ فجر الحرية، ونعاهدهم على



أن أكثر شعب في العالم تعرض للاعتقال هو الشعب الفلسطيني

الاستمرار في النضال من أجل تحريرهم من براثن العدو الصهيوني.

أيتها الأخوات.. أيها الأخوة.. أيها الحضور الكريم..

وفي عصر الجرائم الأمريكية الصهيونية والحروب الاستعمارية، يقع على عاتقنا واجب التضامن، مع المعتقلين والأسرى في السجون الصهيونية، ورفع الصوت عاليا من أجل إبراز دورهم وتضحياتهم وإبراز قضيتهم أمام الرأي العام العالمي والعربي، نقيم حملات التضامن، ونتوجه بدعوتنا إلى المنظمات الإنسانية والحقوقية في العالم لتتبنى قضية الاف المعتقلين في السجون والمعتقلات الصهيونية، ولفضح الممارسات القمعية والإرهابية الصهيونية. إننا إذ نشير هنا إلى أن أكثر شعب في العالم تعرض للاعتقال هو الشعب الفلسطيني وآخر إحصائية تبين أن أكثر من نصف مليون فلسطيني تعرض للاعتقال على مدار سنوات الاحتلال للضفة والقطاع منذ عام ١٩٦٧ وهذا بدوره يشكل خمس سكان فلسطين والاعتقالات طالت النساء والأطفال والشيوخ والشبان، وكثير من المعتقلين قضى نحبه في السجون والمعتقلات، وكثير منهم يحمل الأمراض المزمنة، وتعرضوا لأقسى أنواع العذاب والقهر. وبهذه المناسبة ندعو إلى تشكيل أوسع حملة تضامن عربية وعالمية للإفراج عن المعتقلين في سجون الاحتلال وسجون السلطة الفلسطينية في أريحا.

كما ندعو جميع فصائل المقاومة لتوحيد جهودها ووضع برنامج الحد الأدنى على أساس استمرار المقاومة واستمرار الانتفاضة. وهذه الخطوة تندرج في سياق الخطوات العملية، متقدمة على الحوار بهدف الوصول إلى وحدة وطنية حقيقية في إعادة بناء مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية على أسس ديمقراطية وعلى أساس برنامج سياسي وطني، جوهره التمسك بالثوابت الفلسطينية في مقدمتها حق العودة وتقرير المصير، وإقامة الدولة المستقلة وعاصمتها القدس.

إن الأخطار التي تهدد المنطقة العربية وأمتنا العربية ما زالت ماثلة، فبعد الاحتلال الأنجلو أمريكي للعراق، تزداد مقاومة المخطط الأمريكي وأهدافه واستراتيجيته المعلنة، ولعل التجربة تثبت مجددا أن لا زوال للاحتلال إلا عبر المقاومة، كما حصل في الجنوب اللبناني، عندما اندحر الاحتلال الصهيوني مهزوما، وبالمقاومة سوف يتكرر مثل رحيل الاحتلال الصهيوني الأمريكي عن الأراضي العربية المحتلة في فلسطين والعراق، وفي هذا السياق أحيي بطل عملية (بيتاح تيكفا) الاستشهادي/سائد كمال حنني - أحد أبطال كتائب الشهيد (أبو علي مصطفى) كما أحيي الاستشهادية البطلة بطلة العملية المشتركة لكتائب شهداء الأقصى وكتائب القسام. ومن هنا واجبنا جميعا دعم المقاومة في فلسطين والعراق، كما يستدعي الواجب القومي الوقوف إلى جانب الشعب العراقي الشقيق الذي وقف دوما إلى جانبنا في صراعنا مع العدو الصهيوني، والوقوف إلى جانب سوريا الصامدة في وجه الضغوط والمخططات المعادية.

إننا ندعو إلى تشكيل جبهة عالمية لمناهضة العنصرية الصهيونية وجدار الفصل العنصري. وبهذا الصدد نحيي قوى التضامن العالمي ولجان الحماية المدنية والشعبية الأوروبية التي تأتي لتعبر عن التضامن مع الشعب الفلسطيني.

التحية إلى جماهير الأمة العربية، وتحية إلى الحركة الأسيرة العربية الفلسطينية في السجون الصهيونية، وتحية إلى معتقلي سجن أريحا.

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، الحرية للأسرى والمعتقلين في السجون الصهيونية وفي سجن أريحا.

كلمة التنظيم الفلسطيني
لحزب البعث العربي الاشتراكي
ألقاها الرفيق/راتب شهاب
أمين فرع اليرموك للحزب

فيما يلي أهم ما جاء فيها:

أيها الرفاق والأخوة... أيها الحفل الكريم:

إنه لشرف عظيم لنا جميعا أن نقف اليوم في محراب هذا الصرح الثقافي الكبير بنضاله، والقوي بمناضليه في ظل مناسبة سامية مقدسة نعلن من خلالها بكل قوة ووفاء عن تضامننا المطلق مع هؤلاء الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين وأخوتهم من العرب الذين يذوقون أقسى ألوان العذاب في سجون العدو الصهيوني



الغاشم.. هؤلاء الأبطال الذين استطاعوا تحويل هذه السجون والمعتقلات التي أعدت لدفنهم أحياء إلى قلاع ومدارس وطنية رفدت العمل النضالي الفلسطيني - بمراحل كثيرة - بخيرة المناضلين الذين اذهلوا جلاديهم وقادة العدو بصمودهم المشرف. وصبرهم العظيم، واستعدادهم المستمر لمواصلة النضال حتى تحقيق أهدافهم الوطنية.

أيها الرفاق والاخوة... أيها الحفل الكريم:

إذا كانت المقاومة هي من الحقوق المقدسة التي كفلتها الشرائع السماوية والقوانين الدولية، وهي حق طبيعي مارسته شعوب الأرض كافة عبر التاريخ حينما تعرضت للغزو والعدوان والاغتصاب والاستيلاء على الأوطان، فإن الاحتلال والعدوان وتشريد السكان وقتل الأبرياء أعمال إرهابية رفضتها جميع الشرائع السماوية والقوانين الدولية..

ومن هنا أصبح النضال واجبا مقدسا لتحرير الأوطان ودحر الغزاة، واستمد المناضلون الشهداء منهم والأحياء طهارتهم من قداسة هذا النضال فالشهداء والجرحى والأسرى يمثلون قيم هذه الأمة الكبرى ورموز كبريائها وشموخها على مر العصور.

أيها الرفاق:

وبالرغم من مخاطر الوضع الناتج عن انهيار العراق واحتلاله من قبل التحالف الأمريكي البريطاني، أكدت سورية مجددا موقفها الثابت من العراق ووحدة ترابه.

كلمة الأسرى والمعتقلين القاها/الأخ أحمد أبو هدبة سكرتير لجنة الدفاع عن الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية

فيما يلي أهم ما جاء فيها:

أيها الأخوة والأخوات:

الحديث عن الأسرى والمعتقلين وتجربتهم المعمدة بالدم والجهد والعرق وبالنضالات الصغيرة والكبيرة، هو حديث حول أهم روافد العمل الوطني الفلسطيني بشكل عام، بحكم ارتباط تجربة الأسرى والمعتقلين بواقع نضالاتهم الطويلة طوال العقود وعمقها وتنوعها، والتي من خلالها استطاع أسرانا ومعتقلينا عبر نضالاتهم الطويلة طوال العقود الأربعة من تاريخ الصراع مع المشروع الصهيوني، أن يقلبوا سياسيات الكيان الصهيوني رأسا على عقب حيال ظاهرة الأسرى، التي أرادت قبرهم أحياء، عبر استهدافهم ماديا ومعنويا، ومحاولة إفراغهم من مضمونهم الوطني والإنساني وتحويلهم بالتالي، إلى عالة على انفسهم ومجتمعهم.

استطاع أسرانا ومعتقلونا أن يسقطوا هذه السياسات، وأن يحولوا سجونهم ومعتقلاتهم إلى مدارس ثورية، وإلى رافد قوي للعمل الوطني، وإلى خزان يضخ الدماء في ساحة التضحية والفداء والانتفاضات الفلسطينية، حتى أصبحت ظاهرة الأسرى جزءا مهما وأصيلا في الحركة الوطنية الفلسطينية، وكان تأثير هذه التجربة واضحا وملموسا خلال هذه الحركة وخاصة خلال الانتفاضتين الأولى والثانية.

والأهم من ذلك كله - أيها الأخوة والأخوات - استمرار السياسات الصهيونية، في تجنب أية صيغة أو حتى مقاربة قانونية للتعاطي مع هذه الظاهرة، ضاربة عرض الحائط جميع القرارات والمواثيق الدولية والإنسانية كميثاق جنيف لعام ١٩٤٩، والتعديل الذي طرأ عليه عام ١٩٦٩، والذي ينص على معاملة الأسرى والمعتقلين معاملة لائقة، ولا تزال هذه السياسات تمعن في تعذيب الأسرى، والمعتقلين بهدف تحقيق أهدافها آنفة الذكر، وهو أمر يتطلب من المؤسسات والنقابات والهيئات الشعبية والرسمية العربية. وضع قضية الأسرى والمعتقلين على رأس أولوياتها، وجعلها القضية الأكثر أهمية في سبيل التخفيف عن آلام ومعاناة أسرانا ومعتقلينا.

في الختام أيها الأخوة أيتها الأخوات: التحية كل التحية لأسرانا ومعتقلينا في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

استطاع أسرانا ومعتقلونا أن يحولوا سجونهم ومعتقلاتهم إلى مدارس ثورية



كلمة اتحاد الكتاب العرب القاها الدكتور/علي عقلة عرسان الأمين العام للاتحاد

فيما يلي أهم ما جاء فيها:

إن هؤلاء الأسرى الذين ضحوا من اجلنا وبهدف تحرير الوطن، الذين دفعوا حياتهم وحياة أسرهم وأبنائهم ثمنا لمواقفهم الشجاعة، وعليه.. كيف نقبل على أنفسنا أن نقف مكتوفي الأيدي إزاء معاناة هؤلاء الأسرى؟!، علينا أن نعيش هذه الحالة في نتاجها لنرى المعاناة في الدائرة الإنسانية، ولا يكفي أن نصرخ في دائرة مغلقة، يجب أن نرى معاناة ما يزيد عن (٥) آلاف أسير فلسطيني في السجون الإسرائيلية، وعلينا أن نقصر المسافة ونعمل على تخفيف معاناتهم بهدف الوصول إلى تطبيق قرارات الشرعية الدولية.

وعلينا أن نرفع الصوت عاليا عبر: وسائل الإعلام والانترنت ومنظمات حقوق الإنسان والهيئات الدولية المختصة لنشكل ضغطا على إسرائيل، بهدف تخفيف معاناة الأسرى وإطلاق سراحهم، وعلينا أن نبذل كل الجهد المستطاع بهدف أن يكون عملنا منظما للدفاع عن قضية الأسرى، وفضح الصمت العربي، ونحن بدورنا في اتحاد الكتاب العرب قمنا بإعداد ملفات ووقائع للأسرى، والقدس، والقرى المدمرة وعلاقة النازية بالصهيونية لتقديمها إلى الجهات الدولية المختصة.. إننا أمام مخاطر كبيرة للحركة الصهيونية على الأمة العربية، ويتوجب علينا أن نوحد جهودنا بهدف استمرار المقاومة والانتفاضة في فلسطين حتى التحرير والعودة.

إن المقاومة هي الفعل، ونحن لن ننهزم، والمستقبل سيكون لنا، علينا أن نعتز بتجربة المقاومة اللبنانية وكذلك بتجربة الانتفاضة الفلسطينية لأنها جعلت الكيان الصهيوني يعيش مأزقا كبيرا، إنني متفائل بشعب فلسطين وبمستقبل هذه الأمة.

والسلام عليكم

سعدات للهدف:

طرح المشاريع السياسية لا يكفي اذا لم تتحول هذه المشاريع الى عمل سياسي ونضال يومي تمارسه الجماهير الشعبية

سجن أريحا - حوار عبدالرحيم الريماوي

قال الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أحمد سعدات أن بناء الجدار الفاصل بحد ذاته مشروع سياسي عملي شامل لشارون وحكومته.

واضاف في حديث خاص بـ«الهدف» ان الأزمة التي يعيشها الشعب الفلسطيني سببها تردد السلطة في حسم خيارتها بعد فشل مفاوضات كامب ديفيد وانفجار الانتفاضة التي شكلت ردا شعبيا على هذا الفشل.

❖ بدأ بعض المحللين السياسيين يطالبون بحل السلطة الفلسطينية واعادة الصراع الى جذوره الأصلية، هل الدعوات لحل السلطة جاءت ردة فعل على العدوان الإسرائيلي وتهديد شارون باتخاذ خطوات أحادية الجانب؟

سعدات: الأصوات التي تعالت في الآونة الأخيرة في فلسطين ودعت الى حل السلطة استندت في تعليل مطالبها الى تشخيص الوضع الفلسطيني الراهن، فما تشير اليه معطيات الواقع ان مشروع التسوية والمفاوضات وفق خارطة الطريق قد اغلقت أمامه حكومة شارون كل الأبواب، خاصة بعد إصرارها على استكمال بناء الجدار الفاصل العنصري، واعلان شارون عن خطة الفصل الأحادي الجانب، فبناء الجدار الفاصل بحد ذاته مشروع سياسي عملي شامل لشارون وحكومته، فهو يتضمن فرض رؤية شارون حول كافة موضوعات التسوية «القدس، الحدود، الاستيطان، وتحصيل حاصل العودة، والاستقلال الوطني وقيام الدولة الفلسطينية»، والجدار خطة سياسية تبرر دعوته للفصل الأحادي الجانب او الانسحاب من جانب واحد، فهي تعبير عن سلوك الحكومة الصهيونية لفرض رؤيتها على شعبنا وعلى السلطة الفلسطينية عبر مشروعها السياسي العملي بناء الجدار، وحسم الخلاف على الأرض وفرض الأمر الواقع السياسي بعد ان فشلت بفرضه عن طريق المفاوضات او القوة العسكرية، مضافا لما سبق التعايش القسري المفروض بين سلطة الاحتلال والسلطة، لينشأ موضوعيا بمعزل عن الرغبات نوعا من التقاسم الوظيفي بين الاحتلال والسلطة الفلسطينية، الأمن للاحتلال، والإنفاق والشؤون المدنية وتحمل الأعباء على السلطة الفلسطينية المقيدة حتى في إطار هذه الوظيفة بفعل إجراءات الاحتلال، باختصار وتكثيف فان مطلب حل السلطة هو أحد أشكال الإعلان السياسي لفشل مشروعها السياسي في المفاوضات وممكنات تحقيق الأهداف الوطنية عبر هذه الطريق. وان كنت التقي مع هذا التشخيص واحترم الموقف والاجتهاد المطروح على خلفية وطنية وكفاحية، واشدد على ان مسؤولية هذا الوضع و ما آل اليه وضع السلطة، والأزمة التي يعيشها شعبنا سببه تردد السلطة في حسم خياراتها بعد فشل مفاوضات كامب ديفيد وانفجار الانتفاضة التي شكلت ردا شعبيا على هذا الفشل، اذ كان على السلطة منذ هذا التغيير ان تمتلك الجاهزية للتعبير عن مضمون جديد للوظيفة والدور والأداة يحولها من اداة تفاوض وفرض الأمن الى جزء من مركبات الانتفاضة والنضال، مع كل ذلك لا أرى في شعار حل السلطة هو التعبير المنطقي المنسجم مع احتياجات اللحظة السياسية للأسباب التالية:

أولا: في الإطار النظري لمحاكمة الموقف من السلطة فان جوهر كل ثورة اجتماعية ديمقراطية او وطنية ديمقراطية هو الإمساك بالسلطة، وفي سياق النضال وتراكم إنجازاته وقبل إسقاط سلطة للتحالف الطبقي المحلي الرجعي في كل بلد او سلطة احتلال، تعمل الثورة على بناء مؤسسات سلطتها في موازاة سلطة الاحتلال وتحدث ما يسمى بازدواجية السلطة وتسعى لحسم سيطرة سلطتها بديلا لسلطة الاحتلال.

ثانيا: رغم معارضتنا للسلطة كمشروع سياسي بفعل موقفنا المناهض لاتفاق أوسلو ورؤيتنا المبكرة ان مفاوضات أوسلو لن تحول الكيان السياسي للحكم الذاتي الفلسطيني الى سلطة لدولة فلسطينية مستقلة، إلا أننا بعد نشوئها وتحولها الى واقع بدأنا نطالب بتغيير الإطار السياسي العام والمشروع الحامل لها لتحويلها الى سلطة مناضلة ضد سلطة الاحتلال مما يؤسس لتطويرها الى سلطة وطنية مستقلة تحقق البرنامج الوطني في حق تقرير المصير والاستقلال والسيادة، كما دعونا الى إجراء الإصلاح الشامل لها لاستئصال الفساد فيها الذي ورثت جنينه من المناخ البيروقراطي في منظمة التحرير قبل نشوئها. فالمطلوب من السلطة - وانسجاما مع الواقع و ردا على مشاريع العدو لسقف مقومات تطورها الوطني وسعيه الى تحويلها الى رديفة للاحتلال لاداء وظيفة حمايته، وتحجيم الطموح والأهداف الوطنية لشعبنا - هو تغيير برنامجها السياسي وفي هذا الحال فليسعى الاحتلال لحلها، لا ان تبادر لحل نفسها.

ثالثا: ان احتمالية تنفيذ شارون للانسحاب من جانب واحد من مناطق السلطة تحتاج إلى سلطة تملأ الفراغ الناشئ هذا بشكل عام، والدعوة لبقاء السلطة لا يتبعه القبول بها كما هي ينخرها الفساد في هرمها السياسي وفي كافة جوانبها وإمداداتها، او سلطة ترتكز الى برنامج سياسي هابط جوهره استجداء أمريكيا واسرائيل والقبول باملاءاتهما، وهذا يتطلب ان تبادر قيادة السلطة والمنظمة الى إدارة أوسع حوار وطني فلسطيني شامل لكافة تعبيرات المجتمع الفلسطيني السياسية والاجتماعية لاستخلاص البرنامج السياسي الوطني المرتكز على استمرار النضال والمقاومة والانتفاضة كروافع، إضافة إلى برنامج وخطة للإصلاح الوطني الديمقراطي لاعادة بناء البيت الفلسطيني الداخلي على أسس وطنية وديمقراطية، وإنشاء قيادة وطنية كمرجعية سياسية عليا لقيادة شعبنا بشكل انتقالي، والإعلان عن نقل السلطة إليها وفق رؤيا ومنهج سياسي جديد بفك الارتباط مع منهجها القديم الذي وصل الى طريق مسدود.

❖ ما هي الاستراتيجية الفلسطينية المطلوب بلورتها اليوم لتحقيق الأهداف الوطنية الفلسطينية. وما هي أشكال التحالفات والنضال للمرحلة الراهنة؟

سعدات: ان فشل المنهج السياسي الذي اتبعته السلطة والقيادة الرسمية في منظمة التحرير في قيادة الشعب الفلسطيني الى جادة تحقيق أهدافه الوطنية قد أوصلنا الى الوضع الذي نعيشه اليوم. هذه الحقيقة تستدعي ان تصاغ الاستراتيجية الفلسطينية للكفاح الوطني التحرري على اساس منهج بديل يعيد الاعتبار لخيار المقاومة والنضال ويفك الارتباط بالمنهج الذي بني على قاعدة مفاوضات اوسلو ونظيرتها الاسوأ خارطة الطريق هذا أولا. وثانيا فان فك الارتباط يستدعي الإعلان السياسي عن فشل المفاوضات وفق المشاريع التي تتيح لإسرائيل ان تكون طرفا مهيمنا ومتحكما في مسارها ونتائجها والمرجعية الأمريكية المساندة بالكامل للموقف الإسرائيلي. والإعلان عن ضرورة نقل ملف المفاوضات والقضية الفلسطينية الى الأمم المتحدة، ومطالبتها ومطالبة المجتمع الدولي بتحمل مسؤولياتها لالزام اسرائيل باحترام القانون الدولي، وتطبيق قرارات الشرعية الدولية وتوفير الحماية الدولية لشعبنا ومقومات ممارسته لحقه في تقرير مصيره وبناء دولته الوطنية الديمقراطية المستقلة بعاصمتها القدس وبسيادة غير منقوصة وتطبيق قرار الجمعية العامة ١٩٤ الذي ينص على حق شعبنا بالعودة الى قراه ومدنه التي شرد منها.

واخيرا إعلان تحلل السلطة من كافة التنازلات التي قدمتها في محطات التفاوض وبشكل خاص إلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني بمضمونه الذي يربط بين حقوقنا الوطنية المباشرة وحقوقنا التاريخية عبر الدعوة لبناء الدولة الفلسطينية الديمقراطية في عموم فلسطين.

هذه الخطوات العامة للبرنامج السياسي الاستراتيجي المطلوب والذي يرد على تحديات الوضع الراهن وغطرسة حكومة شارون العنصرية وسياسة التطويع الدولية او الترويض التي تمارسها أمريكا على السلطة الفلسطينية لدفعها الى تقديم تنازلات جوهرية تستجيب لثوابت البرنامج والرؤية الصهيونية في إنهاء الصراع العربي الفلسطيني الصهيوني في فلسطين وحول فلسطين.

❖ الحديث عن إجراء الإصلاحات الداخلية في السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير بدا يفقد معناه، من الذي افقد هذه الإصلاحات معناها؟

سعدات: لابد من الإشارة أولا ان الإصلاحات الداخلية المطلوب إجراءها في بنية السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير تهدف إلى تحويلهما الى مؤسسات ديمقراطية تدار بمنهج عمل ونظام المؤسسة وتمكنها من قيادة شعبنا في هذا المنعطف الذي يعيشه بكل تحدياته، هذه المطالب هي مشاريع نضالية قبل ان تكون مطالب استجداء. وتحتاج الى احداث توازنات في الوضع الفلسطيني يجبر قيادة السلطة والمنظمة الى الاستجابة إليها وادراجها في البرنامج الفلسطيني العام. فلم يطرح التاريخ ان طبقة او تحالف طبقات في سلطة محددة قد تنازلت عن امتيازاتها طوعا. فالنضال وتركيم الإنجازات هو الذي يجب ان يقود الى تحقيق بنود برنامج الإصلاح الوطني الديمقراطي المطلوب. وتحديد المسؤولية او القائها على السلطه وقيادة المنظمة يعكس تشخيصا غير مكتمل. فقوى المعارضة التي تعتبر هذه المطالب جزءا من برنامجها مطالبة بتفعيل نضالها الجماهيري الديمقراطي لتوفير إمكانيات ومناخات الضغط الضرورية لتحقيق هذه الأهداف.

❖ هل حل السلطة الفلسطينية يعني إعادة الاحتلال الإسرائيلي المباشر. هل تعتقدون بان هذا المطلب يخلص من أناس يائسين أم من أناس واقعيين يريدون تحقيق الحقوق والأهداف الوطنية عن طريق الكفاح المسلح الذي يرافقه النضال السياسي؟

سعدات: مع انني لا اعتبر السلطة هدفا بحد ذاتها او قدرا لشعبنا. وان اي تعارض بينها وبين برنامج النضال لتحقيق الأهداف الوطنية لشعبنا يدفعنا للانحياز الى جانب برنامج النضال. ومع انني ايضا كما اوضحت سابقا لا ارى بشعار حل السلطة ردا واقعيا على مشكلات الواقع او خشبة إنقاذ. مع كل ذلك لا ارى ان من رفع او طرح شعار حل السلطة يعكس نفسية يائسة او غير متماسكة. فقد طرح اجتهاده أيضا في إطار رؤية ومشروع كفاحي للشعب الفلسطيني، واذا كان تصعيد النضال ووضع السلطة في إطار مهماتها كجزء من أدوات هذا النضال سيدفع الاحتلال ربما الى ترسيخ أقدامه او حل السلطة، فاني أرى ان هذا تداعيا منطقيا يستجيب للبرنامج النضالي المطلوب ويعززه ولا يضعفه. فلتترك مهمة حل السلطة للاحتلال لا ان نبادر نحن الى طرحها.

❖ بعد مرور حوالي عشرة سنوات على دخول السلطة الفلسطينية الى فلسطين ومرور اكثر من ١١ عام على وقف الانتفاضة الاولى ١٩٨٧، ما هي العبر والدروس التي يجب ان يستخلصها القادة والفصائل الفلسطينية؟

سعدات: يمكن تسجيل العديد من الدروس والاستخلاصات من هذه الحقبة الغنية بالأحداث أهمها ان كافة الإنجازات التي حققها شعبنا جاءت من خلال النضال وعبر كفاحه الطويل وليس عبر طاولة المفاوضات، وبمتابعة مسيرة شعبنا في محطاته المتنوعة يمكن ملاحظة هذه المسألة. والثانية ان المنهج السياسي الرسمي الذي بنى منطقه على أساس تقديم التنازلات المجانية للوصول الى الاعتراف الأمريكي وطاولة المفاوضات تحت مسميات الاستحقاقات قد قادت شعبنا الى طريق مسدود بل وأسوأ من ذلك الى كارثة والى إضعاف نضاله ومضمون عدالة قضيتنا في كافة المنابر الدولية، والدرس الثالث وهو الأهم، ان كافة المحطات التي كان يتخللها مستوى معقول للوحدة الوطنية الداخلية الفلسطينية كانت زاخرة بالإنجازات والعكس ايضا صحيح، وهذا يجعل مهمة توحيد القوى الفلسطينية على اساس برنامج كفاحي وديمقراطي لبناء اوضاعنا وأدوات القيادة مهمة ملحة لا تقبل التأجيل.

واخيرا و هذا بشكل عام وفي ظروف نضالنا الوطني في المعادلات الدولية التي تحكمها فان قوة المنطق لا يمكن ان تكون بديلا لمنطق القوة، فقوة المنطق يمكن ان تعطينا استحسان العالم، لكنها لا ترد لنا ابسط جزء من حقوقنا، فقوة المنطق يجب ان تستكمل بمنطق القوة من خلال الكفاح ضد عدو استيطاني إجلائي عنصري.

❖ هل الإعلان عن قيام الدولة الفلسطينية في المرحلة الراهنة، هل هذا الإعلان يوقف الاستيطان وبناء جدار الفصل العنصري في ظل الصمت العربي أولا والصمت الدولي ثانيا؟

سعدات: كافة المشاريع السياسية النضالية ومن ضمنها الإعلان عن قيام الدولة الفلسطينية وبسط سيادتها، تشكل الإطار العام خاصة اذا امتلكت الوضوح واستجابت لحاجات تحديد الوسائل الصحيحة لتحقيق الأهداف الوطنية لدفع وحفز النضال والانتفاضة والمقاومة التي تعتبر ركائز وروافع أساسية لتحقيق الإنجازات وصولا الى تحقيق الأهداف الوطنية. فطرح المشاريع السياسية وحده لا يكفي اذا لم يتحول هذا المشروع الى عمل سياسي ونضال يومي تمارسه الجماهير الشعبية القادرة على فرض الحقائق لتحقيق هذا المشروع او ذاك.

❖ إسرائيل قادرة على منع قيام الدولة الفلسطينية من خلال بناء جدار الفصل العنصري، هل الفلسطينيون قادرون اليوم على نقل ملف القضية الفلسطينية الى الامم المتحدة؟

سعدات: ما يحدد طرح هذا الشعار السياسي او ذاك بما في ذلك نقل ملف القضية الفلسطينية الى الأمم المتحدة هو ما مدى استجابة هذا المشروع مع معطيات الواقع، ان تحويل هذا الشعار ونقله الى عالم الممكن او الواقع رهنا بالتوازنات او الموازين التي يعدلها النضال الجماهيري الشعبي لصالح مشروعه الكفاحي الوطني، وحسب تقديري واجتهادي فان المفاوضات وتطبيق قرارات الشرعية الدولية بفعل إخفاق كافة مشاريع التسوية السابقة ووصولها الى طريق مسدود فضلا عن المناخات الدولية لم يبق لها سوى باب واحد هو تحمل المجتمع الدولي والامم المتحدة لمسؤولياتها في إلزام إسرائيل بتطبيق هذه القرارات واحترام محددات القانون الدولي، والكف عن فرض نفسها كقوة فوق القانون الدولي، وهذا مشروع سياسي دبلوماسي صائب وتحقيقه يرتبط بقدرة شعبنا على أحداث الموازين القادرة على تحويله الى ممكن وواقع أولا على الصعيد الوطني في جبهة الصراع، ثم الإقليمي والعربي والدولي.

◆ أمام الواقع الفلسطيني الحالي ما هي المبادرة الفلسطينية المطلوبة لمواجهة إسرائيل سياسيا وعسكريا وإعلاميا؟

سعدات: المبادرة الوطنية او المشروع والبرنامج الوطني الفلسطيني يجب ان يستند الى منهج جديد ورؤية جديدة بديلة للمنهج السياسي القديم للسلطة والمنظمة ويرتكز على الانتفاضة والمقاومة كروافع لتحقيقه وليس على منطق الاستجداء وتقديم التنازلات المجانية التي باتت تكيف عناصر البرنامج الوطني عن طريق القضم المتدرج ليصبح ملامسا لمحددات إسرائيل وبرنامجها ورؤيتها في الحل الذي تريده لازمة الصراع التاريخية.

◆ تعدد الرؤى والاستراتيجيات الفلسطينية ومصادر القرار، لماذا المعارضة والسلطة غير قادرة على توحيدها ومن يقف خلف عدم التوحيد، وما هي مصالحهم في ظل عدوان إسرائيلي شامل طال الحجر والبشر والأرض؟

سعدات: يوجد في الواقع العديد من المعطيات والوقائع والقواسم المشتركة التي يمكن ان تجمع عليها كل من المعارضة والسلطة خاصة في الظرف الراهن الذي يشهد ارتفاع وتيرة الفطرسة الصهيونية والتحديات التي تفرضها على شعبنا وفشل مشروع خارطة الطريق الذي كان يهدد بأحداث انقسام عمودي في الصف الوطني الفصائلي والشعب الفلسطيني في حال تنفيذه وفق نصوصه التي ترتكز الى المضمون الأمني كأساس، ومن الطبيعي ان يكون لبعض الشرائح الطبقية المنتفعة في السلطة والمعادية أيضا لمنهج النضال والتصادم مع الاملاءات الأمريكية والصهيونية محاولات لمنع إنجاح الحوار الوطني الفلسطيني وتجميع القواسم والتوافق حول البرنامج الوطني والبرنامج التنظيمي للوحدة ولبناء المرجعية، لكن امتلاك المعارضة والتيار الوطني في السلطة الفلسطينية والدفع بالعلاقات نحو الوحدة لمواجهة البرنامج الصهيوني المتغطرس سيمكن من لجم وتهميش هذه الفئات مهما كانت مصادر القوة التي تستمدها من علاقاتها مع امريكا وإسرائيل.

إلى الرفاق في سجن أريحا

أبو علي خالد

١

رام الله بخير وعافية، و«المنارة» اشتاقت لكم وتسأل، تنتظر خطى أبي غسان كي يمر فوقها، خفيفا مثل فراشة بريه، لكي يلقي على الناس سلامه، ثم يوزع ملامحه على الناس في زحام «الحسبة»، يتوقف امام «فلافل عبدو»، لكي يعاون امرأة عجوز، يسلم على بائع الصحف أمام «مقهى العربي» يحدثه عن شقيق له في السجن.

«الحمد لله على سلامتك.. إذن، ولا تدري من قالها للآخر، الأول أم الثاني؟

٢

نابلس تقاوم هي الأخرى..

وتستعين بالله والفقراء، رغم جراحها وحصارها قالت: لا

رغم العسس والدجالين والكهنة تقول: لا، رغم منع التجول والجوع، لا

«هنا ولدنا وهنا نموت، لتسقط خارطة الطريق، وليسقط الطريق، قال المقاتل وانطلق مثل سهم.

وخرج ريحي حداد وهو يقبض على أخمصه الحديدي، لم يعد، حتى الآن لم يعد، لكن امرأة من جنين قالت: «رأيته يقاتل هناك، مع الشباب، وأشارت بيدها نحو الجدار الأخير.

٣

والناس هنا، تسب على قبيلة (جنيف) وتلعن حاشية السلطة، وخارطة الطريق، وتلعن الوزير الذي يكذب على الناس وعلى عرش أمريكا يشتمون، وعلى النفط العربي الذي يذبحهم ويخنقهم ويحاصرهم، وعلى الجدار الذي لا يفضي لشيء، الناس تلعن كل شيء، إلا الخبز والشهداء، لأنها تقاتل كل يوم من أجلهما ولا تتعب. يتذكرون كثيرا ناجي العلي - هذه الأيام للذكرى- ويذهبون إليه كلما لاح في أفق المخيم حنظلة.

٤

مر موكبكم يا رفاق فهزت أريحا نخلها، ولوحت في الفضاء سواعد متعبة ولحنا حزينا، مر موكبكم جليلا رغم (الرجاجيب) وأكلة لحوم البشر.

يجب أن نصدق أنكم أسرى!

أسرى بلا سبب!!

وهل نصدق شاشة التلفاز وهي تنقل موكب الوزيرة (رايس)، كانت تمر من أمام البرتقال والفلاحين بلا خجل ودونما أدنى شعور بالذنب.. نعم، أقول لكم:

يمكن جدا جدا أن تمر (كونداليزا رايس) وتشرب قهوة الصباح تحت نخلة عربية في أريحا، هناك من يحرسها ويحميها ويدعو لها بالصحة والعافية.

٥

مريم بخير، تماما مثل غزة. كانت بالأمس تقود مظاهرة شعبية ضد المرحلة، وهتفت لكم: «لكم نخل البلاد والزغاريد والرصاص،

نازيفاشية صهيونية في فلسطين

يستند المشروع الصهيوني لسلب فلسطين واستيطانها، إلى حجج متنوعة وغير معقولة، ونظريات مجنونة، زائفة وغادرة. إحدى هذه المختلقات الشيطانية تقول: شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب!

أي: أن المشروع الصهيوني في فلسطين، ينفي منذ البداية، نفس وجود الشعب الفلسطيني منذ الاف السنين، وبالتالي ينفي كافة الحقوق الملازمة لهذا الوجود مثل حقوقه في الحياة والأرض والأوكسجين.. الخ والمياه.

لذلك، لا زالت تحتل المياه أهمية وأولوية قصوى على جدول أعمال الحركة الصهيونية العالمية (ح.ص.ع)، المدبرة الذهنية والمادية لإقامة دولة إسرائيل الصهيونية، بصفتها كيان نازي صهيوني وعنصري معاصر، والذي لا زال بدوره، يحاول ابادة الشعب الفلسطيني إبادة مادية- وهو صاحب الأرض التاريخي والشرعي- من خلال استعمال مختلف أسلحة الإبادة الجماعية والإفراط فيها: مجازر، إرهاب عصابات وبلطجية ودولة، طرد إجباري (ترانسفير؟) ذخائر إشعاعية (يورانيوم منضب).. بالإضافة إلى امتلاكها، - على رؤوس الأشهاد- مئات الأسلحة النووية والتهديد باستخدامها ضد شعوب منطقة الشرق الأوسط، ومحاولة قتل شعب عن بكرة أبيه عطشا.

هافانا - نور الدين عواد

سلب المياه الفلسطينية واستعمالها كسلاح إبادة جماعية

موضوع المياه دائما كان موضوعا استراتيجيا بالنسبة لـ (ح.ص.ع) التي سعت دوما إلى السيطرة على كافة مصادر السائل الثمين في المنطقة.

وأفادت سلطة المياه الفلسطينية في رام الله أن سلطات الاحتلال تسيطر بالقوة العسكرية على ٨٨٪ من مصادر المياه الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، مع كل ما يترتب على ذلك من مأساة ومعاناة احتضارية يومية ومتعددة الوجوه على عموم الشعب الفلسطيني لا سيما في غزة.

وكنا - نحن الفلسطينيين- ولا زلنا أول ضحية للسياسة المائية الإسرائيلية، فقد نضبت المياه الجوفية الفلسطينية، وتغيرت جودة المياه التي تلوثت بالأملاح والنترات والكلوريدات وحتى ببعض المعادن الثقيلة مثل النحاس والرصاص والسيانيد والزئبق، مما جعلها غير صالحة للاستهلاك البشري والزراعي متسببة في كثير من المشاكل الصحية والاقتصادية.

تملح المياه نتيجة للصرف الزائد للمستوطنات الصهيونية:

أفضى استنزاف الأبار الفلسطينية إلى تسرب مياه جوفية شديدة الملوحة نحو المياه الجوفية العذبة في الضفة الغربية، من خلال التصدعات والشقوق الكبيرة كي تسد الفراغ الناجم عن الضخ في الأحواض المائية. في قطاع غزة تتسرب مياه البحر المتوسط لتملأ الفراغ الحاصل في حوض المياه الجوفية: ملوحة مياه نهر الأردن - المصدر الرئيسي المغذي للضفة الغربية وأبارها الجوفية تصل إلى ٥٠٠ ملغم/ ليتر، أي ضعف النسبة المئوية الموصى بها دوليا. ٢٧٪ من مياه الضفة تزيد فيها نسبة الملوحة عن الموصى بها دوليا (٢٥٠ملغم/ ليتر)، في قطاع غزة ٨٥٪ من مياه الأبار غير صالحة للشرب إذ تصل ملوحتها إلى ١٠٠٠ ملغم بالليتر، ٥٠٪ من أبار الضفة الغربية ملوثة بالغائطات القولونية، فقط ٢٧٪ منها ليست ملوثة وتقع في منطقة طولكرم وقلقيلية (وهذا يفسر جزئيا سلب الجزء الأكبر من أراضيهما من خلال جدار الفصل العنصري «الابارتهايد»). ١٤٪ من أبار الضفة الغربية تحتوي على أكثر من ٥٠٪ ملغم/ليتر من النترات (الحد الأقصى الذي توصي به منظمة الصحة العالمية)، في غزة يصل إلى عشرات أضعاف هذه النسبة ويزداد في المناطق المكتظة بالسكان وفي المناطق الزراعية بسبب تسرب مياه الصرف الصحي والحفر الامتصاصية والإفراط في استعمال مبيدات الأفات الزراعية والمخصبات الزراعية.

اختلاط المياه العادمة بمياه الشرب:

تعد المياه العادمة والأسمدة الزراعية ومبيدات الأفات والمخلفات الصلبة المتراكمة والملوثات الصناعية من أهم أسباب تلوث المياه في الضفة الغربية والقطاع وتنبثق خطورة هذه المصادر الملوثة من تسربها إلى الخزان الجوفي. ويصبح الوضع الصحي أكثر تأزما إذا ما علمنا أن: ٩٠٪ من المياه العادمة لا تتلقى أية معالجة في الضفة الغربية. شبكات الصرف الصحي تخدم فقط ٣٠٪ من السكان، في حين يستخدم الـ٧٠٪ الباقون حفر امتصاصية! حجم هذه المياه بلغ عام ١٩٩٤ في الضفة الغربية ٥، ٨ مليون م٣ وفي عام ٢٠١٠ سيصل إلى ٩٢ مليون م٣. وفي قطاع غزة تغطي شبكات الصرف الصحي ٦٠٪ من السكان في حين يستخدم الـ٤٠٪ الباقون حفرا امتصاصية. ٢٠٪ من المياه العادمة التي تعادل ٣٠ مليون م٣، ترشح إلى المياه الجوفية في حين تنتهي الـ٨٠٪ المتبقية في البحر المتوسط. وتكمن خطورة هذا الأمر في أن المياه العادمة غير المعالجة تستخدم في الري في بعض مناطق الضفة الغربية وغزة، نظرا لقلة المياه الصالحة، وأسعارها الباهظة مما أدى حتما إلى انتشار الأمراض الطفيلية المعوية مثل (الجيارديا والإسكارس).

المرض والاحتلال... دائرة مغلقة:

حذرت الجمعية الفلسطينية لحماية المستهلك من المخاطر التي تضر بكمية ونوعية المياه التي يستهلكها المواطن الفلسطيني مثل:

- الزيادة المضطردة في نسبة الملوثات وخاصة: النترات والكلوريدات والتي تتسبب في أمراض عديدة منها: الفشل الكلوي والسرطان ونقص النمو عند الأطفال والتشوهات الخلقية عند الأجنة وهشاشة العظام... الخ.
- ردم ودفن المخلفات الصناعية الخطيرة والمواد الكيماوية السامة الإسرائيلية وضخ المياه العادمة القادمة من المستوطنات

والتجمعات الإسرائيلية.

♦ حفر الآبار الاصطيادية العميقة من أجل اصطياد مياه آبار الفلسطينيين مما يتسبب في عجز مائي وزيادة في الملوحة.

♦ رشح برك مياه الصرف الصحي.

♦ عدم فاعلية شبكات توزيع المياه.

♦ التأثير السلبي للمياه غير الصالحة على الزراعة وجودة الأتربة.

♦ المستعمرات الصناعية تلقي أكثر من ٥٠ مليون م٣ من المياه العادمة في نهر الأردن الذي أصبح ملوثا بكامله.

حرب المياه القادمة:

منذ عام ١٩٦٧ تقوم إسرائيل بسرقة ونهب المياه الفلسطينية والعربية دون توقف. وقد سميت حرب عام ١٩٦٧ بين إسرائيل والعرب «حرب المياه». قبل الحرب، وقع نزاع كبير بين البلدان العربية وإسرائيل على حوض نهر الأردن وعقدت أول قمة عربية «قمة نهر الأردن» من أجل معالجة قضية المياه لكن للأسف، شنت إسرائيل حربا خاطفة في يونيو ١٩٦٧ واحتلت الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء المصرية ومرتفعات الجولان السورية واستولت بذلك على كافة مصادر المياه الفلسطينية وهي للعلم: الحوض/الغربي والشرقي والشمالي الشرقي وتسيطر دون منازع على ٨٨٪ من مياهنا المتجددة التي تنشئ داخل حدودنا ٨٠٠ مليون م٣، بالإضافة إلى حصتنا في مياه نهر الأردن (٢٥٠ مليون م٣).

ويرى مسؤولون فلسطينيون أننا على أعتاب أزمة مائية خانقة. إذ أننا ومنذ أمد طويل نعاني من ندرة المياه في الضفة الغربية وقطاع غزة. فحصة الفرد في كلتا المنطقتين لا تتجاوز ٤٠ لترا/يوميا علما بأن المعيار العالمي يصل إلى ١٥٠ لترا/للفرد يوميا. مع ذلك يستهلك المستوطنون الصهاينة في المستوطنات المنتشرة على الجغرافية الفلسطينية في الضفة والقطاع، ٥٥ مليون م٣ أي ما يعادل ٤٥٠- ٥٠٠ لترا/للفرد يوميا وهي نسبة أعلى بكثير من الحصة المفرطة للمستهلكين الإسرائيليين وهي ٣٥٠ لترا/للفرد يوميا.

يوجد ٢٥٠ تجمعا فلسطينيا من أصل ٦٥٠ تجمعا (مدن قرى ومخيمات) في الضفة الغربية، لا تتوفر فيها شبكات مياه وهذه هي حالة بلدة (طمون) التي تضم عشرة آلاف مواطن يعتمدون حاليا على آبار تجميع مياه المطر والينابيع الآخذة في الجفاف والاستنفاذ بسبب سرقة إسرائيل لمياهنا. هنالك مدن كثيرة محرومة من المياه، مثل جنين، بسبب ممارسات الاحتلال الصهيوني التي تحرم المواطنين الفلسطينيين من الحصول على الماء.

وكالمعتاد فان إسرائيل لا تلتزم أبدا بالاتفاقيات والمعاهدات الدولية واقل من ذلك بكثير بالاتفاقات المبرمة مع السلطة الفلسطينية. تشير الفقرة ٤٠ من اتفاقية «السلام» بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية إلى وجود تفاهم واعتراف إسرائيلي باحتياجات عاجلة جدا إلى ٨٠ مليون م٣ من المياه للفلسطينيين، وهذا ما تتجاهله القوة المحتلة إذ أننا حصلنا حتى هذه اللحظة فقط على ٢٠ مليون م٣. إن تعاقب حزبي الحكم في إسرائيل: الليكود والعمل وتغيير سياساتهما وهما في السلطة لا زال يعرقل ويحبط مساعي اللجنة المعنية بالأمر، في حل تلك المعضلة.

لقد بنيت القرى الفلسطينية على ينابيع مياه كانت تمدها بـ٦٥ مليون م٣، لكنها تتلقى حاليا ١٥ مليون م٣ والسبب بسيط جدا: سلب إسرائيل للمياه الفلسطينية، بالإضافة إلى الازدياد الموضوعي في الاحتياجات الفلسطينية.

إن الكيان الصهيوني الإسرائيلس يسعى إلى السيطرة على المياه لسببين: السيطرة على المياه الفلسطينية وسرقتها ونقلها إلى داخل ما يسمى بالخط الأخضر (ما كانت عليه إسرائيل لغاية عام ١٩٦٧) لري السهل الساحلي؛ واستعمال المياه كسلاح سياسي يجبر الفلسطينيين على استجداء (شحدة) مياههم، وبذلك تمرير أوراق تفاوضية أخرى.

في قطاع غزة الوضع أكثر تأزما. تبلغ مساحته الأرضية ٣٦٥ كم٢ مكتظة بالسكان: مصادر المياه محدودة جدا: يتم تجميع فقط ٤٥ مليون م٣ من مياه الأمطار، أي أكثر بقليل من ثلث المياه التي تستهلكها غزة حاليا (٢٠ مليون م٣)؛ توجد مشكلة مياه كما ونوعا، وقد تتحول إلى قنبلة إيكولوجية (بيئية): غزة أصبحت ضحية للعطش والتلوث.

في المفاوضات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية لم تتم بعد، مناقشة ملف المياه الذي ستتم معالجته في المرحلة النهائية من خطة خريطة الطريق. وقد وصل الأمر بالإسرائيليين أن طرحوا على محادثيهم من الفلسطينيين، أنهم يضمنون لهم الأموال من الولايات المتحدة الأمريكية من أجل بناء محطات تحلية لمياه البحر! من أجل تزويد الضفة الغربية بالمياه من مدينة الخضيرة «الإسرائيلية»! يا له من استخفاف قذر! أليس كذلك؟

بينما تحرم القوة الصهيونية المحتلة الفلسطينيين من مواردهم المائية، وفي انتهاك سافر للمعاهدات الدولية، أحضرت في العقد الأخير أكثر من مليون مستوطن جديد. ويخطط شارون لإحضار نصف مليون مستوطن آخرين مما سيفاقم، لا محالة، الوضع المائي المتأزم في فلسطين.

خلاصة:

١- الجوهر النازيفاشي للكيان الصهيوني يتجلى بوضوح كامل في مجال المياه، التي تشكل حقا طبيعيا وانسانيا لكل الكائنات الحية.

٢- طابع إسرائيل العنصري الإجرامي العميق أصبح عاريا أمام الملأ، لدى تخطيطه وتطبيقه ومواصلته لسياسة سرقة ونهب المياه الفلسطينية، من أجل وضعها تحت تصرف المستوطنين «اليهود» القادمين من أكثر من ١٢٠ بلد وينتمون إلى قوميات وعروق عديدة.

٣- مشروع «إسرائيل الكبرى» الصهيوني ومشروع «الوطن القومي لليهود» سيؤديان حتما إلى عاقبتين خطيرتين، بالإضافة إلى الأضرار البيئية: كارثة إنسانية محتملة تمس الشعب الفلسطيني مباشرة؛ وحرب إقليمية محتملة لا يمكن التنبؤ بنتائجها، بسبب أهم سائل في كوكب الأرض الماء.

فبمجرد أن أعلن لبنان عن حقه السيادي في السيطرة داخل حدوده، على مياه نهر وطني، أقامت إسرائيل الدنيا ولم تقعدها وشرعت بتهديداتها الحربية ضد بيروت.

هذا هو رأس جبل الجليد فقط.

يجب أن تقرع أجراس الخطر قبل أن يفوت الأوان!!

ان اسرائيل لا تلتزم أبدا بالاتفاقيات والمعاهدات الدولية واقل من ذلك بكثير بالاتفاقات المبرمة مع السلطة الفلسطينية

يجب أن تقرع أجراس الخطر قبل أن يفوت الأوان!!

سياسة الإبعاد الإسرائيلية

ومخالفتها للقوانين

والأعراف الدولية

عصام سلامة

عاد الكيان الصهيوني في الآونة الأخيرة لاتباع سياسة الإبعاد القسري بحق المواطنين الفلسطينيين. وهي في الحقيقة ليست سياسة جديدة بحد ذاتها بل قديمة جديدة، وجزء لا يتجزأ من سياسة إسرائيل في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة منذ أن احتلتهما في العام ١٩٦٧. فمنذ ذلك التاريخ قامت «إسرائيل» بإبعاد العديد من رؤساء البلديات والنقابيين، وزعماء الحركات الطلابية، والأكاديميين، والمهنيين، والصحافيين، ورجال الدين... إلى خارج البلاد. وكان الهدف من كل ذلك: اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه ووطنه وإقصاء القيادات السياسية المحلية، واستمرار السيطرة على السكان.

شملت عمليات الإبعاد الفردي الكثير من الشخصيات المهنية النقابية والاجتماعية والسياسية والتعليمية والدينية

وكما هو معروف للجميع.. فإن أساس وجوهر القضية الفلسطينية هو موضوع عودة اللاجئين الفلسطينيين الذين طردوا من ديارهم منذ النكبة الفلسطينية في العام ١٩٤٨، وقيام دولة «إسرائيل» على أنقاض ما يقارب المليون لاجئ فلسطيني الذين تشتتوا في الدول العربية المجاورة وفي جميع أصقاع العالم، بغير حق.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن، صدر عن مجلس الأمن الدولي والجمعية العامة للأمم المتحدة ما يناهز المائة قرار، جميعها تؤكد على حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم التي شردوا منها، بما في ذلك قضية المبعدين الفلسطينيين، التي تدخل ضمن هذا السياق، ويأتي في طليعة هذه القرارات (على سبيل المثال لا الحصر) القرار الشهير رقم /١٩٤/ الذي صدر عن الأمم المتحدة بتاريخ ١١/كانون الأول/١٩٤٨، والذي ينص صراحة على عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم الذين شردوا منها، وكذلك في القرار رقم /٢٧٢/ الذي صدر بتاريخ ٢١/أيار/١٩٤٩، والذي بمقتضاه قبلت «إسرائيل» عضوا في الأمم المتحدة. فقد اشترط هذا القرار قبول «إسرائيل» لكافة القرارات الدولية التي صدرت عن الجمعية العامة، وجاء في سياق القرار: (تلاحظ أيضا تصريح «دولة إسرائيل» بأنها تقبل دون تحفظ الالتزامات الواردة في ميثاق الأمم المتحدة، وتتعهد أن تحترمها منذ اليوم الذي تصبح فيه عضوا في الأمم المتحدة)، لكن إسرائيل لا زالت تمتنع عن تنفيذ هذه القرارات، لاعتمادها الرئيسي على الولايات المتحدة الأمريكية، التي ما فتئت تستخدم حق النقض «الفيتو» في مجلس الأمن، لتعطيل الكثير من القرارات الدولية ذات الصلة بإسرائيل. ومما زاد من تعنت إسرائيل أيضا.. أن الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن لم تستخدم أي ضغوط سياسية، أو اقتصادية تذكر، لإجبار إسرائيل على الرضوخ لقرارات الأمم المتحدة.

مراحل الإبعاد الإسرائيلية:

قامت إسرائيل وعلى مدار الـ (٣٦) عاما الماضية، أي منذ احتلالها للضفة الغربية وقطاع غزة وحتى الآن، باتباعه سياسة الإبعاد القسري للمواطنين الفلسطينيين، وذلك كنهج ثابت في السياسة الإسرائيلية الإجرامية، فقد أبعدت «إسرائيل» حتى الآن ما يزيد عن عشرة آلاف مواطنا فلسطينيا، موزعين على خمس مراحل (حسب المصادر الفلسطينية) يمكن اختصارها إلى ثلاث مراحل رئيسية هي:

١- المرحلة الأولى (١٩٦٧ - ١٩٧٢م): لقد قامت إسرائيل خلال هذه المرحلة بإبعاد ما يزيد عن (٧٠٠) مواطنا فلسطينيا معظمهم شخصيات اجتماعية وحزبية وثقافية ودينية، من بينهم الشيخ/عبد الحميد السائح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني سابقا.

٢- المرحلة الثانية (١٩٧٣ - ١٩٨٧م): قامت إسرائيل خلال هذه الفترة بإبعاد /١٤٧/ شخصا، من بينهم بعض رؤساء البلديات والصحفيين الفلسطينيين، منهم/عبد الجواد صالح ورئيس بلديتي حلحول والخليل ملحم القواسمي وسليمان النجاب، وبعض الأسرى والمحررين والنقابيين من أبرزهم: أكرم هنية، ومحمود دنون، وأبو علي شاهين، وجلال حافظ، وعلي أبو هلال (يجدر الإشارة إلى أنه تم دمج المرحلتين الثانية والثالثة في مرحلة واحدة للتشابه الكبير بينهما).

٣- المرحلة الثالثة (مرحلتي الانتفاضة الأولى والثانية): لقد تزايدت عمليات الإبعاد التي قامت بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي وخاصة خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى، فقامت بإبعاد (١١٦) مواطنا فلسطينيا من عام (١٩٦٨-١٩٩٢)، وفي ١٧ كانون الأول من العام ١٩٩٢م، سجلت حكومة رابين رقما جديدا لعدد الفلسطينيين الذين طردوا من وطنهم في يوم واحد، حيث قامت بطرد (٤١٣) شخصا، زعمت أنهم من ناشطي الانتفاضة، ومعظم هؤلاء المبعدون كانوا يشكلون جزءا هاما من النخبة المثقفة، فكانوا من أساتذة الجامعات والأطباء والمهندسين وطلبة الجامعات، منهم (٢٥٠) من الضفة الغربية والباقون من قطاع غزة. أما في فترة الانتفاضة الثانية (انتفاضة الحرية والاستقلال)، فقد استمرت سلطات الاحتلال الصهيوني في انتهاج سياسة الإبعاد من جديد، حيث قامت في أيار ٢٠٠٢م بإبعاد (٣٩) فلسطينيا من سكان مدينة بيت لحم (والذين كانوا محاصرين في كنيسة المهد إثر الاجتياح الإسرائيلي لمناطق الضفة في عملية ما يسمى بالسور الواقي)، وذلك من خلال اتفاق مع السلطة الفلسطينية يقضي بإبعاد (١٣) منهم خارج الأراضي الفلسطينية إلى الدول الأوروبية، والباقون إلى قطاع غزة. وكذلك أبعدت سلطات الاحتلال خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول ٢٠٠٣م (١٨) فلسطينيا آخرين إلى قطاع غزة، في إصرار واضح منها على انتهاج سياسة الإبعاد التي تخالف كل المواثيق والأعراف الدولية.

وبنظرة سريعة على مراحل الإبعاد الإسرائيلية، نجد

أن المرحلة الأولى تميزت بكثافة الإبعاد، خاصة أنها جاءت بعد حرب ١٩٦٧ (هذا وإضافة إلى أن إسرائيل، قامت بإبعاد آلاف المواطنين الفلسطينيين في الأيام الأولى للحرب وبالجملة حسب بعض المصادر الفلسطينية).

بينما نجد أن المرحلة الثانية شهدت بعض الهدوء النسبي في عملية الإبعاد، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى الظروف السياسية والإقليمية والدولية الضاغطة على إسرائيل والتي حالت دون المزيد من عمليات الإبعاد، أما المرحلة الثالثة فقد تميزت في السنوات الأولى منها بالشدة والكثافة وخاصة في فترة الانتفاضة الأولى (مع استثناء وحيد ويتيم في عمليات الإبعاد والذي تمثل في تمكن مبعدو «مرج الزهور» والذين كانوا على الحدود اللبنانية الفلسطينية من العودة الى وطنهم في العام ١٩٩٣م، نتيجة رفض لبنان لاستقبالهم وكذلك للضغوط المحلية والدولية آنذاك).

وأما عمليات الإبعاد في فترة الانتفاضة الثانية، فقد تميزت باتباع إسرائيل لأسلوب جديد مختلف نسبيا عن العمليات السابقة، حيث قامت بعمليات الإبعاد من الضفة إلى القطاع (أي إلى داخل الأراضي الفلسطينية) بصورة عامة، وذلك كإجراء عقابي، على اعتبار أن قطاع غزة من وجهة النظر الإسرائيلية يشكل منفى وسجن كبير!!

وجدير بالذكر أن هذه الأيام الواردة أعلاه ليست حصيلة نهائية، بل أن هناك أعدادا كبيرة من الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع ممن فقدوا حقهم في العودة إلى وطنهم فلسطين، وذلك نتيجة للقيود التي تضعها إسرائيل في عمليات الدخول والخروج من وإلى فلسطين من خلال التذرع بانتهاء صلاحية التصاريح وخاصة فيما يتعلق بالمواطنين الفلسطينيين من سكان مدينة القدس بهدف تهويدها، ويقدر عدد هؤلاء الأشخاص بالمئات (ولا توجد إحصاءات دقيقة حول هذه الحالات كونها حالات فردية).

حيثيات الإبعاد الإسرائيلية:

تستند عمليات الإبعاد الإسرائيلية بحق المواطنين الفلسطينيين من خلال فرض عقوبة الإبعاد السياسي بأساليب وحشية لا إنسانية إلى مضمون المادة /١١٢/ من قوانين تعرف بأنظمة الطوارئ لعام ١٩٤٥م، والتي تنص على أن: «لوزير الدفاع والحاكم العسكري حق طرد أي شخص من البلاد، أو منعه من الدخول إليها، إن وجد خارجها»[i]، وقد مارس الكيان الصهيوني سياسة الإبعاد الإجرامية بطريقتين هما: الإبعاد الفردي والإبعاد الجماعي.

وقد شملت عمليات الإبعاد الفردي الكثير من الشخصيات المهنية النقابية والاجتماعية والسياسية والتعليمية والدينية، فمنهم من يقدم إلى محاكمة صورية أو يسمح له بالاستئناف أمام المحكمة العليا، حيث تقوم هذه المحكمة غالبا بالمصادقة على قرار الإبعاد، أو يتم إبعاده دون التقديم للمحاكمة إلى نقطة الحدود مع الأردن أو مصر أول لبنان أو سورية[ii].

أما عمليات الإبعاد الجماعي: فقد مارستها سلطات الاحتلال الإسرائيلية منذ الأيام الأولى لاحتلالها الضفة والقطاع، وقد رحلت بهذه الطريقة عن قطاع غزة وحده أكثر من (٨٠٠٠) آلاف مواطنا فلسطينيا في عملية واحدة[iii].

ورغم أن مدد الإبعاد متفاوتة زمنيا حسب قرارات ما يسمى بمحكمة العدل العليا الإسرائيلية، والتي تتراوح أحيانا من عام إلى عشرة أعوام.. الخ، ومنها بالطبع الإبعاد النهائي، ومع ذلك.. فإن إسرائيل في غالب الأحيان لا تلتزم بهذه القرارات، ولا تعيد أحدا من المبعدين الفلسطينيين، حتى لو انتهت مدة الإبعاد، وتتذرع دائما بالحجج الأمنية!!

إن قضية المبعدين «هي قضية حقوقية وإنسانية وسياسية عادلة مثلها مثل باقي القضايا الأخرى كمعركة جدار الفصل العنصري والاستيطان والقدس وحق العودة وتقرير المصير».

الإبعاد ومخالفته للقوانين الدولية:

إن سياسة الإبعاد الإسرائيلية بحق المواطنين الفلسطينيين من الناحية القانونية تعتبر سياسة غير شرعية وغير إنسانية وخرقا واضحا للقوانين والأعراف الدولية.

ومن المعروف.. أن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لم تكترث إطلاقا باتفاقيات جنيف ومبادئها، ورغم أن إسرائيل هي إحدى الدول الموقعة على هذه الاتفاقيات، وقيام إسرائيل بإبعاد الفلسطينيين عن أراضيهم، يعد انتهاكا فاضحا لهذه الاتفاقيات، لا سيما المادة (٤٩) من اتفاقية جنيف الرابعة الموقعة عام ١٩٤٩م، والتي تنص صراحة على: «أنه لا يجوز لسلطة الاحتلال ممارسة الإبعاد الجماعي أو الفردي أو الترحيل القسري إلى أراضي دولة أخرى مهما كانت الأسباب والظروف».

كذلك فإن الفقرة (ب) من المادة /٥/ من ميثاق المحكمة العسكرية الدولية «اتورمبرغ»، التي انشئت من قبل الحلفاء لمحاكمة القيادة النازية، نصت صراحة: «على أن الإبعاد لأي سبب كان يعتبر جريمة حرب، كما اعتبرت الفقرة /٢/ من نفس المادة أن الإبعاد هو جريمة ضد الإنسانية». كما أن الإبعاد يعتبر جريمة حرب وفقا للمادة /٨٥/ من البروتوكول الإضافي الأول الملحق بالاتفاقية، كذلك فإن عمليات الإبعاد تعتبر خرقا واضحا لبنود ميثاق محكمة الجزاء الدولية.

إن استمرار سلطات الاحتلال الإسرائيلي بانتهاجها لسياسة الإبعاد من جديد ضد المواطنين الفلسطينيين وطردهم في الآونة الأخيرة من الضفة إلى غزة يعتبر بكل المقاييس عملا إجراميا وغير إنساني وغير أخلاقي، وله انعكاسات سلبية كبيرة على الصعيد الاجتماعي والمعيشي والمعنوي للمبعدين الفلسطينيين، الأمر الذي يتطلب من كافة الجهات المعنية ومنظمات حقوق الإنسان المحلية والدولية الإطلاع بمسؤولياتها إزاء هذه الجرائم التي ترتكبها سلطات الاحتلال الإسرائيلي بحق الشعب الفلسطيني، من أجل اتخاذ إجراءات عملية للضغط على إسرائيل وإجبارها على الانصياع للمواثيق الدولية، وتطبيق العقوبات المذكورة والمنصوص عليها باتفاقية جنيف وملحقاتها.

إن قضية المبعدين «هي قضية حقوقية وإنسانية وسياسية عادلة مثلها مثل باقي القضايا الأخرى كمعركة جدار الفصل العنصري والاستيطان والقدس وحق العودة وتقرير المصير».

لهذا كله.. فإنه يقع على عاتق كافة القوى المحبة للسلام والعدل في العالم، والمؤسسات الوطنية ومنظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان أن تتصدى لهذه السياسة العنصرية وتدافع عن هذه القضية العادلة في كافة المنابر المحلية والدولية، باعتبارها قضية مصيرية حتى يتمكن المبعدون الفلسطينيون من العودة إلى ديارهم ووطنهم.

---

i) الموسوعة الفلسطينية، جزء٤، ص ٤٨٨.

ii) لبيب عبد السلام قدسية: إبعاد الفلسطينيين عن وطنهم ١٩٦٧-١٩٩٣م، عمان، ١٩٩٣م، ص١٢ - ١٣.

iii) الموسوعة الفلسطينية، جزء٤، مرجع سابق، ص ٤٨٩.

حوارات القاهرة
بين متاهات الافتراق والاتفاق

جواد عقل

فتحت الدعوة المصرية للحوار - مهما كانت نواياها - الفرصة أمام الفصائل الفلسطينية لتدارس سبل ترتيب البيت الفلسطيني، وتمكينه من تحقيق إنجازات وطنية قادرة على فهم واستيعاب حجم الدمار، والخسائر الكبيرة، التي لا يمكن التقليل من نتائجها، بالاستناد إلى الصمود الأسطوري، والاستبسال الحديدي في مواجهة التتار الجدد، الذين يقومون بممارسة شتى الانتهاكات، بدم بارد، أمام ومرأى ومسمع البشرية جمعاء، وهم بمنأى عن أية ضغوط أو مواقف على المستوى الإقليمي والدولي، قادرة على وضع حد، أو التخفيف من سياسة الاستهتار والعنجهية الإسرائيلية بكل القيم والمبادئ الإنسانية.

محادثات القاهرة سجلت الصورة السلبية التي تتسم بها العلاقات الداخلية الفلسطينية منذ اتفاق أوسلو المشؤوم حتى الآن

ولم يعد يخفى على أحد أن الحكومة المصرية، استندت في دعوتها للفصائل إلى أهمية أن تلعب مصر دورا محوريا، بخصوص القضية الفلسطينية، انطلاقا من قراءة وتقدير لأهمية مكانتها العربية، بعد التطورات والأحداث الدراماتيكية، التي جعلت من أفكار ومبادئ (المسيحية الصهيونية الأمريكية) أهم مرتكزات السياسة الأمريكية في منطقتنا والعالم. فجرى غزو العراق، وممارسة ضغوط استثنائية على مصر والسعودية والنظام الرسمي العربي، والتماهي مع السياسات والممارسات الإرهابية الإسرائيلية، التي تناغمت مع مبادئ السياسة الأمريكية الجديدة الأحادية، والمناوئة لكل ما هو عربي وإسلامي في الإدارة الأمريكية. لأنها تستجيب وتشجع وترعى المطامع والمخططات (الإسرائيلية - الصهيونية) الفاشية في فلسطين والمنطقة بكاملها.

ولذلك تحاول الحكومة المصرية، من موقع وقراءة أبعاد التطورات على المنطقة، والساحة الفلسطينية، أن تقوم بدور سياسي يخدم سعي الإدارة الأمريكية، لتحقيق إنجاز سياسي في عام (الانتخابات)، في ظل الظروف الراهنة، المتمثلة بحقيقة مأزق الاحتلال في العراق، وأثره على قدرة إدارة بوش في تنفيذ استراتيجيتها السياسية والأمنية والعسكرية في المنطقة.

وقد أكدت مصر على لسان/عمر سليمان/في محادثات القاهرة أمام الوفود الفلسطينية على: خطورة غياب عربي ودولي عن القضية الفلسطينية، وتخلي الإدارة الأمريكية الراهنة عن عملية السلام، التي نادت بها من خلال ما اصطلح على تسميته (خارطة الطريق)، ونجاح شارون، وحكومته، في القيام بسلسلة لا تتوقف من الممارسات الوحشية والدموية ضد الشعب الفلسطيني، وسط رعاية أمريكية وعجز دولي وعربي، وتحويل حياة الشعب الفلسطيني - من خلال: الحصار، الاجتياح، الاغتيالات، الاعتقال، هدم المنازل، تخريب المزروعات، إقامة جدار الفصل العنصري، وسياسة الاستيطان، إلى حياة صعبة، بتطبيق سياسة العقوبات الجماعية والفردية، وارتكاب المجازر، والنجاح النسبي لإسرائيل بفعل المساندة الأمريكية لاتهام النضال الفلسطيني وإلصاق تهمة الإرهاب به.

ولذا فإن الدعوة جاءت لمحاولة إعطاء زخم جديد لما اصطلح على تسميته (عملية السلام) من خلال القدرة على تبني الفلسطينيين لاستراتيجية وطنية، للتحرك السياسي انطلاقا واستنادا إلى برنامج سياسي وطني يؤكد على الثوابت والمسلمات الفلسطينية: والمتمثلة في إقامة دولة فلسطينية على الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، وقيادة موحدة فلسطينية ترسخ العلاقات الداخلية الفلسطينية، وتعمل على إنجاز وقف متبادل لإطلاق النار وإدارة معركة ناجحة لوقف العمل بجدار (الفصل العنصري) واستمرار الحوار بشكل دوري بين الفصائل، وإعطاء فرصة للقيادة - لفترة محدودة - للتحرك السياسي!

ولعل رغبة مصر في عدم استثنائها في المرحلة القادمة من أي دور على المستوى الإقليمي، يفسر محاولاتها المتكررة للتحرك على الصعيد الفلسطيني، لتحقيق عبور على هذه الجبهة يساهم في زيادة اعتماد الإدارة على مصر، وموقعها ومكانتها في حل أزمة الشرق الأوسط. وبالتوازي مع هذا التحرك تتحرك الدبلوماسية المصرية على مستويين لتحقيق هذا الغرض: على المستوى الأمريكي، ويمكن استشفاف رغبة الإدارة الأمريكية في إعطاء مصر دورا على هذا الصعيد من خلال نصائح يقدمها أركان الإدارة، لمبعوث مصر. ليقوم بنقلها إلى الطرف الفلسطيني، أي أن هذا الدور في جوهره مساند ومساعد للإدارة الأمريكية في مساعيها لترويض الطرف الفلسطيني.

وكذلك ممارسة أمريكا ضغوطا على مصر، لتطوير علاقاتها مع إسرائيل كمبرر لإعطائها دورا بعد أن أستثنيت وبشكل متعمد من المشاركة في إيجاد حلول لأزمة الشرق الأوسط، بناء على رغبة إسرائيل وقيادتها اليمينية. وقد جاءت زيارة/عمر سليمان، وأحمد ماهر - لإسرائيل في إطار الرغبة المصرية لتخفيف الضغوط الأمريكية عليها، وفي إطار محاولات جس نبض الشارع المصري والعربي، حول إعادة العلاقات الدبلوماسية مع حكومة شارون، والقنوات الدبلوماسية تحت غطاء المساعدة في البحث عن مخارج سياسية لانسداد آفاق عملية ما يسمى بـ (السلام) بين الفلسطينيين والإسرائيليين. مما يبرز لاحقا استمرار محاولات مصر لإقناع الأطراف الفلسطينية المختلفة، بضرورة تبني سياسة فلسطينية قادرة على الاستجابة لاستحقاقات الضغوط (الأمريكية - الإسرائيلية) واستعداداتها للاستفادة القصوى من تطورات الأوضاع في المنطقة، وترتيب معركة بوش القادمة، وحرصه على تحقيق إنجازات على الأرض، واستغلال شارون لإنشغال الإدارة بمعاركها الداخلية لتنفيذ سياساته الإقصائية الأحادية، والتي تجعل من المتعذر تطبيق - حتى - خارطة الطريق بكل مثالبها وسلبياتها!

طبيعة الحضور الفلسطيني ودلالاته والمرتكزات النظرية للمتحاورين:

استند الحضور الفلسطيني إلى ثقل حركة فتح وتحالفاتها من جهة، بحيث شاركت قوى وفصائل من الداخل لفتح من خلال حضور ممثليها وخروج وفودهم من الداخل دون اعتراض من السلطات الإسرائيلية! والملفت في هذا الخصوص تواجد (الأمناء العامين) لبعض هذه الفصائل. ومما لا شك فيه أن هذا الحضور كان داعما لوفد حركة فتح. والتي تمثل عمليا السلطة وتلاوينها المختلفة، والتي لا تخرج في جوهرها حتى الآن عن حقيقة استمرار سيطرة وقبضة الرئيس عرفات على مقاليد السلطة ومفاتيحها.

ولكن الملفت بهذا الموضوع أن طبيعة (وفد فتح) أكد منذ الوهلة الأولى عدم جدية حركة فتح وقيادتها السياسية في وضع كل ثقلها السياسي لإنجاح هذه الجولة من الحوار، بحيث ترفع من مستوى التمثيل ليكون وفدها قادرا على أخذ مواقف تنسجم ومتطلبات توحيد البيت الفلسطيني (سياسيا وتنظيميا وكفاحيا). ولعل محاولة (أبي علاء) رئيس الوزراء الفلسطيني، إنقاذ الموقف بحضوره إلى القاهرة لم تغير شيئا من حقيقة إن وفد فتح لم يكن بمستوى الآمال الوطنية، لا من حيث المستوى، ولا من حيث الدور!

أما قوى المعارضة بمختلف تلاوينها فقد حضرت إلى المؤتمر ممثلة بحضور سياسي من مختلف التنظيمات يستطيع اتخاذ مواقف من كافة القضايا التي ستناقش في الحوار. لكن بدا للوهلة الأولى غياب امتلاك هذا التيار لرؤية استراتيجية موحدة من قضايا الحوار، مع وجود تباينات في المواقف تصل بالبعض إلى تبني استراتيجية السلطة فيما يتعلق بوقف إطلاق النار على الأقل دون أن تنفي حقيقة أن فصائل المعارضة بمختلف تلاوينها أكانت إسلامية (حماس، جهاد) أم وطنية (قيادة عامة، صاعقة)، أم يسارية كـ(الجبهة شعبية) كانت تمتلك موقفا موحدا من الاستعداد التام لتحييد المدنيين مقابل وقف بناء الجدار، والاعتداءات الإسرائيلية. واستعدادا لمناقشة سبل اشتقاق سياسة فلسطينية قادرة على المحافظة على نهج استمرار المقاومة والانتفاضة وضرورة إيجاد الحوامل السياسية والتنظيمية والكفاحية على المستوى الوطني العام بدءا بـ (م.ت.ف) والموافقة على برنامج وطني يحافظ على الثوابت الوطنية. والتي تضمن إقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة والقطاع كاملة السيادة وعاصمتها القدس. وضمان تنفيذ حق العودة من خلال الاتفاق على مرجعية وطنية مؤقتة تكون مسؤولة عن القضايا السياسية والكفاحية واستحقاقات المرحلة كافة وإعادة بناء (م. ت. ف) ومؤسساتها في الداخل على أسس ديمقراطية لضمان ترتيب البيت الفلسطيني بما يستجيب لتلبية الطموحات الوطنية المشروعة.

ولكن الفصائل بمختلف تلاوينها حملت معها مواقفها النظرية وأجندتها الخاصة. مما أعاق بشكل طبيعي قدرة المتحاورين على تجاوز كل الثغرات التي رافقت جولات الحوار السابقة.

فلم يعد يخفى على أحد أن فتح ومناصريها كانوا يحملون معهم مشروع التفويض ووقف إطلاق النار، ويستخدمونه كورقة ضغط تعطل أية إمكانية حقيقة للتقدم إلى الأمام، نحو اتفاق وطني فلسطيني سياسي وتنظيمي يؤسس لامتلاك الساحة الوطنية لأجندة وطنية واحدة قادرة على التعاطي والتعامل مع كافة المشاريع والمخططات التي تواجهها قضيتنا الوطنية. ولقد كان لهذا الموضوع أثره السلبي على قدرة المتحاورين في تجاوز سلبيات الساحة الوطنية، واستمرار تردي الأوضاع الداخلية الفلسطينية، وعجزها عن مواجهة الاستحقاقات على أساس سياسي وتنظيمي.

والفصائل الإسلامية وحماس بشكل رئيسي تحمل في جعبتها برنامجها وأجندتها ورؤيتها لمستقبل العمل الوطني واستحقاقاته. فلص هذا الأمر من إمكانية تجذير الفجوة بين مختلف القوى والفصائل حول العديد من المسائل المطروحة وزاد الأمر تعقيدا ولظروف الساحة الفلسطينية غياب رؤية يسارية موحدة لقضايا الحوار وموجباتها وحرص البعض على بقائه خارج دائرة ما يسمى بالإرهاب. هذه العوامل مجتمعة أوصلت المتحاورين إلى الطريق المسدود والمراوحة في نفس الزاوية التي بدأوا اجتماعاتهم فيها وانهارت كل الآمال الشعبية الفلسطينية حول إمكانية ترتيب البيت الفلسطيني في ظل أعقد واصعب ظروف يواجهها شعبنا، ويتحمل المسؤولية من تعبير الشراكة الكفاحية وسيلة لاستلاب القوى الأخرى وجعلها جسرا للوصول إلى غايات وأهداف تنظيمية ضيقة، وكذلك للأطراف التي تعتبر الحوار الوطني مناسبة للمناورات السياسية الهادفة إلى تمرير الوقت على حساب المصالح العليا للشعب الفلسطيني.

النظرة القاصرة للاستحقاقات:

إن تطورات المباحثات الفلسطينية الداخلية والتي كادت في بعض الأحيان أن توصل ساحتنا الوطنية إلى بر الأمان لولا الانشداد إلى ما هو ضيق وتنظيمي، أعادت حوارات القاهرة إلى حلبة الحسابات والأجندات الضيقة بدلا من خضوعها بالكامل إلى المصلحة الوطنية العليا التي يحددها انصهار الجهد الوطني السياسي، والكفاحي، لمصلحة الوصول إلى رؤية سياسية فلسطيني تخرج الوطن والمواطن من دائرة المراوحة والانتظار، وتضع حدا لسياسة الاختلاف على المستوى الوطني العام، وتعزز من قدرة الساحة الوطنية على إعطاء الاختلافات السياسية بعدا وطنيا جامعا، ويعود السبب برأينا إلى ما يلي:

١- البعض اعتبر أن حوار القاهرة مناسبة للاستفادة من الظروف والمعطيات التي عبئتها الاجراءات الإسرائيلية المتسارعة لخلق وقائع على الأرض، تحول دون قيام دولة فلسطينية كاملة السيادة مناسبة لتحريك القطار الوطني (الحوارات واستحقاقاتها) نحو استبعاد كامل للظروف الحقيقية المحيطة بنضالنا الوطني.

٢- البعض الآخر تبنى نظرية الاستجابة للضغوط والإملاءات الخارجية وإلا فإن قطار التسوية والحقائق سيفوتنا.

٣- الاستقطاب بين قطبي الصراع الرئيسي في جسم الحركة الوطنية وينطلق من استجماع حقيقي للمصالح الوطنية العليا بل طغت عليه في بعض الأحيان المصالح الفئوية الضيقة والمأزق الذي تعيشه فصائل الاستقطاب لضعف فعلها الوطني والتنظيمي.

٤- عدم حسم الفصيل الأساسي في الحركة الوطنية للقضايا الرئيسية للحوار والمتمثلة في إنجاز برنامج وطني وتنظيمي مؤهل لإعادة الاعتبار إلى (م.ت.ف) الفلسطينية، ودور المؤسسة والمشاركة في القرار الوطني والانشداد إلى إنجاز وقف إطلاق نار.

٥- إنشداد الطرف الرئيسي الآخر في الحديث عن رفض مناقشة جدية وحاسمة للخيارات السياسية الجوهرية والانشداد إلى مسألة إجرائية يمكن حسمها عند الوصول إلى اتفاق وطني بموقف سياسي يحدد أبعاد التكتيكات الكفاحية والإجرائية وتوقيتاتها المناسبة.

٦- إنشداد بعض الأطراف المشاركة من باب جلد الذات الوطنية إلى تسجيل براءة ذمة من خلال دفع الأمور لمستوى عدم الوصول إلى اتفاق وطني شامل يحقق خطوات استراتيجية للعلاقات الداخلية الفلسطينية.

٧- حرص البعض على تسجيل مواقف تبعده عن خطر زجه في مخاطر اتهامه بالإرهاب وحمله راية المشاركة الذيلية سياسيا وتنظيميا

مع السلطة في مسارها الذي اتسم طيلة السنوات الماضية بالقصور والعجز والمسؤولية عن تدهور الأوضاع الداخلية الفلسطينية لعدم انشداد طيلة السنوات الماضية إلا لأوهام تسوية ومسارات وهمية أبعدت إمكانيات تحقيق الأمل الفلسطيني.

الأبعاد الحقيقية لمآل حوارات القاهرة:

يستطيع المراقب المحايد أن يدرك منذ الوهلة الأولى المآل النهائي لمثل تلك الحوارات وذلك للأسباب التالية:

١- التمترس وراء أجندات مختلفة المنشد تطورات الأوضاع الداخلية الفلسطينية وتناقضاتها صعوبة الخروج بأجندة واحدة إذا لم تبادر الفصائل الوطنية والإسلامية إلى إجراء مراجعة شاملة لبرامجها وسياساتها على ضوء الوقائع على الأرض والتي أضحت حالة شعبية متلاحمة في ظل غياب الانسجام أو التوافق الفلسطيني العام ولعل عدم حصانة الوضع الوطني وخاصة للقوى الرئيسية من التدخلات الخارجية يحول في غالب الأحيان دون التوصل إلى اتفاق محدودية القواسم الوطنية المشتركة والتي ستحافظ على الثوابت والمسلمات الوطنية بمقاييس الممارسة والعملية وحافظة قضية الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة.

٢- التجاذبات السياسية والفصائلية تبقى حاضرة أثناء الحوار، بينما الواجب الوطني يتطلب أن نغادر لمصلحة شعبنا هذه التجاذبات وتأثيراتها السلبية على مجمل عملية الحوار، طبعا هنا لا نقول أن الخلاف وضرورة أن تستوعب ساحتنا الوطنية الرأي والرأي الآخر لكن دون أن يؤثر هذا الأمر على محصلة الجهد الوطني العام الهادف للوصول إلى النهايات المأمولة من هكذا حوار.

٣- عدم امتلاك الفصائل الذاهبة للحوار لمبادرات سياسية جامعة قادرة على وضع النقاط على الحروف، وبشكل موضوعي وعلمي تكون قادرة على خلق أرضية مناسبة لحوار وطني تشارك فيه كافة ألوان الطيف السياسي الفلسطيني، حيث لم نلامس بعض هذه المبادرات حقيقية واقع البيت الفلسطيني، وإنما أرادت أن تعلن تبنيها لمواقف سياسية لا تمثل أساسا لجمع الفلسطينيين حولها.

٤- إن حوارات القاهرة الأخيرة والسابقة قد حصلت تحت ضغط المضيف المصري الذي كان يطمح إلى إعطاء موفده/عمر سليمان للإدارة الأمريكية ورقة فلسطينية في وقت يشعر فيه الفلسطينيون بمختلف اتجاهاتهم بمدى ثقل السياسات الأمريكية المعادية لشعبنا، مما أفسد من إمكانية خلق أجواء إيجابية للاجتماع، بما يمكن من البحث المعمق لقضايا الحوار من أجل الوصول إلى صيغة ترضي الفلسطينيين الطامحين لترتيب شؤون بيتهم ليتمكنوا من درء الأخطار المحدقة بمستقبلهم.

بالإضافة لثقل البعد السلطوي الذي حمله وفد فتح ومشايعيه الذين أرادوا أن يملكوا السلطة ورئيس وزرائها ورقة وقف إطلاق النار بما يدعم تحركاته السياسية. مما دفع رئيس وفد فتح للتهديد بضرورة إعطائه هذه الورقة وإلا فإنه في حل من مناقشة القضايا السياسية والتنظيمية.

الدروس والاستخلاصات:

نستطيع أن نؤكد على حقيقة خيبة الأمل الشعبية من المآل الذي وصلت إليه حوارات القاهرة، لما تمثله هذه النتيجة من استمرار العدوان الإسرائيلي الجائر على الشعب الفلسطيني، واستمرار تضليل العالم حول حقيقة الموقف الإسرائيلي المعادي للسلام والاستقرار والأمن في المنطقة، وتلطي عصابات القتل والإجرام الصهيونية وراء شعارات سياسية تلقي باللوم على الطرف الفلسطيني لعدم التزامه بمحددات ما يسمى بخارطة الطريق.

والحقيقة أن محادثات القاهرة سجلت الصورة السلبية التي تتسم بها العلاقات الداخلية الفلسطينية منذ اتفاق أوسلو المشؤوم حتى الآن، بحيث عجزت القوى الفلسطينية حتى الآن عن تذليل العقبات والموانع السياسية والتنظيمية، التي تحول دون تحقيق إنجاز وطني يمثل طموح جماهير شعبنا في الداخل والخارج وكل القوى المساندة للنضال الوطني على المستويين العربي والدولي، ولذلك فإن القول أننا سنواصل الحوار لم يعد قادرا على كشف حقيقة الفشل الوطني على هذا الصعيد ويعود الأمر للأسباب التالية:

١- عدم الالتزام الوطني من الأطراف المتحاورة بمناقشة سياسية جادة لمخاطر استمرار العدوان الإسرائيلي وشراسته على شعبنا وقضيتنا واستحقاقاته على المستوى الوطني الفلسطيني والتي تفرض ضرورة إنجاز اتفاق وطني جامع يؤمن ما هو مشترك سياسيا وتنظيميا ليؤسس لوحدة وطنية قادرة على تجاوز كل مثالب وسلبيات العلاقات الوطنية في المراحل السابقة.

٢- الانشداد للمواقف الخاصة وتسجيل النقاط على حساب خضوع الجميع لمصلحة وحدة القوى الوطنية والإسلامية ميدانيا وعلى كافة الصعد.

٣- عدم إجراء مراجعة جادة وشاملة لأهمية انصهار الأجندات الفصائلية في أجندة وطنية واحدة تغلب الوطني على ما عداه وتحدد استراتيجية وطنية سياسية وكفاحية تؤمن استمرار الانتفاضة والمقاومة كخيار استراتيجي، لا يمكن التنازل عنه بغير الحرية والاستقلال.

٤- الجري وراء الحصول على مكاسب آنية لا تشكل مستندا يشكل ضمانة للحفاظ على الحقوق الوطنية المشروعة وينقذها من خطر التبديد من خلال عرض التفويض للسلطة ورئيس وزرائها.

٥- استمرار سياسة المحاور في وقت يجب أن تخضع كل الجهود لمصلحة تحقيق إنجاز وطني يمهد لنجاحات سياسية وإعلامية لقضيتنا.

٦- غياب ورقة تستند إلى ما توصلت إليه حوارات القاهرة السابقة، كمنطلق لحوار وطني يؤسس لضمان نجاح الجهود الوطنية وتقدم على مسارات البحث السياسية والتنظيمية والكفاحية.

ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن الحوار استطاع أن يذيب العديد من العقبات التي رافقت مسيرة السنوات التي تلت اتفاق أوسلو، وساهمت في جسر الهوة لمصلحة تقريب وجهات النظر الفلسطينية وتركيزها على أهمية تحقيق إنجاز وطني، على قاعدة سياسية وتنظيمية يشكل مرتكزا ومرجعية وطنية فلسطينية قادرة على قيادة سفينتنا الوطنية إلى بر الأمان وذلك من خلال:

١- أبدت الفصائل الإسلامية مرونة في التعاطي مع الهدف المرحلي بحيث أضحت حماس والجهاد تتحدث عن إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس وحق العودة دون التنازل عن الحق التاريخي.

٢- بداية تعاطي (حماس) الإيجابي مع مسألة إعادة الاعتبار لـ(م. ت. ف) والاستعداد لبحث الأسس والقواعد التي على أساسها يمكن إعادة بنائها على قواعد ديمقراطية، تضمن للجميع المشاركة في مؤسساتها دون استلاب من القوى الكبرى ودون ارتهان للفصائل الصغيرة.

٣- الإجماع الوطني على أهمية تشكيل قيادة وطنية موحدة كمرجعية وطنية فلسطينية في ظل الظروف الراهنة على الأقل نظريا.

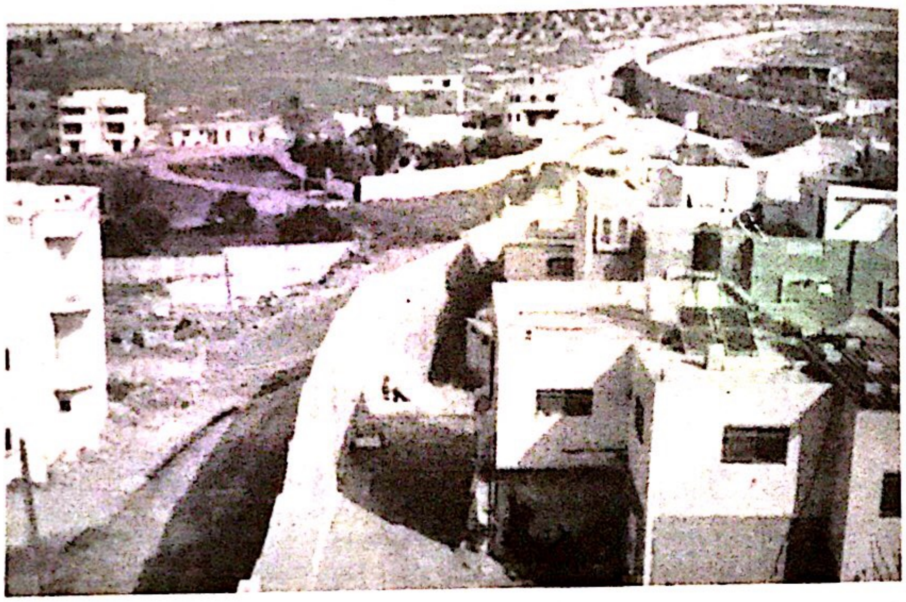
٤- الاستعداد الفلسطيني لتحييد المدنيين مقابل وقف الاعتداءات الإسرائيلية، ووقف بناء جدار الفصل العنصري.

٥- الاستعداد من قبل الجميع لمواصلة الحوار.

مأزق الاستعمار الاستيطاني.. والمواجهة العربية

حلمي شعراوي

استطاعت انتفاضة الشعب الفلسطيني المستمرة لعقد ونصف تقريبا أن تنقل إلى الساحة العالمية مصطلح الاستعمار الاستيطاني مختصرا في كلمة «الأبارتايد» التي قفزت مؤخرا إلى واجهة الإعلام الدولي بثقل ملحوظ، استعاد كل عناصر المواجهة السابقة مع نظام (الأبارتيد) في جنوب إفريقيا، والموقف العالمي الذي تصدى له حتى اسقطه عام ١٩٩٤.



إن الوصول بوضع الكيان الصهيوني عالميا، وبهذا الإجماع، إلى وضع نظام «الأبارتيد» كنظام استعماري استيطاني، يضاعف من التوحد ضده على كل الأصعدة القانونية والنفسية والإعلامية، كما يرسخ في الثقافة السياسية الصورة الحقيقية التي كافحت جميعا لتوصيلها لأنحاء مختلفة من العالم بصعوبة شديدة.

وأصبح التساؤل الآن خاصا بالثقافة السياسية العربية نفسها. فصفة ووضع الاستعمار الاستيطاني - الأبارتيد، يخرج الحالة من كونها مجرد مسألة عرقية، ويضع ثنائية «يهود» وآخرون الإسرائيلية في نفس المخرج كمن يصفها بصيغة دينية بحتة كمسألة «يهود»، تاريخية أو غير تاريخية، لأننا لا بد أن نلاحظ حرصهم الآن على القول «بدولة يهودية» أو «دولة لليهود» على نحو ما لوحوا بذلك في وثيقة جنيف وغيرها. وهذا المنهج لم ينفع ما حصل في جنوب إفريقيا حين تحدثوا عن دولة البيض، أو دولة الأوروبيين، إذ بدا ذلك مستحيلا في أقصى جنوب القارة.

وصفة الاستعمار الاستيطاني - الأبارتيد تتجاوز أيضا مجرد القبول بالاحتلال أو التوسعية أو القهرية كصفة لوضع إسرائيل في فلسطين، لقد كان ذلك دائما مقرونا بتحليلات وتبريرات تقديرية خففت دائما من ثقل «الحالة الصهيونية» في فلسطين. ومن يلاحظ الأصوات «الإسرائيلية» الجديدة الآن، داخل الكيان الصهيوني يدرك مدى تصاعد «الإدراك الفعلي» لثقل النغمة الجديدة حول «الأبارتيد» على صدور بعض شباب المستوطنين في فلسطين، لأن القول بصيغة «الأبارتيد» بات يهدد جذور «الدولة اليهودية» تحت أي مسمى ديني أو عرقي، أو قومي مما تروجه الصهيونية.

أصبح المأزق يلف رقابهم أكثر، مع إدراك أن عملية العولمة التي يعيشون خيراتها بقيادة الإمبريالية الكبرى، تحمل في طياتها شاءوا أم أبوا. تعويما لمفاهيم الدولة والقومية والدينية في نفس الوقت، حيث تقوم اختراقات الولايات المتحدة الكبرى في مناطق توسعها الإمبريالي الجديد على تدمير الدول الدينية (أفغانستان) والوطنية (العراق) وحتى العروبية والإسلامية والأفريقية، بل وتخشى أية مشروعات جامعة من اتحادات أو تجمعات إقليمية بشكل مجنون.

الثقافة السياسية العربية، مطالبة الآن بالعودة لدراسة التشابه مع الموقف الإفريقي إزاء (الأبارتيد) في جنوب إفريقيا، وهو دفع المشاعر العالمية ضد (الأبارتيد) لتساند الإجراءات - حتى اليومية - ضد ذلك النظام، بالتشويه، والمقاطعة، والعون المباشر لحركات التحرير الوطنية. إن حالة «الأبارتيد» تعطي كامل الشرعية لصور المقاومة ومساندتها. وقد استطاعت إفريقيا في ظروف مواتية أن تجعل ذلك مسؤولية الحكومات الإفريقية نفسها بقدر ما كانت مسؤولية حركة التحرير والقوى الشعبية المؤيدة لها، لكن لا يبدو أن الحكومات الإفريقية نفسها بقدر ما كانت مسؤولية حركة التحرير والقوى الشعبية المؤيدة لها، لكن لا يبدو أن الحكومات العربية، بوصفها الراهن - مؤهلة لاستثمار مأزق الاستعمار الاستيطاني - الأرباتيد بشكل مثالي، لأنها هي نفسها (الحكومات العربية) تعاني مأزقها الذاتي.

من ثم اصبح على الشعوب العربية، ومنظماتها السياسية والشعبية الواجب الأكبر في هذا المجال. قد تستطيع الحكومات العربية أن تعاود طرح عناصر القضية في الجمعية العامة للأمم المتحدة (لا مجلس الأمن) وعلى التجمعات الباقية من منظمات إقليمية.. الخ، استمرارا لعزل إسرائيل الشكلي على الصعيد العالمي (بدلاً من تفكير الأخيرة في دخول الجامعة العربية!).

ولكن المنظمات السياسية والشعبية التي نجحت في (ديربان) و(بورتو اليجري) و(بومباي) أن تجعل من قضية فلسطين قضية جماهيرية عالمية بالدرجة الأولى يمكنها أن تواصل ذلك محليا باحتفاءات يومية بالمناضلين الفلسطينيين، وبأشكال التشويه لوجه إسرائيل الزاحفة على النظم العربية، وبأشكال المؤتمرات والاجتماعات التي يحضرها ممثلو المنظمات الشعبية في العواصم العربية، وقطع الطرق في النهاية على أي حضور لإسرائيل في العواصم العربية، على المستوى الشعبي والثقافي مهما كان موقف الحكومات.

وعلى المنظمات الفلسطينية بالطبع أن تنظم استجابتها لهذا النمط حتى تساعد في تحرير نفسها وتحرير الشعوب العربية من كوابيسها في نفس الوقت.

العودة

طموح واقعي وممكن

متابعة وسام سباعنة

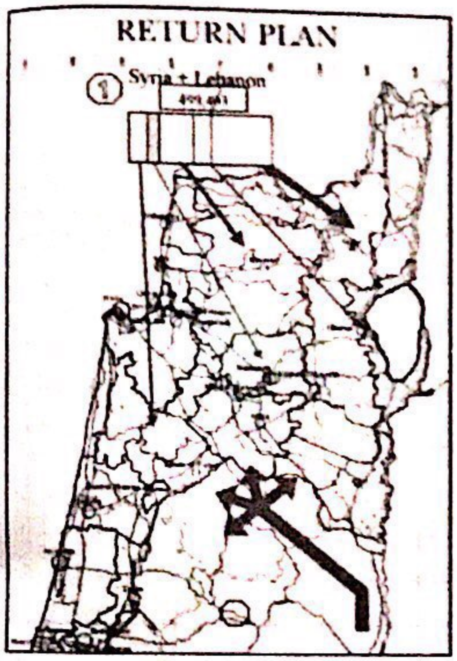
أصبح موضوع حق العودة للاجئين الفلسطينيين يحتل حيزا كبيرا هذه الأيام من النقاشات العامة سياسيا واعلاميا، مع ازدياد وتيرة المؤامرات والمشاريع الهادفة لتسوية القضية، بعيدا عن العدالة وبهدف إسقاط حق أكثر من أربعة ملايين لاجئ في العودة. هذا الموضوع كان محور الندوة التي استضافتها دمشق مؤخرا، والتي تحدث فيها الدكتور سلمان أبو ستة رئيس هيئة أرض فلسطين، والذي تعتبره بعض الأوساط (الأب الروحي) لنشطاء ولجان العودة التي برزت إلى النور في العامين الأخيرين.

وقد برز في الندوة مدى اهتمام و متابعة حركة العودة لهذه المسألة المدعمة بأرشفة المعلومات والخرائط والجداول البيانية التي كان واضحا أنها كانت نتيجة لجهد وعمل صعب وطويل.



الحرب التي يشنها الصهاينة على الفلسطينيين تركز على تدمير المخيمات بهدف شطب موضوع اللاجئين وكسر شوكتهم

تحدث د. أبو ستة في محاضرته عن التجربة التاريخية التي تمثلت بأن العدو سرق جغرافيتنا وعلق عليها يافطات عبرنة، وكيف ان اقلية مهاجرة أجنبية متسلحة بالتطور والمال والسلاح والدعم الخارجي هاجمت الأغلبية الوطنية وطردتها من ديارها، مدعية بأنها تحمل وعدا إلهيا وما حدث في نكبة ١٩٤٨ ما يزال مستمرا وهو عملية تطهير عرقي لا يمكن إزالتها إلا بالعودة.



وتحدث د. أبو ستة عن تاريخ المحاولات الإسرائيلية لشطب حق العودة، والتي كان آخرها مشروع البحر الميت المتوج باتفاقية جنيف، تؤكد أنها ليست سوى تجل لمشاريع قديمة منذ التقسيم، والخطة التي قدمتها الحركة الصهيونية للكونت برنادوت وغيرها.

وأكد د. أبو ستة أن الحرب التي يشنها الصهاينة على الفلسطينيين تركز على تدمير المخيمات بهدف شطب موضوع اللاجئين وكسر شوكتهم، في محاولة لتحطيم الجبهة الفلسطينية وإثارة الخلاف والنزاعات فيها عبر الخداع الممارس على الفلسطينيين والمجتمع الدولي، حيث تزعم إسرائيل موافقتها على إقامة دولة فلسطينية دون تحديد نوع الدولة ومداها ومقابل ماذا، وتستخدم هذا الجسور لتطبيع العلاقات مع العرب كما تسعى لتحطيم الجبهة العربية ابتداء من احتلال العراق، وترويض الخليج وتطبيع باقي الدول وترحيب سوريا، مما يجعل دعم سوريا مهمة مباشرة وهامة.

بدأ د. أبو ستة حديثه عن مقدرات الشعب الفلسطيني وإمكانيات التصدي معتبرا أن الصمود التاريخي المستمد منذ أكثر من ٥٦ عاما، لم يستسلم فيها الشعب ولم يرفع الراية البيضاء، هو أمضى سلاح، جعل المقاومة تنتقل من جيل إلى جيل لتثبت مدى قدرة هذا الشعب.

الميزة الثانية التي تحدث عنها والتي يخشاها العدو وهي التكاثر، فالفلسطينيون اليوم أكثر من ١٠ ملايين شخص نسبة التعليم بينهم مرتفعة وجيدة إضافة لثقافة العودة المتجذرة في الأطفال، والرصيد الهائل من الدعم القانوني الدولي والرأي العام المستنير،



حيث تم التأكيد على حق العودة (١٣٥) مرة، والأمم المتحدة والمواثيق الدولية، باعتباره حقاً مقدساً وشخصياً وجماعياً.

لا يمكن أن يسقط بالتقادم أو التفاوض أو التعويض، وهذه معضلة أساسية يواجهها العدو.

بعد ذلك قدم الدكتور شرحاً عملياً لموضوع العودة وخطتها وإمكانيتها عبر الكمبيوتر حيث عرض مجموع من خرائط فلسطين الموضحة للنكبة وآثارها وأماكن اللجوء الفلسطيني وقدم عدداً من الخرائط الديمغرافية التي أوضحت انتقال اللاجئين من فلسطين إلى البلدان المجاورة.

بعد ذلك عمل على أثناء الإمكانية الاستيعابية لعودة اللاجئين إلى ديارهم موضحاً بالأرقام المساحات، وتوزع السكان التي بينت أن ٨٨٪ من أراضي فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ خالية من السكان وبشكل مواز عرض الدكتور جداول عن معدل نمو الشعب الفلسطيني داخل وخارج فلسطين مقارنة بنمو السكان اليهود مبيناً همجية العدو الذي اعتمد سياسة التنظيف العرقي ضد الشعب الفلسطيني إدراكه أنه سيتحول أقلية مع الزمن الذي يعمل ديمغرافياً لمصلحة الفلسطينيين.

ثم ناقش الدكتور أبو ستة الإدعاءات الصهيونية بفكرة الحفاظ على نقاء الدولة اليهودية مبيناً عنصريتها ومفنداً حججها الدينية والاجتماعية والديمغرافية.

وعرض خرائط توضح السياسة الإسرائيلية المستقبلية في المنطقة العربية والتعامل مع الجوار العربي.

ثم ناقش الدكتور أبو ستة مسألة الناس والأرض وضرورة معرفتها عند الحديث لتحقيق العودة مؤكداً المعرفة عن أماكن تواجد اللاجئين وأعدادهم ونسبهم ووضعهم، أما فيما يتعلق بالأرض فقد بينت الخرائط توزيع الأراضي العربية وسجلات الملكية مؤكداً وجود نصف مليون سجل مسجل لدى الأمم المتحدة، وأن الأراضي اليهودية لا تتجاوز ٥٪ من مجموع الأراضي.

وختم أبو ستة بتقديم خطة العودة المؤلفة من سبعة مراحل أربعة مراحل للقرى وثلاثة للمدن بمقدار نصف مليون لاجئ في كل مرحلة.

وفي النهاية أكد الدكتور سليمان أبو ستة، على ضرورة تفعيل حركة العودة في الشتات الفلسطيني للدفاع عن هذا الحق وتفعيل المجتمع المدني وتجنيده لصالح الشعب الفلسطيني والاستفادة من طاقات الشعب وإصلاح مؤسساته وإعادة بنائها على أسس ديمقراطية توائم العصر، من شفافية وكفاءة

حق العودة لا يمكن أن يسقط بالتقادم أو التفاوض أو التعويض





والتركيز على الهيكل التنظيمي كأولوية لعمل الفلسطينيين لتحويلهم لقوة صامدة قادرة على البقاء، لأن العجز والتوسل للعدو ليس خياراً، فقد أثبتت التجارب أن العمل الجاد والصادق مفتوح لكل من أراد، وأن العقبات تزول ما دامت النية صافية والهدف هو المصلحة العامة، فهذا الشعب سيبقى ويحيى وسيعود للوطن مهما طال الزمن، فما ضاع حق وراءه مطالب.

المقاومة العراقية الباسلة

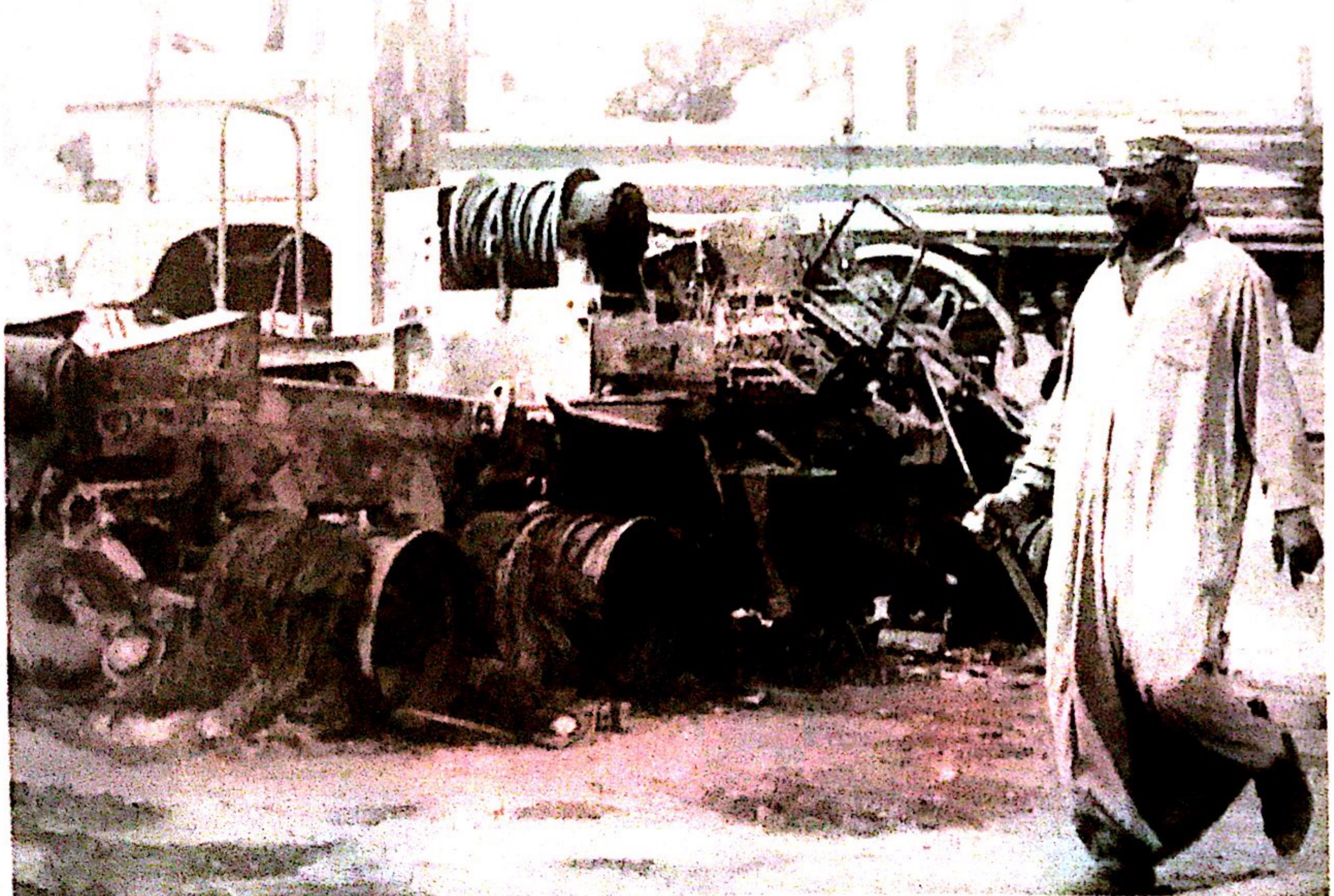
جبهة متحدة ضد الاحتلال الأمريكي - الصهيوني

د. محمد جواد فارس

قال كارل ماركس: التاريخ يعيد نفسه أولاً في هيئة مأساة، ثم مهزلة! عندما شن الحلف غير المقدس الأنكلو - أمريكي المتصهين الحرب على بلد الرافدين مهد الحضارات الأولى بلد نبوخذ نصر، تحت ذرائع متعددة، وغير واقعية منها أسلحة الدمار الشامل والتي لم يتم العثور عليها لحد الآن، ومساعدة الإرهاب وتهديد الولايات المتحدة وأكذوبة الديمقراطية والتي يمارسها المحتل الآن بالقتل والنهب والسلب واعتقال العراقيين والذي بلغ لحد الآن (٥١) ألف شخص والمقابر الغراوية ذات الطابقين.

ظهرت حركة المقاومة العراقية بشكل مفاجئ وغير متوقع من قبل قوات الاحتلال

مجلس الحكم المحلي لا يملك حرية القرار
بل أن جميع قراراته تخضع لموافقة سلطة الاحتلال من قبل الحاكم الأمريكي



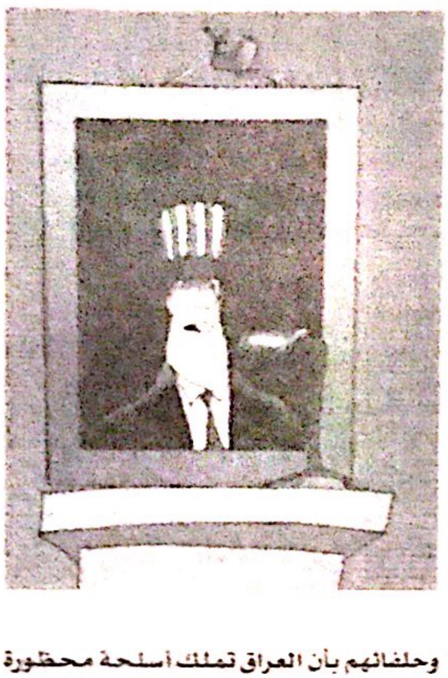
والمتتبع للأحداث يرى أن هذا المخطط القديم الجديد وضع منذ سنوات طويلة أيام كانت الحرب الباردة قائمة بين الصديق الوفي للشعوب العربية الاتحاد السوفيتي السابق ومعسكر العدوان ضد الشعوب التواقة للحرية والاستقلال بقيادة زعيمة الإرهاب الولايات المتحدة.

ففي أيام الرئيس الأسبق نكسون. أجرت قوات التدخل السريع الأمريكية. مناوراتها في صحراء نيفادا الأمريكية حيث التشابه الجغرافي البسيط لمنطقة الشرق الأوسط ومنابع النفط فيه.

كان لوزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر دورا بارزا في رسم السياسة الخارجية والتذكير بأهمية السيطرة على منابع النفط وأمن دولة الكيان الصهيوني. من يمسك بالسيطرة على المنطقة الحيوية بما تملكه من احتياطي كبير للنفط، فإنه سوف يقرر دور الطاقة وأسعار النفط والهيمنة على اقتصاد أوروبا والتحكم به. وفي ذلك الزمن استورد الأمريكان كميات كبيرة من نفط الشرق وجرى حقنها في أبار كان نفطها قد جف.

وأما أمن وسلامة الكيان الصهيوني المزروع في خاصرة الأمة العربية. فقد شجعت أمريكا إسرائيل بضرب مفاعل تموز النووي والذي أنشئ من أجل الاستفادة من الطاقة النووية للأغراض السليمة - بينما على الضفة الأخرى قامت الولايات المتحدة الأمريكية بمساعدة الكيان الصهيوني على إنشاء مفاعل ديمونة النووي في صحراء النقب. وتخصيب اليورانيوم، وتصنيع القنابل النووية والهيدروجينية، وأسلحة الدمار الشامل. بشقيها الكيماوي والجرثومي. ومن هنا يمكن أن نقول أن أسلحة الدمار الشامل هناك وهي تفتش عنها في العراق.

وفي العراق على الرغم من الحصار الجائر ووفاة مليون ونصف عراقي بين طفل وشيخ وامرأة. جرت في العراق نهضة علمية وعمرانية واسعة شملت العراق، حيث ازداد عدد العلماء والباحثين والذي يقوم الصهاينة وحلفاؤهم بقتل العديد منهم. وقد خرج العراق من الحرب العراقية - الإيرانية وهو أقوى عسكريا وأشد بأسا، وخاصة قواته الجوية. هذه الحرب التي دخلها العراق وبمباركة من بعض الحكام العرب والذين كانت عروشهم مهددة بالسقوط على أيدي شعوبهم. وكانت الولايات المتحدة قد مولت الطرفين بأسلحة مدمرة عن طريق تجار الحروب ومن ضمنهم وزير دفاعهم الحالي رامسفيلد. ولا يمكن نسيان الدور الأكثر خبثا وحقدا على شعبهم بما يسمى بالمعارضة العراقية في الخارج حيث قامت بتسهيل معلومات استخباراتية وإقناع الأمريكان



وحلفائهم بأن العراق تملك أسلحة محظورة [أسلحة دمار شامل].

وسوف يستقبلون بالزهور والحلوى. وخاصة من الشيعة ولكن الجميع يعرف المقاومة الباسلة في جنوب العراق من أم قصر وحتى البصرة والناصرية والحلة والعمارة. والكوت وكل مدن الوسط والجنوب وبعد سقوط بغداد في (٩ نيسان) واحتلال العراق من قبل الحلفاء. بدأ النهب والسلب وطريقة الفرهود والتي لم تكن هي من ثقافة العراقيين ولكنها جرت على مسمع ومرأى من القوات الامريكية وحلفائها. شكلت قوات الاحتلال مجلس الحكم المحلي وهذا المجلس لا يملك حرية القرار بل أن جميع قراراته تخضع لموافقة سلطة الاحتلال من قبل الحاكم الأمريكي (بريمر).

ظهرت حركة المقاومة العراقية بشكل مفاجئ وغير متوقع من قبل قوات الاحتلال. وكما هو معروف فإن الاحتلال يولد المقاومة وهذا حق مشروع للشعوب. وتأريخ العراق زاخر بالأمثلة ومن يقلب صفحات تاريخه الحديث. يجد أن الشعب العراقي لن يستكين ويهدأ له بال في ظل الاحتلال. نعم ثورة العشرين خير شاهد على ذلك. هب العراق من شماله حتى جنوبه مرورا بوسطه فقد قامت قوات الثوار على الرغم من بساطة تسليحها وتنظيمها بالرد على المحتل الإنكليزي آنذاك. واستمرت المقاومة الشعبية بعنفوانها وثقتها بالنصر وفرض شروطها بإقامة حكم وطني عراقي حيث شهدت مدن الفرات الأوسط (ذات الأغلبية الشيعية) في الشامية والنجف والرارنجية. مقاومة باسلة كبدت الإنكليز خسائر جسيمة بالأرواح والمعدات على يد رفاق شعلان أبو الجون والحبوبي والشيرازي وجعفر أبو التمن والشيخ ظاري والحفيد وغيرهم من أبناء الشعب العراقي على اختلاف طوائفه ومذاهبه عربا وأكرادا وتركمان وآشوريين وكلدانيين سنة وشيعة مسلمين وصابئة ويزيديين لم يستكينوا على ضيم وتدنيس للأرض مهد الحضارات والأديان السماوية الأولى في تاريخ البشرية. والآن تتصاعد هذه المفارقة ويؤكد على ذلك تصاريح القادة الأمريكيين ومنهم نائب القائد العسكري الأمريكي يقول في مؤتمر صحفي له بأن المقاومة قد ازدادت بعد اعتقال صدام حسين ولكنها لم تنته. ويقول نيوت غينغريتش وهو رئيس مجلس النواب السابق الأمريكيون لا يستطيعون أن ينتصروا في العراق، العراقيون فقط هم الذين يستطيعون الانتصار. والمقاومة الآن جبهة موحدة همها طرد الاحتلال وترك شعب العراق يقرر مصيره بنفسه، ومن هنا جاءت دعوة آية الله السيد علي السيستاني بإجراء انتخابات حرة دون تدخل المحتلين وهذا يعني على المحتل أن يرحل ويترك العراق للعراقيين. تقوم المقاومة الآن بعمليات نوعية كإسقاط طائرات الاباتشي والتي تستخدم في قمع انتفاضة شعبنا العربي الفلسطيني في الأراضي المحتلة. يتكبد المحتل خسائر مادية وبشرية لا يتم الإعلان عنها من قبلهم حتى لا تحدث ضجة وأخيرا. اكتشف أن هناك جثثا لجنود أمريكيين في أكياس سوداء في نهري دجلة والفرات، وهذا يدخل ضمن خطتهم في عدم إشعار المجتمع الأمريكي بوجود عدد من الجثامين ترسل إليهم لكي لا يتحرك الشارع الأمريكي كما حدث في حربهم القذرة في فيتنام. وتجدر الإشارة إلى أن الأمريكان يريدون الإساءة إلى حركة المقاومة كضرب أهداف مثل [مقر الأمم المتحدة أو الصليب الأحمر] واستشهاد مدنيين وكذلك إيجاد شرخ بين الشيعة والسنة الغرض منه إضعاف المقاومة صرح السيناتور الجمهوري جون ماكين والذي كان أسيرا في حرب فيتنام قال أنه يجد تشابها بين ما حدث في فيتنام وبين ما يحدث في العراق الآن، والمقصود ما نشاهده على الفضائيات في مداهمة لمنازل السكان الآمنين ليلا وهدم البيوت وأخذ النساء والأطفال رهائن وسرقة المجوهرات والمال، وإطلاق النار عشوائيا على المارة والمدنيين دليل الإرباك والخوف. هروب عدد من الجنود الأمريكان وكذلك حالات الأمراض النفسية والاكتئاب لدليل على أن المقاومة العراقية الباسلة سوف تنتصر ويرحل الأمريكان وحلفاؤهم وأعوانهم من عراق العزة والكرامة والنصر حليف الشعوب المناضلة.

تداعيات احتلال العراق على الدور المصري في المنطقة

أمين اسكندر

منذ أن وقعت مصر اتفاقية كامب ديفيد وهي تمارس انقلاباً على دورها الناتج من تفاعل الموقع الجغرافي وحركته في الزمن

الانقلاب على الدور المصري:

منذ أن وقع النظام المصري اتفاقية السلام مع إسرائيل، وهو يمارس انقلابا على دور مصر المستند دائما إلى الجغرافيا والتاريخ، وكذلك الموقع والموضع. كما عبر العلامة العربي المصري جمال حمدان في شخصية مصر. فقد أدى الانقلاب هذا إلى إصابة الجبهتين المحوريتين للدور المصري ولمكانته، حيث تعرضت الجبهة الأولى في الشمال الشرقي لمصر لأخطار جسيمة ومستمرة منذ احتلال فلسطين حتى الآن من قبل الصهاينة الإسرائيليين.

وكذلك تعرضت الجبهة الثانية في الجنوب، حيث اعتماد الحياة المصرية على مياه النيل إلى أزمات شديدة الوطأة على شريان الحياة عند المصريين من جراء وجود تهديدات عديدة في منطقة القرن الإفريقي، منها ما يحدث من تهديد بتجزئة السودان، وفصل جنوبه عن شماله، مما يهدد مصدر حياة المصريين وسبيلهم للنهوض.

وقد كانت البيئة الدولية، والإقليمية، والمتغيرات التي وقعت بها من تفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار قوته وتفكيك حلف وارسو، وتغير توجهاته من بلدان اشتراكية إلى بلدان رأسمالية، وأعضاء في الحلف الأطلسي، وكذلك انفراد الإمبراطورية الأمريكية بقمة العالم ومحاولتها بالسياسة والاقتصاد والحرب في صياغة عالم يتعايش مع انفرادها بالعالم في القرن الواحد والعشرين، وقد ساهمت تلك البيئة بشكل كبير في توقيع أطراف عربية مثل مصر والأردن وفلسطين «منظمة التحرير الفلسطينية» اتفاقيات سلام مع العدو الإسرائيلي المهدد لجبهة الشمال الشرقي لمصر، وكذلك ساهمت تلك البيئة الدولية في الضغط على الدول العربية لتبني سياسة وخيار استراتيجية السلام مع إسرائيل، مما فتح الباب واسعا أمام هدر المقاطعة وفائدتها تجاه العرب، وكذلك على قيام بعض الأنظمة العربية بفتح قنصليات ومكاتب اقتصادية مع العدو الإسرائيلي، وأخيرا صنعت تلك البيئة الدولية وعلى رأسها الإمبراطورية الأمريكية مناخا لعودة الاستعمار من جديد فقامت بضربات استباقية واحتلال لكل من الخليج العربي والعراق، وزرعت كذلك القواعد العسكرية في كل أرجاء المنطقة العربية، وقد أثر كل ذلك على الدور المصري بشكل كبير، وقلص من نفوذه وفاعليته وجعله يتصرف ضد مصلحته ونفوذه كما يحدث الآن من لعب دور الوسيط في مسألة تسوية الصراع العربي الإسرائيلي.

العراق وانهيار سقف الممانعة العربية:

وقد كان وقع احتلال العراق من قبل القوات الأمريكية والإنجليزية بمثابة انهيار شديد لجدار هام من جدارات الأمن العربي، ولبوابة رئيسية من بوابات الأمن القومي العربي. وقد أثر ذلك الاحتلال على الأمة العربية ككل، وعلى قضاياها في فلسطين وسوريا، من حيث احتلال الأرض، وكذلك من حيث مقاومة نهب الثروة العربية من المستعمر الأجنبي، وكذلك تثبيت وتوسيع المواقع والبلدان المحتلة وعودة الاستعمار إلى الأمة العربية، وبالطبع التوسع في الدور الإسرائيلي على حساب الدور المصري والسوري والعراقي والإيراني.

فرغم أن هناك بعض مستشاري السوء داخل القطر المصري، وكذلك داخل بعض الأقطار العربية قد تصرفت مع القوة العراقية في حرب الخليج الثانية (غزو الكويت) على أنها قوة منافسة لمصر ولدورها، وبالتالي لا بد من المساهمة في تقليص نفوذها إلا أن مصر وقعت من جراء تلك الاستشارات الخائبة والشريرة إلى فقدانها لورقة قوة كانت تعلي من سقف المقاومة وتضغط لصالح تخفيف الضغوط الواقعة على الأمة من قبل الولايات المتحدة وإسرائيل، لكن، وبانهيار العراق فقدت مصر تلك القوة المعارضة وانهار السقف على الجميع وخضع الجميع في بيت الطاعة الأمريكي.

ومنذ أن وقعت مصر اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨ وهي تمارس انقلاباً على دورها الناتج من تفاعل الموقع الجغرافي وحركته في الزمن، ولم يكن ذلك نوعاً من (اليوتوبيا) للدور المصري أو حلماً غير مستند على حقائق موضوعية. ففي مفاهيم السياسة الدولية هناك استناداً لعلاقات وتفاعلات لنحو أكثر من أربعة قرون على الجغرافيا السياسية، وخلال الثلاثة عقود الأخيرة، كان للجغرافيا الاقتصادية جانباً من الأهمية في تلك التفاعلات، وبالذات بعدما حل بالنظام الدولي تفاعلات جديدة. كان من بينها انهيار النموذج الاشتراكي الشيوعي، وانفراد وهيمنة النموذج



الرأسمالي والليبرالية الجديدة.

ومن هنا فإن أهداف السياسة الخارجية والأمن القومي - الوطني تتحدد على الحفاظ على بقاء الدولة وتكاملها الإقليمي، وحماية قيمها العليا من العدوان الخارجي وتعظيم مصالحها القومية الأخرى، وكذلك العمل على رفع أسباب نهضتها وتنميتها لصالح مواطنيها ولصالح قوة اقتصادها، مما يعطيها قدرة على المنافسة في عالم اليوم، ويقلل من تبعيتها لسياسات الدول الكبرى.

الجغرافيا والتاريخ وصناعة الدور المصري:

ففي تاريخ مصر ومسيرة الأمة، هناك حديث واسع عن عبقرية المكان؛ والجغرافيا وضعت مصر عند الركن الجنوبي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والشمالي الشرقي للقارة الإفريقية، وعند ملتقى القارات الثلاث للعالم القديم، وعند نقطة النهاية لرحلة النيل الطويلة من قلب إفريقيا؛ ومن ثم فرضت عليها حساسية خاصة في التعامل عبر حدودها البرية وكذلك عبر حدودها البحرية الموصلة لتفاعلها مع العالم.

أما التاريخ فقد طبعها بالوحدة السياسية حتى إنها عرفت ظاهرة الدولة لمدة تقرب من ستة آلاف عام، وقد كان ذلك من جراء تفاعل الجغرافيا والتاريخ، ورغم قدم الدولة المصرية إلا أنها لم تكن عاملا أصيلا في الدفاع عن استقلال مصر، لذا نستطيع أن نقول أن معظم فترة الستة آلاف سنة كانت احتلالا لمصر من قبل أخطار جاءت من جبهة شمالية تطل على البحر الأبيض المتوسط، حيث جاءت جيوش الاسكندر المقدوني التي تركت البطالمة في آثارها، ومن بعدهم الرومان والصليبيين، ومن بعدهم بوقت طويل جاءت الغزوات الاستعمارية والإنجليزية، كما جاءت الأخطار من جبهة الشمال الشرقي، حيث زحف إلى وادي النيل عبر جسر سيناء الإفريقي الأسيوي كل من الأشوريون والبابليون والفرس والبيزنطيون والأتراك وأخيرا الصهاينة الإسرائيليون.

هذا التراث الطويل والدامي من الغزو الأجنبي شكل من وعي ومدركات الأمن المصري، وما يستتبعه ذلك من رسم استراتيجية حركة السياسة الخارجية المصرية، وكذلك فإن العقيدة العسكرية المصرية صممت على أساس حماية الجغرافيا والديموجرافيا من الخطر الخارجي الذي يتهددهما، وهو الخطر الذي يأتي من الجغرافيا وهنا لا بد من أن نستعيد أطروحة جمال حمدان في هذا الشأن:

- من يسيطر على فلسطين يهدد خط دفاع سيناء الأول.
- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط «المضايق» يتحكم في سيناء.
- من يسيطر على سيناء يتحكم في خط دفاع مصر الأخير.
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير يهدد الوادي.

كارثة لحقت بالدور المصري:

واللافت في تلك المعادلات البسيطة المنطلقة والمؤسسة على وقائع الجغرافيا «المكان والبيئة» سوف يكتشف مدى الكارثة التي لحقت بالدور المصري باحتلال إسرائيل لفلسطين، حيث سقط خط دفاع سيناء الأول، ولعل ذلك هو ما جعل الزعيم عبد الناصر يقوم بإجراء الوحدة مع سوريا، حتى يسد تلك الثغرة في الأمن المصري، وكذلك حتى يلحم شرق الأمة الأسيوي بغربها الإفريقي، ولنفس السبب وعى الاستعمار والصهيونية ذلك، وعملا على الانفصال، وظلت الثغرة قائمة وخطيرة؛ ثم جاء بعد ذلك النظام المصري الساداتي بانقلابه الشهير على الدور المصري، ووقع اتفاقية سلام مع العدو الصهيوني، ومن بعد أصبحت سيناء مقسمة إلى ثلاثة أقسام محددا فيها القوة والقدرة في عدد الجنود ونوع التسليح وكميته، وحرمت من المطارات وقواعد الصواريخ، بل وربضت على أرضها في المضايق قوة أمريكية للإنذار المبكر، ولم يعد ممكنا أن تذهب قواتنا بالكيفية التي نريدها ونعبر بها عن سيادتنا على الأرض إلى سيناء، وهكذا سقط خط الدفاع الأوسط التحكم في سيناء.

وبالإضافة إلى ذلك جاءت التحولات الاقتصادية الهائلة التي وقفت خلفها اتفاقية السلام مع «إسرائيل»، وحدث التحول الجذري في بنية الاقتصاد المصري لصالح بعض الفئات الطبقية، والاقتصاد الريعي وتم التفريط في أصول الاقتصاد المصري منذ أن تبنى السادات سياسة الانفتاح الاقتصادي في عام ١٩٧٤، عندما صدر قانون استثمار رأس المال العربي والأجنبي، ومن بعدها توالت التحولات، إلى أن وصلنا إلى الخصخصة وبيع الأصول إلى الرأسمال الأجنبي، ويكفي هنا أن نشير إلى أن الاقتصاد المصري تم نهبه بطريقة منظمة أربع مرات في خلال الربع قرن الأخير. مرة تحت اسم الانفتاح الاقتصادي والذي أطلق عليه المرحوم الكاتب أحمد بهاء الدين «انفتاح سداح مداح»، ومرة تحت اسم توظيف الأموال بالطريقة الإسلامية، ومرة تحت اسم الخصخصة، وأخيرا ما تم بتهريب أموال وودائع البنوك المصرية إلى الخارج، عبر بعض رجال الأعمال المسنودين من مستويات السلطات العليا في مصر، والأرقام في الحالات الأربعة مفزعة.

وقد أثر ذلك على حالة الاقتصاد المصري، وبالتالي على الدور المصري، والذي عايش تغيرا واسعا في البيئة الدولية والإقليمية في الخمسة عشر سنة الأخيرة من انهيار الاتحاد السوفيتي إلى عدوان العراق على الكويت، إلى احتلال الخليج العربي، مرورا بالصدام الذي وقع بين العراق وإيران الثورة، وأخيرا احتلال العراق، نضيف إلى ذلك - ولا يخفى على أحد - أن عملية التسوية السلمية في الشرق الأوسط والتي بدأت باتفاقية سلام بين النظام المصري وإسرائيل، وكذلك النظام الأردني وإسرائيل وأخيرا منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل تطرح تحديا كبيرا للدور المصري، ومكانة مصر الإقليمية؛ حيث أن عملية التسوية الجارية منذ (مدريد) لا تقتصر فقط على معالجة القضايا الثنائية بين «إسرائيل» والبلدان العربية، وإنما تهدف التسوية إلى معالجة قضايا جماعية خاصة بإقليم الشرق الأوسط من أول توزيع الأدوار وأحجامها إلى ضبط التسلح والتنمية الاقتصادية، ولعل ما ذكره الرئيس/بوش في خطاب ألقاه في جامعة كارولينا الجنوبية عن خطة شاملة للشرق الأوسط تتضمن إقامة منطقة للتبادل الحر مع الولايات المتحدة في غضون عشر سنوات يؤكد لنا أن التصور حاكم إقليم الشرق الأوسط أو كما أطلق عليه شمعون بيريز الشرق الأوسط الجديد.

وإذا كان الدور المصري الآن بعد وقوع الانقلاب الساداتي عليه قد استند على لعب دور في تهيئة البلدان العربية للسلام مع «إسرائيل»، ومن هذا الدور تستمد مصر مكانتها بل والمنح والقروض الاقتصادية والمالية، فإن إنجاز عملية التسوية تلك يعني تهميش الدور المصري!

وقد جاء احتلال العراق من قبل قوات الإمبراطورية الأمريكية، وحليفتها إنجلترا بمثابة سقوط القوة العسكرية الثانية بعد مصر، مما جعل المنطقة العربية مفرغة من القوة لصالح قوة وحيدة هي إسرائيل، وقد جاء ذلك على حساب الأمن القومي العربي والأمن المصري الذي أصبح مهددا محاصرا من إسرائيل وأمريكا في الخليج ومنطقة الفرات، ومن الجنوب السوداني، حيث هناك محاولات لفصل الجنوب عن السودان مما يؤثر على شريان الحياة بالنسبة للمصريين النيل.

وكل ما سبق يطرح علينا سؤالا محوريا تجاه الدور المصري في الفترة القادمة، وكيف يتم ترميمه وإعادته لمكانته القيادي في الأمة العربية؟

ولعل ذلك يستوجب منا حديثا مفصلا عن استراتيجية للمقاومة وبناء النفوذ.

عراق

على صفيح ساخن

خليل جنداوي

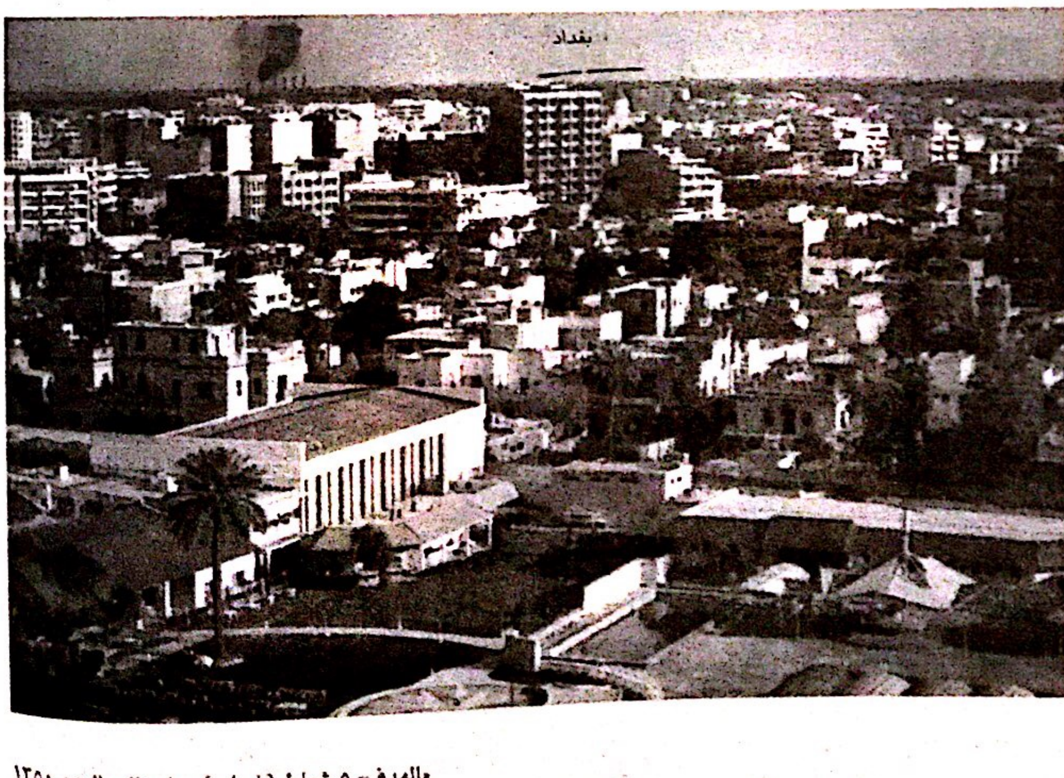
ما زال الوضع في العراق يزداد سخونة رغم حرارة الطقس المنخفضة هناك عادة، في مثل هذا الوقت من العام... بسبب ذلك يبدو المشهد العراقي للمراقب من بعيد غريبا، إن لم نقل سورياليا، حيث تظهر كافة الأطراف الفاعلة في الأحداث وكأنها مشتركة في رقصة مميتة هي أقرب للقفز على صفيح يزداد سخونة...! ولأن الجميع يبدو متوترا وهو يستعجل استغلال اللحظة الراهنة لتحقيق اهداف طال انتظارها، أو على الأقل ليخفف من الأضرار التي ستلحق به، تزداد إيقاعات الرقص بشكل جنوني... وهنا يكاد يضيع سبب القفز: هل يأتي أساسا من العجلة أم من الحرارة التي تزداد التهابا ؟!

نبدأ بأزمة الأمريكيين لنلاحظ إنها ليست فقط مركبة أو عميقة. بل الأهم، إنها واسعة. وهذا يأتي أساسا وقبل كل شيء من طبيعة وحجم الهدف الذي تسعى الإدارة الحالية لتحقيقه عبر ما يسمى بحربها على الإرهاب. والتي بدأت في أفغانستان، وحطت رحالها في العراق على أمل الانطلاق منه لمحطات أخرى... ويوما بعد اخر يظهر بشكل صارخ أن ملاحقة الإرهاب - وهو أساسا صناعة أمريكية بامتياز - ما هو إلا ذر للرماد في العيون. أما الغاية الحقيقية فهي السيطرة على العالم، لا أكثر ولا أقل!! عبر استراتيجيتين تسيران بشكل متواز... الأولى تتجه لملء جهات الأرض الأربعة بالقواعد العسكرية الأمريكية المتحفزة لضرب أي تهديد محتمل للمصالح الأمريكية. أما الاستراتيجية الثانية فتقوم على التحكم بمنابع النفط عبر العالم..

والمشكلة أن هدفا بهذه الضخامة سيثير مخاوف الكثيرين ويستعيدهم، وبالتالي سيدفعهم للتحالف والتكتل ضده، دفاعا عن أنفسهم ومصالحهم المهددة... والأخطر من ذلك أن المباشرة بتحقيق هذا الهدف بدأت في المكانين غير المناسبين أبدا، فأفغانستان بالذات هي الصخرة التي تحطمت عليها رؤوس إمبراطوريات عديدة عبر التاريخ، أما العراق فهو المستنقع الذي غرق فيه المحتلون على اختلاف أجناسهم، حيث اضطروا لخوض الحروب الدامية على أرضه طوال فترة وجودهم وحتى طردهم.

وورطة الأمريكان في العراق جاءت من كونهم خططوا لكسب الشق العسكري، وهذا ليس صعبا على القوة العسكرية الأكبر والأضخم في العالم، لكن لم يكن لديهم للمرحلة التي تلي ذلك سوى الأوهام.. فظنوا أن الشعب العراقي سيستقبلهم كمحررين ويلاقيهم بالزهور... يدخلون بغداد وينصبوا في سدة الحكم من يضمن مصالحهم... ثم يسحبوا قواتهم بهدوء إلى قواعد غسكرية خارج المدن، لضمان تدفق النفط وحفظ النظام الذي أتوا به على ظهور دباباتهم وتأمين سلاسة المنهبة التي ستجرى للثروات العراقية وتعرف رسمياً باسم «إعادة إعمار العراق»...

وسوى هذه الأفكار الجديرة بالكاوبوي والمافيا، لم يكن لدى الأمريكان أي برنامج لليوم التالي لنهاية المعارك... طبعاً انتصارهم السريع نسبياً جعلهم يتصرفون بعنجهية فائقة أوقعتهم في أخطاء قاتلة مثل تعيين شخص صديق لشارون على رأس إدارة الاحتلال هو (غاي غارنر) الذي لا يتمتع بأي موهبة سوى أنه من



بغداد

المؤسسة العسكرية ومقرب من نائب الرئيس الأمريكي ووزير الدفاع، وكان جل اهتمام غارنر هنا تأمين ارساء العقود على شركات امريكية معينة لها صلات بالأوساط الحاكمة في واشنطن. الخطأ الثاني تمثل في حل الجيش العراقي واجهزة الأمن وغيرها العديد من المؤسسات العراقية، الأمر الذي القى بمئات الآلاف من المواطنين في الشوارع بدون أي مورد رزق وبالتالي نقلهم إلى خانة العداء المباشر للاحتلال... كذلك استفزاز مشاعر الشعب العراقي، بالقول: ان الاحتلال سيحكم بصورة غير مباشرة لفترة تدوم خمسة اعوام على الأقل... لقد فعل الأمريكيون كل ما في وسعهم لاستفزاز العراقيين، ولسذاجتهم لم يتوقعوا ابدا ان شعبا فخورا ومعتدا بنفسه كالشعب العراقي سينهض للتصدي لهم منذ ان وطأت اقدامهم ارضه. لكن هذا بالضبط ما حصل، وبقوة وشراسة لافتتين لدرجة ان خسائر الأمريكيين في الستة اشهر التي تلت الاحتلال فاقت عدد من سقط اثناء عملية الغزو نفسها، وبلغت البعض الانتباه ان خسائر الأمريكيين في التسعة اشهر التي قضوها في العراق فاقت عدد قتلاهم خلال السنوات الأربعة الأولى لتورطهم في الحرب الفيتنامية.

وهكذا كان (بوش وبريمر) كمن يسير حافيا على صفيح ساخن، يشعران بلسع الحرارة على اقدامهما فيقفزان.. ومع تكشف حجم الأكاذيب التي روجتها الإدارة حول أسلحة دمار شامل مزعومة لتبرير عدوانها، وتبين أن العراق لا يمتلك أي منها، بدا الرأي العام الأمريكي يميل ضد بوش، وخصوصا مع تدفق سيل النعوش القادمة للمدن الأمريكية، وتفاقم الأزمات الاقتصادية في الداخل الأمريكي والتي تلقي بعبئها على كاهل الطبقات الفقيرة والوسطى التي تشعر أن مستوى معيشتها يتدهور سواء بسبب الزيادة الرهيبة في الإنفاق العسكري أو بسبب سياسة بوش اليمينية المحابية للأثرياء... ولأن هذا العام سيشهد انتخابات رئاسية، كان الصفيح يسخن أكثر فأكثر..

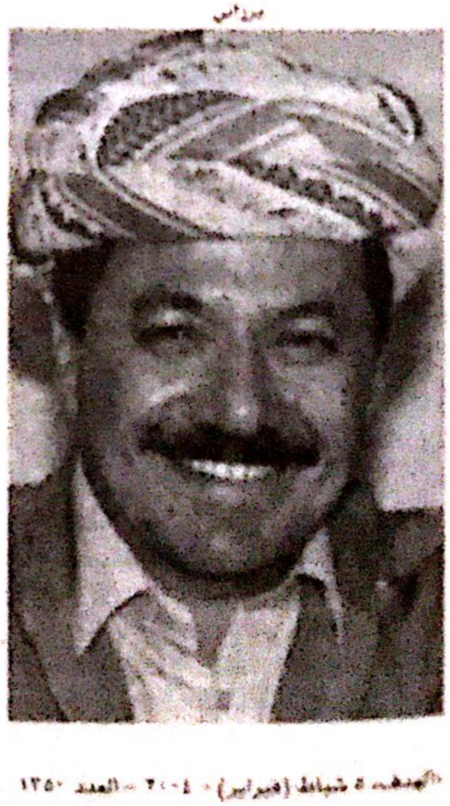
وهنا تفتق ذهن مستشاري الرئيس (الأرجح انها كونداليزا رايس) عن حل يهدونه اياه قبل الاستحقاق الانتخابي، ونقصد هنا اتفاق نقل السلطة الذي تم التوقيع عليه رسميا في ١٥ تشرين الثاني، والقاضي بتسليم الحكم لمجلس سلطة (وطني) انتقالي في نهاية حزيران المقبل، يقوم بوضع دستور جديد سيفصل حتما على مقياس الأمريكيين، ويشكل حكومة تتسلم مقاليد الأمور من سلطة الاحتلال... ولكن المشكلة التي برزت هنا ان اطرافا مهمة رأت في هذا الاتفاق تمريرا لأجندة الأمريكيين والتفافا على إرادة الشعب العراقي... فحسب الاتفاق المذكور فإن مجلس الحكم الحالي، وليس أي سلطة منتخبة أو حتى شبه منتخبة هو من سيوقع على الاتفاقات التي ستنظم الوجود اللاحق للقوات الأمريكية على الأراضي العراقية. كذلك تنص بنود هذا الاتفاق على ان الجمعية الانتقالية ستتألف من ٩٥ عضوا، ٦ منهم سيعينهم مجلس الحكم الحالي والبقية تختارهم مجالس المحافظات والبلديات، وهي بالمناسبة معينة من قبل سلطة الاحتلال، أي باختصار فإن المجلس الانتقالي الذي سيتسلم السلطة من قوات الاحتلال وبالتالي يعلن استقلال العراق، سيكون معينا من جهات عينتها بشكل مباشر سلطات الاحتلال نفسها!!

هذه الخدعة المكشوفة التقطها المرجع الشيعي آية الله العظمى السيستاني، فرفع في مواجهتها شعار الانتخابات بل ونقل المعركة للشارع عبر تظاهرات حاشدة ضمت مئات الآلاف في مدن عراقية عديدة..

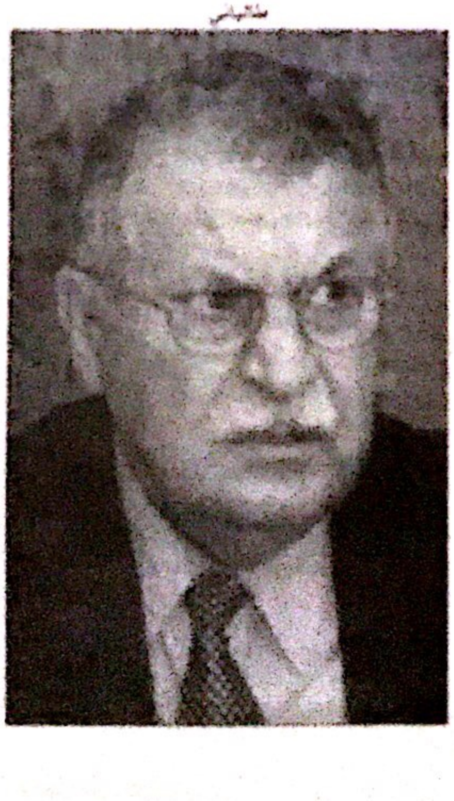
لكن بريمر ببساطة لا يستطيع ولا يملك الرغبة للاستجابة لهذا المطلب، ويسوق الذرائع باستحالة إجراء الانتخابات لضيق الوقت أو لأسباب فنية مثل غياب الدستور وقانون الجنسية وعدم وجود لوائح بأسماء الناخبين متفق عليها من قبل الأطراف المختلفة.. هذا المعلن، أما الحقيقي فيتلخص بأن الانتخابات بالنسبة لبريمر تظل غير مضمونة النتائج، فثمة احتمالات كبيرة أن تسفر عن مجلس وطني معاد (أو على الأقل غير مرحب) بالوجود الأمريكي وسياساته ومشاريعه، التي كان أخطرها الأمر الذي وقعه بريمر ويحمل الرقم ٣٩ والمعروف باسم قانون الاقتصاد الحر في العراق، الذي أعطى المستثمرين الأجانب حق امتلاك شركات عراقية بالكامل، وهذا ما كان ممنوعا بموجب الدستور والقانون العراقي السابق، الذي يحصر هذه الحقوق بالمواطنين العراقيين والعرب، كذلك يعفي الأمر ٣٩ الشركات الأجنبية من واجبات استثمار الأرباح في داخل العراق... وفعلا أعلنت سلطة الاحتلال قبل فترة عن خطة واسعة لبيع ١٥٠ من أصل ٢٠٠ شركة تملكها الدولة العراقية، الأمر الذي يعني بيع ممتلكات ومقدرات العراق لمستثمرين معظمهم أجانب (قد يكون منهم إسرائيليون)، لأن غالبية العراقيين غير قادرين على تأمين لقمة عيشهم، فكيف يشترون ويستثمرون في شركات عملاقة. ونشدد هنا على أن تصرف بريمر هذا يتنافى بشكل قاطع القانون الدولي الذي يقيد سلطة الاحتلال من التصرف بالموارد الوطنية للبلاد الواقعة تحت الاحتلال ويمنع تغيير القوانين الوطنية..

أما السبب الثاني الذي يمنع بريمر من قبول فكرة الانتخابات، فنجده في دفاعه الشديد عن موعد نهاية حزيران وكأنه مقدس، والتزامه الحرفي ببنود اتفاق ١٥ تشرين الثاني الموقع مجلس الحكم والمصادق عليه من قبل الأمم المتحدة، وكأنه يريد التسريع في عملية استقلال العراق... وهذا المعلن. أما المخفي فيأتي من ضغط رزنامة الانتخابات الأمريكية

برزاني



طالباني



المقرر إجراؤها في نهاية العالم الحالي، وبالتالي فإن بريمر يريد إهداء (بوشه) ورقة ثمينة قبل أشهر من الانتخابات، عنوانها أن الأوضاع في العراق تتحسن، والحرب انتهت، والاحتلال سوى أموره مع حكومة عراقية «شرعية»، واصبح قوة صديقة موجودة هناك بناء على اتفاقات معترف بها... أي باختصار: «المهمة أنجزت»... وهذا الموقف المعادي للانتخابات يمثل بحد ذاته ورطة اخلاقية أخرى لواشنطن. فعندما ثبت بطلان حجة أسلحة الدمار الشامل المزعومة لخوض الحرب، تبجح الأمريكيون بحماس أنهم جاءوا لتحرير الشعب العراقي ومنحه الديموقراطية. وها هم عند أول اختبار جدي يكشفون عن وجههم البشع المرتعب من ظهور إرادة الشعوب على حقيقتها وحصولها على حرية اختيار حياتها ومستقبلها.

وقبل أن نبدأ باستعراض مواقف الأطراف العراقية (سنكتفي بأبرزها لضيق المجال)، نسجل اعتذارنا للقارئ العزيز لاضطرارنا لاستخدام تعابير ما كان أي عاقل يستسيغ استعمالها مثل (شيعة وسنة، عرب وأكراد وتركمان...)، لأننا باختصار لا نستطيع فهم ما يجري على لوحة الصراع بدون التعمق في مواقف العناصر الفاعلة فيها وهي في الحالة العراقية باتت - للأسف - مركبة على أسس طائفية- عرقية.. نبدأ بالشيعة فهم يمثلون الطائفة الأكثر عددا، والتي أيضا تحتل دورا مركزيا في عراق المستقبل حسب معظم السيناريوهات التي تروجها المصادر المقربة من سلطة الاحتلال. وهذا يأتي أساسا من عدة عوامل أولها مراهنة إدارة (بريمر) على مشاعر الغبن والخوف التي يكنها الشيعة للنظام السابق، حيث لم يستبعدوا فقط من مراكز صنع القرار رغم أنهم الغالبية، بل ولكبح طموحاتهم تعرضوا للقمع والاضطهاد...

ثانيا: على ضوء هذه الخلفية جاء موقف الشيعة من الاحتلال ملتبسا، حيث رحب جزء منهم به على أساس انه «حررهم» من حقبة قاسية، وحتى من لم يرحب بالاحتلال منهم، فإنه لم يتصد له بالقوة المناسبة، فلم تشهد المناطق الشيعية باستثناء حالات متفرقة عمليات مقاومة متواصلة كما يحصل فيما يسمى «المثلث السني»... بل آثر الشيعة إتباع ما دعت إليه مرجعياتهم أي المقاومة السلمية، لكن هذا لم يمنع بعض أحزابهم الكبيرة من المشاركة في مجلس الحكم المعني من قبل سلطة الاحتلال، كذلك نظر غالبية الشيعة بارتياب لعمليات المقاومة خوفا من أن تؤدي لعودة النظام السابق أو تقود لاستعادة السنة لدورهم القديم..

وباختصار فإن مواقف المرجعيات الشيعية كانت تقوم في جوهرها على سياسة انتظارية تقول بالتعاطي مع الأمر بحذر لمعرفة إلى أين ستؤول الأمور وبالتالي تخفيف الأضرار مع محاولة تحقيق مكاسب من التطورات الحاصلة للاستفادة من فرصة تاريخية نادرة قد تقودهم للسلطة التي يرونها من حقهم..

ثالثا: لم يخف على واشنطن حقيقة أن الطائفة الشيعية مع كبرها، إلا أن بها صدوعا عديدة يمكن اللعب عليها وتوسيعها كتعدد الاتجاهات فيها واختلاف الولاءات بين مرجعيات يكاد يكون تنافرها واضحا للعيان، الأمر الذي يجعل هذه الطائفة «حليفا نموذجيا» سهل إخافته وأسهل منها إخافة الآخرين منه. حليف يمكن تشكيله وتوجيهه حسب ما تقتضي حاجة الاحتلال. أما في حال حصول خلافات بين الطرفين، فهي إلى الآن ليست جذرية وبالتالي من غير المتوقع - على الأقل خلال فترة قادمة - أن تتطور لمرحلة التصادم الجدي. فالبرغماتية التي يتمتع بها كلاهما ستمكنهما من الالتقاء في نقطة ما في الوسط.. وهكذا فإن المعركة الدائرة حاليا بين السيد/السيستاني (وبريمر) قد تجد حلها في ما يطرحه بعض أعضاء مجلس الحكم بإجراء انتخابات جزئية لبعض عناصر الجمعية الانتقالية بدلا من تعيينهم جميعا.

إلا إذا.. وهنا مربط المستقبل.. إلا إذا ارتقى السيد/السيستاني بمقاومته السلمية وتشبث بموقفه الحالي الذي يشكل أول وأخطر معركة

بريمر



سياسية يخوضها الاحتلال، ومثل هذا الموقف يستطيع أن يحشد حوله معظم الوطنيين العراقيين. أما إذا أصر السيد/بريمر على دعواه باستحالة إجراء الانتخابات، فليكن الرد بضرورة وجود هيمنة دولية محايدة تتولى الإشراف على المرحلة الانتقالية بكل مشاكلها التي على ضوء حلها سترتسم ملامح العراق الجديد.. يستطيع آية الله العظمى السيستاني إذا أراد فعلا، لعب دور رائد في العراق ويكون بحق بطل استقلاله، لكن هذا يتطلب منه قبل كل شيء التمسك بصلابة بموقفه الحالي وطرح مشروع وطني يقوم على عدة ثوابت، لعل أبرزها الإصرار على خروج القوات الأمريكية من العراق وعدم القبول مطلقا بوجود قواعد عسكرية على أراضيه.. ثم التشديد على وحدة العراق وعروبته والتصدي بحزم لأية مشاريع تهدد وحدة ترابه وهويته.. والأهم طمأنة باقي الأطراف العراقية بأن الديمقراطية الحقيقية هي قدر العراق ودواؤه من كل علاته. وبالتالي فإن الشيعة كغالبية لا يفكرون باستعمال الديمقراطية كوصفة لمرة واحدة فقط. وبعد أن يصلوا للسلطة سينقلبون عليها وينتقمون من الآخرين ويقيمون حكما طائفيا يستبعد البقية ويضطهدهم.

ننتقل من جنوب العراق إلى الوسط لنصل الطائفة السنية. ونلاحظ قبل كل شيء أن الصورة عندها أكثر تعقيدا من غيرها بحكم التناقضات العديدة التي تحكم تصرفاتها. وإذا كان ثمة بطل (إغريقي) في المأساة العراقية فهو بلا شك السنة... حيث يعتقدون أنهم الأكثر تضررا من الاحتلال، إذ فقدوا السلطة التي ظلت في قبضتهم منذ استقلال العراق، صحيح أنهم تعرضوا للقمع والاضطهاد مثل بقية الفئات العراقية، لكن هذا لا ينفي أنه خلال الحقبات الماضية نشأت حساسيات وصلت إلى درجة الشكوك وعدم الثقة المتبادلة بينهم والأطراف العراقية الأخرى، الأمر الذي يغذي الأن مخاوف السنة بأنهم مستهدفون من الجميع، من جهة أخرى أثبت هؤلاء أنهم بحق الفئة الأكثر فعالية ونشاطا في التصدي للأمريكان سواء أثناء الغزو أو بعد الاحتلال، لكن البرودة التي وصلت إلى حد الرفض الذي استقبلت به أطراف عديدة عمليات المقاومة، زادت من مشاعر السنة بالحصار وغذت شكوكهم بعدم وطنية الآخرين أو على الأقل تغليب كل جهة منهم لأجندتها الخاصة على مصلحة الوطن.. علما أن الجميع يدرك جيدا إنه لولا عمليات المقاومة المتواصلة وتضحياتها الباهظة والخسائر الفادحة التي توقعها بالأمريكيين، لما اضطر هؤلاء لتقديم أي تنازل للعراقيين. فمجلس الحكم الحالي لم

يشكل إلا على دوي ضربات المقاومة واتفاق ١٥ تشرين الثاني تم التوصل إليه باستعجال على إيقاع العمليات الباسلة التي أحرقت الأرض تحت أقدام الاحتلال، الأمر الذي لم يقابل بالعرفان والجميل من الفئات الأخرى التي كانت مصلحتها تقتضي بتهميش دور المقاومة والتقليل من شأنها، لتقليص أي دور مستقبلي للقوى والجماهير التي تقف وراءها وتحتضنها.

هذا الواقع يقود لنتيجة تقول أن السنة وهم الأنشط والأكثر فاعلية عسكريا، ما زالوا عاجزين عن تجيير ذلك لمكاسب سياسية. أي باختصار إنهم يزرعون والبقية يحصدون ثمار عملهم.. فضلا عن ذلك بأن انحصار عمل المقاومة في المناطق السنية، يمكن الاحتلال من الاستفراد بها ويجعلها عرضة لضربات قاسية. كذلك يحد بشكل أو بآخر من تأثير عملياتها، وخصوصا إذا استطاع الأمريكان التكيف من حجم خسائرهم الحالي الذي إذا لم يرتفع بصورة درامية، فمن غير المتوقع أن تقدم واشنطن على تغييرات جذرية في سياستها العراقية. وهذا لن يحصل إلا إذا اتسعت المقاومة لتشمل باقي المناطق العراقية أو على الأقل معظمها..

صحيح أن السنة والشيعة استطاعوا حتى هذه اللحظة تفويت الفرصة على سياسة إجرامية تعمل بجهد لدفع الطائفتين لأتون احتراب مدمر، لكن هل يكفي هذا؟ بالتأكيد لا.. المفارقة المدهشة هنا إنه في المعركة الحالية التي يخوضها السيستاني مع بريمر وقفت هيئة علماء السنة ضد الانتخابات!!

ربما لأنهم يخشون من نتائج ترسخ سلطة الغالبية الشيعية، وربما أيضا كرد فعل هو أقرب للغضب على تركهم وحيدين في ساحة المواجهة طوال الأشهر الماضية، ومن الواضح أنهم أرجعوا رفضهم هنا لوجود الاحتلال وعدم الثقة بنزاهة انتخابات تجري بوجوده، لكن حتى يصبح موقفهم مفهوما بإمكانهم قبول الانتخابات مع اشتراط إشراف جهة دولية محايدة عليها.. في كل الأحوال ليس هكذا تورد الإبل أو تحرر الأوطان.. والمخرج الوحيد هو ببروز مشروع وطني جامع يتجاوز حساسيات كافة الأطراف ويتشبث بالثوابت التي ذكرناها أعلاه..

أخيرا ننتقل من وسط العراق لشماله حيث الأكراد، ونلفت الانتباه لمفارقة مدهشة هنا، فللوهلة الأولى بدا إنهم الطرف الأكثر استفادة من الغزو، واعتقد البعض أنهم باتوا على قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفهم الذي طالما حلموا به، أي بناء دولة خاصة بهم أو شيء قريب منها على الأقل.. لكن هذه الصورة آخذة بالتغيير مع تطور الأحداث وغرق واشنطن المتزايد في الورطة، وبالتالي تآكل قدرتها المطلقة على تمرير ما تريد من قرارات، واضطرارها لمسايرة باقي الأطراف العراقية، بل والأخذ ولو جزئيا ببعض طروحاتها، كذلك عدم رغبتها إغضاب بعض الجيران الإقليميين وخصوصا تركيا التي ترى في دولة كردية على حدودها تهديدا خطيرا لأمنها القومي. كل هذا يثير مخاوف الأكراد، خاصة وهم يرون كيف تتراجع الخطوة التي تمتعوا بها طوال الحقبة الماضية، حيث كانوا أشبه بطفل أمريكا المدلل أيام مناطق حظر الطيران ومنطقة الحكم الذاتي الذي تحول بفضل رعاية واشنطن المباشرة إلى ما يشبه الدولة.

ويدرك الأكراد جيدا إنهم إذا أرادوا إضافة مكاسب جديدة لرصيدهم السابق، فعليهم أن يشرعوا وضعهم الحالي ضمن الدستور العراقي المقبل، كذلك ضم المزيد من الأراضي لإقليمهم وتحديدا مدينة كركوك الغنية بالنفط، التي لو حصلوا عليها لكانت عمليا عاصمة لدولة فعلية حتى لو كانت تحت أي مسمى.. ويبدو أن هذا ما وعدهم به الأمريكيون في السابق، ولا شك أن هناك العديد من مفكري التيار اليميني - المحافظ، ذوي التأثير على سياسات البيت الأبيض يدعون لخلق دولة كردية في شمال العراق ستكون حتما إسرائيل جديدة في المنطقة حتى لو أدى ذلك الاستعداء تركيا وإيران وسوريا وبعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وصولا لروسيا.. مثل هذه الطروحات موجودة في واشنطن، ويوجد الكثيرين من المتحمسين لها في أوساط الأكراد، لكنها ببساطة مستحيلة بسبب العدد الهائل من القوى والأطراف التي تستفزهم وتدفعهم للوقوف ضدها بكل الوسائل. مثل هذا المخطط هو مشروع حروب دامية، لو حصلت من غير المستبعد أن تنتهي بما يشبه الإبادة للأكراد..

على صعيد آخر تقع الأحزاب القومية الكردية - العراقية في تناقض واضح حين تدعو لعراق ديمقراطي لا مركزي، فيما تعمل هي نفسها لإرساء أسس حكم ذاتي كردي مركزي سيكون حتما لا ديمقراطيا، علما أن تجربتهم خلال العقد المنصرم تثير الكثير من المخاوف حيث استأثر الحزبين الكبيرين بالسلطة، وحين فشلا في تقاسمها (سلميا)، حصلت مجابهات بينهما أدت فعليا لظهور إمارتين منفصلتين، واحدة في أربيل والأخرى في السليمانية.. وبلغت الخلافات حد ارتكاب المجازر بحق بعضهما البعض. ونذكر هنا بمئات الضحايا (حوالي ١٥٠٠ قتيل) الذين سقطوا من الطرفين أثناء اشتباكات حصلت بينهما بسبب لا يمكن وصفه إلا بالتافه، وتمثل في رغبة كل منهما بالتفرد في إيرادات الجمارك في معبر النبي إبراهيم الخليل الحدودي بين تركيا والعراق، ولم تهدأ الأمور بين الطرفين المتخاصمين إلا بتدخل أمريكي مباشر أجبرهما على التصالح، وإن بقي كل منهما متحصنا في مواقعه.. لكل هذا نقول إنه ليس هناك أية ضمانات بأن الأقليم الكردي سيكون ديمقراطيا لأبنائه أو حتى سيصون حقوق الأقليات القومية الأخرى الموجودة على أراضيه (عرب، تركمان، آشوريون..)، وتتفاقم هذه المخاوف مع الأخبار المتواترة التي تتحدث عن حالات تطهير عرقي قام بها الأكراد في مقاطعتهم بعد الغزو. وفي هذا السياق أيضا نشير لبعض الأصوات الكردية التي تقول أن الحزبين الكرديين الكبيرين يؤيدان الآن السيد/بريمر في رفضه انتخابات مجلس الحكم الانتقالي ليس حبا فيه أو طمعا في إرضائه، بل أساسا بسبب خوفهما من نتائج هذه الانتخابات في ظل التآكل الشديد في شعبيتهما لصالح حركات إسلامية كردية تعارض وجود الاحتلال..

في كل الأحوال يبدو أن الأمريكيين يميلون الآن لعدم إغضاب الغالبية العراقية القائلة بوحدة العراق، وإن كان هناك ضرورة لنظام فيدرالي، فليكن على أساس المحافظات وليس على معادلة قومية - عرقية كما يصر الأكراد.. ولو ساد هذا الاتجاه، فسينتقل الأكراد حتما من فئة الرابحين إلى خانة الخاسرين لأن الوضع الذي تمتعوا به أثناء فترة الحصار على العراق كان بالتأكيد أفضل من القادم.. وحينها سيتضح أن القادة الأكراد الحاليين قد ارتكبوا مرة أخرى نفس الغلطة التي طالما كررها أسلافهم، حين كانوا يعقدون التحالفات مع الغزاة الأجانب الطامعين بالمنطقة، ويقدمون لهم الخدمات مقابل وعود بالمساعدة لإقامة دولة كردية، لكنها سرعان ما تتبخر، ولينقلب المحتلين عليهم ويجبرونهم على القبول بالأمر الواقع، وفي حالات أخرى يدفعونهم لرؤوس الجبال..

الجميع في العراق على صفيح ساخن.. الأطراف التي ذكرناها وغيرها كثيرون، لعل أبرزهم النظام العربي الذي يبدو مشلولا، عاجزا عن الحركة رغم الحرارة الشديدة التي تلفحه.. في كل الأحوال تبقى كل الاحتمالات واردة في العراق، وبالتالي لا يجوز استبعاد أي منها عن طاولة البحث، لكن الشيء الوحيد المؤكد أن العراق أصبح قاعة امتحان قاسية للكثيرين، على ضوء نتائجه سترتسم ملامح مستقبل ليس هذا البلد فقط، أو خريطة المنطقة برمتها، بل وربما قواعد العلاقات الدولية لمرحلة قادمة..

الديمقراطية في المتاهة العربية!

ميشيل كيلو

أود، بادئ ذي بدء، التأكيد على أن أسوأ يقظة هي تلك التي تحدث في الدقائق الخمس الأخيرة من عمر الدول، وأسوأ رد على المخاطر هو ذاك الذي يتم تحت ضغط (بسطار) عدو متربص أو محتل. ولكن، ما العمل إذا كانت النظم العربية الحاكمة قد ضيعت علينا فرصة اليقظة، والرد على الخطر في طور سابق، حين لاحت علاماته الأولى في أفق سياسات وواقع العرب، مع انهيار الجمهورية العربية المتحدة وهزيمة حزيران وما أعقبها من صعود قوى الاستبداد والفردية بدلا من قوى الديمقراطية في كل مكان من دنيا العرب، وما تبع ذلك كله من تدهور، فانهيار شامل، بلغ ذروته في أيامنا بالعجز والصمت العربيين، حيال ما يفعله الصهاينة في فلسطين، وباحتلال العراق، الذي يعتبر حدثا فريدا وتاريخي الأبعاد في مأساتنا الحديثة، يشبه في نتائجه ومعناه سقوط بغداد بين يدي المغول عام ١٢٥٨، الذي لا شك في أنه غرب العرب عن السياسة والسياسة عن العرب، وأدى إلى تشكل كيانات ودول مملوكية أفرغت العالم العربي من طاقاته وقدراته، إلا أنها حمته في الوقت نفسه خلال قرنين، ونجحت في إخراج الغزاة والمعتدين منه، وصد من قدم منهم لاحتلاله وإخضاعه (التتار)، قبل سقوطه الكبير أمام التقدم الأوروبي ممثلا في الحركات الاستعمارية البرتغالية والإسبانية، ثم الإنجليزية والفرنسية، بينما تعجز نظمنا جميعها عن الحفاظ على استقلالها، رغم أنها فعلت كل ما فعلته الدول المملوكية وأكثر بنا، بعد أن دفع النضال التحرري - في حقبة سابقة لها - المستعمرين إلى خارج وطننا، فأعادته نظم الاستبداد بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وتسمح لأمريكا وكيانها الصهيوني بإعادتنا إلى الاستعمار والاحتلال بأساليب وقوى أكبر ألف مرة من قوى الاستعمار التقليدي.

ومع أن هذا المسار التاريخي واليومي الهابط كان جليا خلال السنوات الأربعين الماضية، فإن ردنا عليه جاء في الاتجاه الخطأ، الذي حصر الشأن العام بالسلطة وأبعد المجتمعات عن السياسة، وحشر المواطن وقد انحط إلى مرتبة رعية في معازل تنظيمية اتخذت أسماء دول، وأحزاب اختلفت باختلاف بلداننا، لكنها كانت واحدة في طبيعتها، بينما تحولت الدولة، الكيان العام والشامل والمجرد عند غيرنا، إلى فرع من السلطة عندنا، ففقدت وظيفتها وهويتها، خاصة وأن السلطة حملت أكثر فأكثر طابعا شخصيا نأى بها عن وظيفتها العامة، وحولها إلى أخوية مغلقة يعرف لغتها وآليات تسييرها نفر من الأشخاص، السريين غالبا، الذين يعملون في أجواء سردابية، فلا يعرفهم أحد ولا يكترثون من جانبهم بأحد، استولوا على كل ما هو خاص بالمجتمع والدولة من ثروة ومعرفة، وقوة وسخروه لمصالحهم الشخصية، فأفرغوا وطنهم من قوته وغربوا شعبهم عن شؤونه العامة، دون أن يحموه أو يخوضوا ولو معركة واحدة ناجحة من أجله، بل أنهم استغلوا الأخطار الخارجية المحدقة به ليوجهوا رأس حربتها ضد مجتمعهم، الذي اعتبروه الخطر الرئيس عليهم، فخاضوا ضده معارك متواصلة جندوا لها ما لم يكن قد تبدد بعد من طاقات «بلادهم» التي غدت ساحة حربين: واحدة سرية وأخرى معلنة، أدارتهما السلطة وأدامتهما، ورأت فيهما أداة تستل بواسطتها روح الشعب والمواطن من صدره. إلى أن بلغ الانحطاط والتدهور أشده، ووصلنا إلى ما نحن فيه، حيث أبناء العلقمي في كل دولة وموقع، والأمة مهددة من الداخل مثلما هي مهددة من الخارج، وقد قيدتها نظمها وقيادتها بألف ضعف وقيد أزمة، وأفقدتها أهلية العمل العام والقدرة عليه، بينما



أن أسوأ يقظة هي تلك التي تحدث في الدقائق الخمس الأخيرة من عمر الدول!

تبدو دولة المتسلط عظيمة البهاء، بينما هي كشجرة جوفاء تكفي هبة ريح لكسرها وإلقائها أرضا، كما تبين في بغداد، حيث كانت هذه الشجرة تبدو من الخارج عملاقة وذات جذور ضاربة في الأرض، ثم سقطت من نفخة، بعد أن جعلت العدو أمل قسم كبير من رعاياها، وتحولت هي الى عدو لا سبيل إلى التصالح معه، اعتقدت قطاعات واسعة من العراقيين ان الضرر الذي وقع على يديها أكبر من أي ضرر يمكن أن يأتي على يد الغزاة الأمريكيين، فلم يقاوم المجتمع العراقي خلال الحرب، رغم وعي قسم كبير من أبنائه أن سقوط بغداد الجديد سيكون فاتحة مرحلة جديدة من التاريخ العربي والإقليمي، اسوأ بكثير من المرحلة التي سبقتها ومهدت لها، على كثرة ما كان فيها من سوء وانحطاط.

... واليوم، يطرح هذا الواقع نفسه في شكل معضلة كبرى على النظم العربية التي أنجبته وعاشت الى الأمس القريب عليه وبفضله، ويدفعها الى تقديم تصورات إصلاحية ليس القصد منها إخراج الشعب العربي من الدائرة التي حشرته هي فيها، بل إعادة إنتاج السلطة في شرط دولي جديد بما يجعلها قادرة على الاستمرار عبر التكيف مع سيطرة أميركا على منطقتنا، التي تأخذ شكلا قاسيا باغت النظم وهي في قاع الضعف والعجز، بعد أن أفقدها طابعها الراهن أية رابطة مع داخلها الشعبي والوطني، وأية مناعة في وجه الأخطار، وأية قدرة على ردها، وتاليا على التأقلم مع المحتل الجديد، ووضعها في مواجهة مأزق مزدوج، هو أن الخارج لا يقبل بها في صورتها الحالية، بينما تفتقر هي إلى هوامش مناورة حقيقية تجاهه، وتعجز عن الدفاع عن نفسها إذا لم تستعن بشعوبها، الضعيفة وغير المنظمة أو المعبأة والتي ترفض في الوقت نفسه أن تنجدها، فكأن النظم التي نحرت مجتمعاتها نحرت نفسها بيدها، ذلك أنها اعتبرت نحر مجتمعاتها ضروريا لبقائها، وها هي تتأكد اليوم أنه مقتلها، وأن المجتمعات والشعوب هي الجهة الوحيدة التي تستطيع حماية حكوماتها ونظمها وأوطانها.

ما العمل في وضع كهذا، الإصلاح الرسمي فيه سلطوي، فهو إذن جزئي ومحدود، والإصلاح الوطني الشامل، الذي تقترحه أطياف من المثقفين والأحزاب، مرفوض، بينما تطرح أميركا فكرة التغيير من خلال التكيف الهيكلي مع هيمنتها واحتلالها وما يفرضانه من تبدل يهدد السلطة القائمة وطابعها الأمني والأيديولوجي والمغلق؟ ما العمل وقد سدت السبل من فوق وانعدمت القوى من تحت، وسيطر في لحظة التحول التاريخي عجز النخب، وخاصة الرسمية منها، وضعف المجتمعات؟ هل تكفي المطالبة بالديمقراطية، وحتى إقامة أشكال أولية من النظام الديمقراطي في وقف الانهيار العربي العام والشامل، مع أنه لا خيار غير هذا النظام؟ وأية ديمقراطية يمكن أن نحقق، إذا كان المحتل يلوح بوعد الحرية والديمقراطية ورايتهما، ملقيا شبهة العمالة على الديمقراطيين الوطنيين، ومفبركا ديمقراطيين بدلاء لم يسمع بهم أحد في وطنهم، يريد حملهم إلى أوطانهم على ظهور الدبابات، ليكونوا الغطاء المطلوب لاحتلاله، بينما تؤدي وسياساته هذه إلى وأد الديمقراطية تحت طوفان التطرف الأصولي، الذي كان



بعيدا عن السلطة ومعاديا لها وللبديل الديمقراطي القادم مع العدو، بينما الديمقراطيون الوطنيون ضعفاء لكثرة ما لوحقوا وطوردوا وقمعوا؟. هل يكفي القول بالديمقراطية والدعوة لها لحمل من يقول ويدعو قوة بحسب حسابها وجهة فاعلة هي جزء من البديل، إن لم تكن البديل كله؟ تبدو الديمقراطية في خطاب أنصارها لحل سحري، مع أنها في واقع الحال مشكلة، أقله لأن الداعين إليها أضعف من أن يحصلوا عليها بقواهم الذاتية، ولأن مجتمعاتهم، الجهة الرئيسة التي لها مصلحة فيها، لم تدخل المعركة من أجلها بعد. في حين يعمل الاحتلال على مسخها وتحويلها إلى كائن مشبوه يشبه مصيره مصير الليبرالية التي قتلها لاستعمار الأوروبي في مطالع القرن الماضي - لأنه ربطها بنظامه وبرر بها احتلاله - وتشوه سمعتها أصولية قومية/ إسلامية تعتبرها اختراقا غربيا ثقافيا وسياسيا يراد به القضاء على هويتنا وخصوصيتنا التاريخية ليس إلا، فلا نفع لنا فيها ولا حصانة لنا إن هي قامت عندنا!.

> هل تكفي المطالبة بالديمقراطية، وحتى إقامة أشكال أولية من النظام الديمقراطي في وقف الانهيار العربي العام والشامل؟

الديمقراطية حل ومشكلة. إن كونها حلا لا ينفي أنها مشكلة، وكونها مشكلة لا يعني أنها ليست حلا. لكنها ليست حلا سحريا ولن تكون حلا عمليا - هي إلى اللحظة حل نظري يدخل في باب الأخلاقيات، لأنها مما يجب أن يكون وليست مما هو كائن فعلا وحقا - إلا في شروط ثلاثة:

- أن تحشد قوى داخلية تستطيع إجبار السلطة على التخلي عن الإصلاح السلطوي والقبول بإصلاح وطني شامل تلتقي فيه وعليه مع مجتمعها وشعبها، من أجل مصالحة وطنية هي الأرضية الضرورة لمقاومة المحتلين والغزاة.

- أن تنتزع ورقة الحرية والديمقراطية من أيدي الغزاة الخارجيين، وتحولها ضدهم عبر تحويلها إلى أداة تعبئة داخلية تقوي الدولة والوطن وتحصنهما، وتوقف في الوقت نفسه مسيرة تدهورهما.

- أن تحد من تأثير الأصولية الإسلامية على المجتمع، وتنجح في كسب قطاعات واسعة منه، دون أن تدخل في معركة مع الإسلاميين ككتلة شعبية وازنة أو ضد الإسلام كدين يمتلك طاقات هائلة يستحيل بدونها استنهاض الأمة أو حمياتها.

ليس وضع العرب مقبولا بأي معيار، وليس وضع الديمقراطيين أفضل من وضع غيرهم. والساحة العربية حقل مفتوح على الاحتمالات وخاصة السيئة منها لكن فرسان الديمقراطية سيكونون جديرين بها بقدر ما يظهرون من فطنة وحنكة، ويمارسون من سياسات صائبة، ويقدمون من تضحيات، وينجحون في تحويل يقظة اللحظة الأخيرة، التي أسميتها أسوأ لحظة، إلى لحظة نهوض دائم ومتصاعد هو اليوم حاجة حقيقية للأمة العربية ولشعوبها ومجتمعاتها ودولها. فهل تكون الديمقراطية العربية في مستوى هذا الرهان، وهل تعي فرصه الكبرى ومخاطر خسارته القاتلة؟!

العلاقة الأمريكية الإسرائيلية

من التقاطع إلى التطابق

محمد حسين موسى

ترجع العلاقات الأمريكية الإسرائيلية إلى ما قبل قيام الكيان الصهيوني حيث أدى مؤتمر بالتيمور عام ١٩٤٢ إلى نقل مركز الصهيونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية غير أن هذه العلاقات شهدت مراحل من الهبوط والصعود منذ الخمسينيات حيث قامت أمريكا حفاظا على مصالحها في التدخل لوقف العدوان الثلاثي على مصر غير أن هذه العلاقة ترسخت بعد العدوان الحزيراني عام ١٩٦٧ حيث أصبحت إسرائيل تشكل أهمية استراتيجية بالنسبة لأمريكا.

أحداث ١١ أيلول والعلاقات الأمريكية الإسرائيلية:

بعد هجمات ١١ من أيلول التي ضربت القلب الأمريكي وجد اليمين المتطرف للحزب الجمهوري ضالته بها ليضع أفكاره ومعتقداته على نار حامية هذه الأفكار التي تستند إلى بناء الإمبراطورية العالمية وسحق كل من يقف بوجه تحقيقها وبذلك وجدت إسرائيل بهذه الهجمات ويهنا اليمين الفرصة الذهبية لتطرح نفسها حليفا بل شريكا لهذا اليمين تحت عنوان (مكافحة الإرهاب) يقول غازي ل. بوور في كلمته أمام مؤتمر إيباك عام ٢٠٠٣ (أيها الأصدقاء إذا كان لا بد من أن يعلو شأن إسرائيل وأمريكيا فمن الضروري أن نعرف العدو الذي نواجهه والإرهابيون الذين نفذو هجمات ١١ أيلول لم يكونوا صانعي جورج بوش ولا نتاج سياسة أمريكية فاشلة. ومنفذو الجرائم الجماعية الذين فجروا أنفسهم وهو يبتسمون في إسرائيل لم يكونوا صنيعة شارون أو الفقر. هؤلاء القتلى هم أبناء فكرة عقيدة الجهاد الراديكالية).

وفي السياق نفسه يقول وزير خارجية إسرائيل/سلفان شالوم في (مؤتمر الإيباك) لطالما كانت إسرائيل وأمريكيا متضامنتين في حمل قيمهما المشتركة ولسوء الحظ أصبحنا بعد ١١ أيلول ملتزمين أيضا بحماية مدنيينا على الجبهتين الداخليتين وفي صحيفة هآرتس كتب/الوف بن/ مقالا بعنوان «نظرية ٢٠٠٣» يقول: أن نظرية ٢٠٠٣ ترتكز على الاقتناع العميق بأن الولايات المتحدة تنوي تغيير الوضع الراهن في المنطقة بالقوة وإسقاط أو زعزعة الأنظمة المعادية لإسرائيل في السلطة الفلسطينية، وسوريا، وإيران ونتيجة هذا التصور هناك اعتقادان:

أولا: حظر تقديم أي مبادرة سياسية أو مرونة أو تنازلات من قبل إسرائيل. إلى أن يشعر العرب بوضع الهراوة الأمريكية ويسارعون إلى الاستسلام.

ثانيا: أن الولايات المتحدة ستضفي الشرعية على جهود إسرائيل القائمة على القوة، أن الاستراتيجية الأمريكية في عهد المحافظين الجدد أو اليمين المسيحي في الشرق الأوسط تقوم على نظرية حماية أمن إسرائيل ومركزية دورها في المنطقة، غير أن هذه الاستراتيجية لم يكتب لها النجاح حتى هذه اللحظة وقد دخلت في طور الأزمة بسبب:

أ - عدم قدرة إسرائيل - رغم كل المجازر والحصار - على إنهاء الانتفاضة والمقاومة.

ب- عدم قدرة الولايات المتحدة على هضم وترتيب الأوضاع العراقية بسبب تصاعد المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي.

ج- الممانعة السياسية السورية اللبنانية للتوجهات الأمريكية الإسرائيلية في المنطقة.

نماذج من التطابق الإسرائيلي الأمريكي للوضع العربي:

لم يشهد تاريخ العلاقات الأمريكية الإسرائيلية هذا التطابق في النظرة والمواقف لمجمل الوضع العربي والإسلامي كما هو حال الإدارة اليمينية الأمريكية واليمين الإسرائيلي بذلك وصف السيد فاروق الشرع وزير الخارجية السوري الإدارة الأمريكية الحالية بأنها أسوء الإدارات نظرة إلى القضايا العربية والإسلامية فمثلا قانون محاسبة سوريا الذي كان مطروحا أيام الإدارات السابقة ولم يتم التصويت عليه اليوم يصوت عليه بالإجماع ويباركه الرئيس بوش وتؤيده بحرارة إسرائيل.

- العدوان على سوريا هو دفاع مشروع عن النفس في نظر الأمريكيين والإسرائيليين.

- الجدار الفاصل التي كانت بعض الرموز في الإدارة الأمريكية تنتقده تشهر أمريكا حق النقض الفيتو في وجه قرار من مجلس الأمن.

- المقاومة العراقية والمقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية هؤلاء عصابات إرهابية حسب المفهوم الإسرائيلي والأمريكي.

- ياسر عرفات رجل إرهابي ويجب إزاحته من المسرح السياسي لأنه عقبة في وجه السلام.

- الدول العربية تفتقر للديمقراطية لأنها تقيم علاقات دبلوماسية واقتصادية مع الكيان الصهيوني، لذلك لا بد من تغيير هذه النظم لتصبح أكثر مطواعة للحلول الإسرائيلية.

هذه بعض النماذج القليلة من هذا التطابق الأمريكي الإسرائيلي لم توصل بعض الحكام العرب إلى قناعة بأن الإدارة الأمريكية الحالية تتبنى وبالكامل الموقف الإسرائيلي من مختلف القضايا لذلك فهم يأملون من واشنطن أن تنتهج سياسة أكثر اعتدالا وكأن هذه الإدارة معتدلة.

إن الصفات التي يوجهها اليمين المسيحي في أمريكا واليمين الإسرائيلي إلى الأمة العربية والإسلامية ليس مردها قوة هؤلاء، بل بسبب حالة الضعف، والوهن التي أصابت الأمة العربية والإسلامية كما قال/مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا الأسبق.

العلاقة الأمريكية - الإسرائيلية وإمكانية إضعافها:

إن لدى العرب والمسلمين إمكانيات هائلة للتأثير على العلاقة الاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية. كأمريكا بحاجة إلى العرب والمسلمين وليس العكس (سوق النفط - مواد خام - موقع جغرافي). والذي يحير بعض المحللين هو حتى الغربيين منهم سؤال يطرح وعلى مدار سنوات عديدة، هو أن أمريكا مستفيدة جدا من العالم العربي والإسلامي على كافة الصعد، بينما تشكل إسرائيل عبئا اقتصاديا عليها ومع ذلك نجد هذه العلاقة الاستراتيجية معها على حساب العرب والمسلمين الذين يقدمون كل شيء للولايات المتحدة ولا يحصلون على شيء. هل لأن العرب لا يعرفون مبدأ المقايضة، أم أنهم مسلوبو الإرادة السياسية، أم أنهم يخشون على أنفسهم من بطش الولايات المتحدة، أم أن هناك خطأ في التقدير السياسي من قبل الكتاب والمحللين السياسيين الذين يطرحون مثل هذه الأسئلة لذلك فهم بحاجة إلى إعادة تأهيل في مجال كيفية قراءة العلاقات الدولية بشكل جيد؟ سؤال كبير يحير كل المثقفين والمحللين نحيله إلى الشارع العربي علّه يجد إجابة شافية له.

ديمقراطية أمريكا
والأبعاد الحقيقية لاحتلال العراق وتهديد سورية

د. منير الحمش

تتلخص نظرة الولايات المتحدة الأمريكية نحو (الآخر) في هذه هي المعادلة التي صاغتها الجماعة اليمينية المحافظة في الولايات المتحدة، لينطق بها رئيسها.. الذي نصب نفسه (حاكماً) على العالم، بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى.. هذه المعادلة هي: «أنت مع أمريكا... إذن أنت ديمقراطي! أنت ممانع للهيمنة الأمريكية.. إذن أنت إرهابي»! أعلن بوش عن ثورته «الديمقراطية العالمية»، مما يعني ترجمة سياسية وعملية لأهداف «إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي»، وتبنى «استراتيجية مستقبلية للحرية في الشرق الأوسط» تبدأ من العراق تحت حراب «الاستعمار الجديد» فيكون نجاح ديمقراطية بوش في العراق بشرى لشعوب العالم أجمع «بأن الحرية يمكن أن تكون مستقبل كل دولة».

وكما بشر ريغان عام ١٩٨٢ بأن «نقطة التحول في التاريخ قد أزفت، وأن الاتحاد السوفياتي قد فشل لسبب رئيسي وهو أنه لم يحترم شعبه وإبداعه وعبقريته وحقوقه، وكما اختلق عدواً سماه (الشيطان الأكبر). كذلك يفعل الآن بوش، فيوزع الاتهامات والانذارات والمكافآت وهاهو يختلق عدواً جديداً هو (الإرهاب) فبعد أن تبين كذبه بشأن الأسباب الحقيقية لغزو العراق واحتلاله، هاهو اليوم يعلن أن الحرب ضد العراق واحتلاله لها ما يبررها، وسيجعله نموذجاً ديمقراطياً يحتذى به، وهو يعرف أن بناء الديمقراطية مهمة صعبة وضخمة، لكن فشل الديمقراطية العراقية كما يقول بوش «سيقوي الإرهابيين في أنحاء العالم، ويزيد الأخطار على الشعب الأمريكي، ويطفئ الأمل لدى الملايين في المنطقة. إن الديمقراطية العراقية ستنجح وهذا النجاح سيزف الأنباء من دمشق إلى طهران بأن الحرية يمكن أن تكون مستقبل كل أمة..» كما يقول، دون أن يبين للعالم ماهي هذه الحرية التي يبشر بها، والتي ستنبثق من تدمير بنية الدولة العراقية ومن بين جثث الأطفال والشيوخ ودماء العراقيين! وما هي الديمقراطية التي ستقام بعد اقتلاع أشجار النخيل وزرع والخوف والرعب بين صفوف أبناء شعب العراق؟!

ما هي هذه الحرية وما هي هذه الديمقراطية التي (يهدد) بوش بها العالم. ويهدد بها سورية وايران بوجه خاص؟

أعتقد أن شعاري (الديمقراطية) و(الحرية) الذين يرفعهما الرئيس الأمريكي. ما هما إلا كذبة أخرى، تدعو إلى السخرية والاستهجان. فمتى كانت الولايات المتحدة مع الديمقراطية الحقيقية أو الحرية الحقيقية؟!

إن تاريخ الولايات المتحدة، منذ وطأ الأوربيون أرض أمريكا، تاريخ أسود ابتداء من إبادة السكان الأصليين، إلى احتلال الفليبين وغيرها من الجزر وحتى فيتنام مرورا بإقامة «إسرائيل»، التي اعترف بها (ترومان) بعد دقيقة من اعلانها الرسمي، وأعتبرها «ذخرا عسكريا قيما يتوجب إنماؤه برعاية أمريكية». كما قال في حينه.



وإذ يصف بوش كلا من سورية وإيران بأنهما من الدول الديكتاتورية، ينسى أو يتناسى، أن الولايات المتحدة قضت على الديمقراطية في سورية عندما دفعت (حسني الزعيم) إلى القيام بأول انقلاب عسكري في سورية عام ١٩٤٩ واسقط به النظام الديمقراطي الذي كان قائما، ذلك الانقلاب الذي قاد إلى مجموعة من الانقلابات العسكرية التي زعزعت استقرار سورية والمنطقة العربية فيما بعد.

وهو ينسى أو يتناسى أن (دولته الديمقراطية) هي التي ساعدت بريطانيا بالانقلاب على رئيس الحكومة الإيرانية المنتخب محمد مصدق عام ١٩٥٣ ، وأعادت تنصيب الشاه (الديمقراطي) الذي أصبح العوبة في يدها. بعد أن جلس على العرش معترفا للمخابرات الأمريكية بفضلها عليه حيث قال لكرميت روزفلت - رجل المخابرات الأمريكية الذي رتب الانقلاب - «إني مدين بعرشي لله ولشعبي ولجيشي ولك، هذا هو نمط الحكم الديمقراطي الذي تريده الولايات المتحدة ويبشر به (بوش). فمن يأتي من الحكام عن هذا الطريق فهو (ديمقراطي) ومن يقف إلى جانب شعبه ويدافع عن حريته (ديكتاتوري) وغير ديمقراطي!

لقد وقفت الإدارة الأمريكية، ضد شعوب العالم بأسرها في حربها ضد العراق . واحتلته بقوة السلاح ضاربة عرض الحائط بالشرعية الدولية والقانون الدولي، فقتلت حتى الآن اكثر من عشرين ألف عراقي، وأعطبت حوالي ثلاثين ألف عراقي جريح، وزجت بأكثر من خمسة آلاف أسير في معتقلات لا تتوفر فيها أدنى الشروط الإنسانية. بعد أن أحكمت حصارا ظالما دام ثلاثة عشر سنة، وأدى إلى وفاة حوالي مليون من العراقيين جلهم من الأطفال.

هذه هي ديمقراطية بوش التي يبشر العالم بها، إنها ديمقراطية القتل والتدمير والإفناء الذي يطال الأرض والعمران والشجر والبشر. ديمقراطية نشهد نموذجها (الحر) في فلسطين وعليها توقيع (شارون)، كما شهدناها في العراق وعليها توقيع (بوش) وهما نموذجان ممسوخان لما فعله النازيون بتوقيع (هتلر) في أوروبا. ذلك أن ما يحرك هذه (الديمقراطيات) هو الحقد على البشرية، والاستهتار بالبشر. وعدم الاكتراث بحقوق الإنسان والشرعية الدولية، والتعطش للدم. تحقيقا لمصالحهما، وتنفيذاً لمخططاتهما الإجرامية، التي يدعي بوش أن الله يريده أن يحققها. فقد اصبح مهووسا بالحديث عما كلفه به الله (كمسيحي متجدد) وينقل عنه الكاتب المبشر «جيمس روبنسون، قوله له عندما قرر خوض انتخابات الرئاسة: «أشعر بأن الله يريد



مني أن أخوض معركة الرئاسة. لا أعرف كيف أتفسر هذا، ولكن اشعر بان بلادي ستحتاج إلي، سيحدث شيء وأعرف أن الأمر لن يكون سهلاً.. علي أو على أسرتي ولكن الله يريد مني أن أفعل ذلك»!!

نعود إلى الدعوة التبشيرية التي يحملها بوش تحت عنوان «الحريات والديمقراطية»، والتي تختصر التحول في الاستراتيجية الأمريكية من عقيدة (الاحتواء) التي تبناها وزير الخارجية الأسبق (فوستر دالاس) والتي سيطرت على مجمل السياسات الأمريكية. في عهد ايزنهاور. حيث تم التحول في زمن بوش إلى «الحرب الاستباقية»، أو حتى «الحرب الوقائية»، لفرض «الديمقراطية الأمريكية» بالقوة العسكرية. تنفيذاً للتوجيه الإلهي ولإستراتيجية الأمن القومي الأمريكي. فهذه الدعوة (حسب بوش) لها خمسة أبعاد:

البعد الأول: هو بعد استراتيجي. يتمثل في الاعتقاد بأن «الحريات هي الضمانة للأمن والتنمية المستدامة».

البعد الثاني: هو بعد تاريخي. يستعيد خطاب ريغن عام ١٩٨٢ الذي تنبأ به بسقوط النظام الشيوعي، أمام وحدانية السوق وانفراد القطب الأمريكي بالقوة.

البعد الثالث: البعد الجغرافي. حيث ستنتقل (الديمقراطية) التي ستحل في العراق إلى باقي شعوب الشرق الأوسط وستشع خيرا ونماء وتحديثا على جميع دول المنطقة.

البعد الرابع: اقتصادي فالأمن الذي سيتحقق في المنطقة هو الذي يوفر مناخ النمو الاقتصادي.

اما البعد الخامس فهو بعد فلسفي حيث يمزج الرئيس الأمريكي بين الفكر الحديث للعولمة الذي رفع الحرية إلى مستوى أعلى قيمة من قبل الإنسان كشرط أساسي للاندماج فيها، وبين الحرية كحق طبيعي للانسان، اعترفت به جميع الشرائع والأديان.

لكن في الواقع فإن «الاستراتيجية الأمريكية» تمثل «الاستراتيجية الإمبريالية العظمى» الجديدة، وتهدف إلى حماية قوة ومصالح الولايات المتحدة، وتقوم على انفرادها بقيادة العالم وفقا لهذا التوجه، دونما أي اعتبار للآخرين، أو للشرعية الدولية. في محاولة لفرض النظام العالمي الجديد وحيد القطب، بالقوة العسكرية. وتحت إدعاءات الأبعاد الخمسة التي يروج لها على سبيل ذر الرماد في العيون.

ويحاول الرئيس الأمريكي بوش، أن يوهمنا بأن هناك تغيراً في الاستراتيجية الأمريكية تجاه الأنظمة الديمقراطية والأنظمة الديكتاتورية. وأن هذا التغير هو في المضمون والجوهر، وليس في الشكل. وهذا طبعا غير صحيح، تكشف عنه وقائع الممارسات اليومية للأمريكان.

فهو إذ يعترف بأن الولايات المتحدة أخطأت في تعاملها مع الأنظمة في العالم على مدى اكثر من ٦٠ سنة. عندما دعمت الأنظمة الديكتاتورية من أجل مصالحها على المدى القصير. حيث استطاعت بتحالفها مع أنظمة غير ديمقراطية ضد أعدائها، (تلك التحالفات امتدت من شرق آسيا إلى أمريكا اللاتينية مروراً بالشرق الأوسط وإفريقيا وحتى جنوب أوروبا) استطاعت بهذه التحالفات أن تخدم معاركها السياسية والعسكرية والاقتصادية والأيدلوجية على المدى القصير، إذا كان الأمر كذلك، فإن بوش يعترف أيضاً أن هذه الأنظمة «فشلت في تأمين مصالحها على المدى البعيد، وأخفقت في تحفيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لشعوبها، وخاضت حروباً محلية عبثية، مما أدى إلى انتشار الفقر والتخلف وبالتالي الإرهاب في العالم».

ويعتقد بوش أن الأنظمة الديمقراطية هي «الضمان الأساسي لمنع انتشار الإرهاب

الحروب»، وهي بالتالي الحليف الطبيعي للولايات المتحدة لأنها (خلقت على شاكلتها) لهذا فهو يعلن أن هدف السياسة الأمريكية الأول هو «نشر مفاهيم الحرية وإقامة أنظمة سياسية ديمقراطية في مختلف دول العالم»!

إن الاستراتيجية الأمريكية الجديدة التي تعتمد، على نحو رئيسي، مفاهيم اليمين الأمريكي المتطرف المتحالف مع المسيحية الصهيونية واللوبي الصهيوني، اضافة إلى خلفياتها اليمينية والليبرالية الجديدة، وإضافة إلى الخلفية الدينية المتطرفة، فإن لها ابعادا استراتيجية تعتمد على نظرية «نهاية التاريخ» التي وضعها (فوكوياما) المفكر الأمريكي الياباني الأصل. الذي اعتبر أن التاريخ البشري يتجه إلى حتمية واحدة هي «إقامة أنظمة ديمقراطية ليبرالية في جميع المجتمعات والأمم». وهنا نجد أن بوش قد استلهم من فكر فوكوياما «فكرة الحتمية التاريخية» حيث أن بوش يعتقد أن الديمقراطية تنتشر في العالم على حساب الأنظمة التوتاليتارية منذ عام ١٩٧٠، الأمر الذي يلتقي مع فوكوياما في مقولته بأن المسار التاريخي سينتهي حتميا «بإقامة انظمة ديمقراطية ليبرالية في جميع دول العالم».

وإذ يرى بوش أن نشر الديمقراطية والحرية في العالم، سيؤدي في النهاية إلى القضاء على الحروب والإرهاب. كما سيؤدي إلى الاستقرار في العالم. فإنه يعتمد الجزء الثاني من نظرية (فوكوياما) والتي مفادها أن الديمقراطيات (لا تتحارب) في ما بينها.

إن دعوة بوش الديمقراطية، فيها من النفاق بقدر ما فيها من الكذب. وإذا كان كذبه المتواصل على شعب الولايات المتحدة قد لقي تجاوبا (لا نراه سيدوم) فقد كشف الرأي العام العالمي، هذا الكذب والتمويه الذي تمثل في تلك المظاهرات والاحتجاجات التي واجهته في لندن معبرة عن رفضها لمنطقه العسكري التوسعي المهيمن.

وإذا كان الرأي العام الأمريكي بدأ يتلمس كذب بوش حول مبررات حربه ضد العراق واحتلاله التي تمثلت في مرحلة الاعداد للحرب، والحرب ذاتها، والأيام الأولى من الاحتلال في إزالة أسلحة الدمار الشامل، ثم في تطور آخر إزالة نظام صدام (الديكتاتوري) ثم في مرحلة لاحقة (اجتثاث البعث) إذا كانت هذه المبررات قد تبين زيفها، فقد ابتدعت الآلية الإعلامية، شعار الديمقراطية (الشعبوي) المحبب إلى نفوس الرأي العام، ناسيا ومتناسيا أن الديمقراطية لا تستورد ولا تفرض بقوة السلاح. وأن كل ما يريده بوش من طرح الديمقراطية كشعار، إنما يستهدف تغطية خطته التوسعية التي تلتقي مع برنامج الحركة الصهيونية. ذلك أن ديمقراطية بوش التي يريد تطبيقها في العراق لا تختلف عن (الديمقراطية الدموية) التي يطبقها الكيان الصهيوني على شعب فلسطين. بينما الديمقراطية التي تحتاجها الشعوب، هي النظام الذي ينبع من صميم مجتمعاتها ويعبر عن احتياجاتها ويضمن تفتح إمكانياتها ويفسح المجال لممارسة هوياتها السياسية والاجتماعية والثقافية.

وهنا يقع على المثقفين العرب مسؤولية الكشف عن محاولات تزييف وعي الناس باستغلال مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، من أجل تحقيق أهداف بوش العدوانية الشريرة. والتأكيد على أن ما يجري طرحه من شعارات ما هو إلا محاولة لإخفاء حقيقة العدوان على العراق وأسباب احتلاله من جهة، ولتمرير المخطط الأمريكي الصهيوني في المنطقة العربية من جهة ثانية. ومن أجل فرض جدول أعمال (الجماعة اليمينية المحافظة المتحالفة مع الصهيونية) في السيطرة على العالم.

إن النوايا الحقيقية للولايات المتحدة في مرحلتها الراهنة، لم تعد خافية على أحد، وقد تجلت تلك النوايا في ما يدعى «قانون محاسبة سورية» الذي أقره مجلس النواب والكونغرس الأمريكي. والذي سيستخدم سيفا مسلطا جديدا على سورية التي تراها حجرة عثرة وممانعة لمخططاتها الإجرامية وللممارسات الإسرائيلية التوسعية الشرسة.

وسورية ليست جديدة في المخططات الأمريكية، فمنذ الخمسينيات من القرن الماضي وهي تتعرض للمؤامرات الأمريكية، كما كانت حقلا للصراعات الدولية التي كانت الولايات المتحدة طرفا فيها.

والسبب أن سورية كانت - ولا تزال- ترفع شعارات القومية العربية. التي رأى فيها ايزنهاور (الرئيس الأمريكي) في ذلك الوقت ووزير خارجيته دالاس، تهديدا للمصالح الأمريكية. لهذا فقد أكد على :

- منع وصول (المغالين) في وطنيتهم للحكم.
- فإذا ما وصلوا إلى الحكم، بطريقة أو أخرى، فيتحتم عزلهم، وتنصيب حكومات موالية أو معتدلة.

وكان ذلك يجري بالمؤامرات، وترتيب الإنقلابات والإغتيالات، أما اليوم فإن ذلك يجري على المكشوف بالقوة العسكرية. والمغالاة بالوطنية في نظر الساسة الأمريكان، هي التمسك بأهداف الوطن، والوقوف ضد الإستغلال والتبعية والإلحاق. لذا فقد كان تاريخ الولايات المتحدة في علاقاتها الخارجية تاريخا ملطخا بالانقلابات العسكرية والمؤامرات. ومن تنتهي مهمته من (الجنرالات) الذين تنصبهم، سرعان ما تنقلب عليه ليحل جنرال آخر محله. ومن لا يقبل بالهيمنة الأمريكية في زمن (عسكرة العولمة)، ينبغي عزله، ومن لا يقبل العزل (مدنيا) فالقوات الأمريكية (المرتزقة) جاهزة لتتولى أمره.

في الخمسينات من القرن الماضي، عندما كانت سورية (بجميع أطيافها السياسية) تقف في وجه السياسة الأمريكية العدوانية، وضد العدوان الإسرائيلي كانت الإدارة الأمريكية تتهمها بأنها موالية للاتحاد السوفياتي، وبأنها ستتحول إلى الشيوعية. واتهمت حزب البعث العربي الاشتراكي (الذي اخترقته الشيوعية كما تؤكد تقارير المخابرات الأمريكية) بأنه مسؤول عن تقوية اتجاه سورية القومي العربي وتوجهها في التمسك بالقومية العربية والحياد الإيجابي.

إن التمسك بالقومية العربية، والحياد الإيجابي في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، كانت تعتبره الولايات المتحدة موالاة للاتحاد السوفياتي والشيوعية. وقد أصرت الإدارة الأمريكية على اعتبار ذلك تهديدا (لأمن) الولايات المتحدة ومصالحها!!

أما الآن فإن القومية العربية (والإسلام) بنظر الإدارة الأمريكية، هما الإرهاب، ويهددان أيضا (أمن) الولايات المتحدة ومصالحها. وكما أرادت في الماضي، اقحام العالم كله ضد الشيوعية، فإنها اليوم تقحم العالم كله في حربها الطويلة ضد (الإرهاب).

وكما طرح/ايزنهاور في الخمسينيات مشروعه الذي دعي في ذلك الوقت (مبدأ ايزنهاور) لإملاء الفراغ، ليحل النفوذ الأمريكي مكان النفوذ الأوربي في مواجهة الاتحاد السوفياتي، كذلك يطرح اليوم بوش مشروعه (الديمقراطي) وفي إقامة شراكة أمريكية بين الولايات المتحدة و ٢٣ دولة في المنطقة (٢٢ دولة عربية + إسرائيل).

والفرق في الحالتين، أن الادارة الأمريكية كانت ترتب الانقلابات العسكرية لتغيير الأنظمة، أما اليوم، فالقوة العسكرية السافرة مكلفة بإجراء التغيير المطلوب.

وقد استخدمت الولايات المتحدة في الخمسينات تركيا، لفرض هيمنتها على القرار السوري والعربي عموما، أما اليوم فهي تستخدم إسرائيل، إضافة للتهديدات المباشرة.

والوضع اليوم يختلف عن ايام الخمسينات:

- فقد كان هناك الاتحاد السوفياتي الذي لم يكن يقبل بالعدوان على سورية.
- وكان هناك الموقف العربي، «مصر عبد الناصر».. وحتى السعودية حيث أكد ولي عهدها (الأمير فيصل) في ذلك الوقت لوزير خارجية أمريكا/دالاس بأن «العربية السعودية تتمتع

بروابط وثيقة مع سورية، وان أي تهديد لامنها يعتبر تهديدا للسعودية بالذات.

- والاهم كان هناك وحدة وطنية سورية مدعومة بشارع عربي فعال.

وقد تراجعت الولايات المتحدة عن تهديد سورية، عندما لم تجد لنفسها حلفاء. وعندما وجد ايزنهاور أن العمليات المنفردة (صعبة جدا).

واليوم، لماذا لا تواجه التهديدات الأمريكية لسورية بمثل هذا الموقف الذي يجعل الولايات المتحدة تتراجع عن تهديداتها؟!

ولماذا استطاعت الولايات المتحدة ان تنفذ تهديداتها ضد العراق وتحتله، وتستمر في غيها وتنتقل إلى تهديد سورية؟

والجواب المباشر لهذين السؤالين، هو بالدرجة الأولى استفراد الولايات المتحدة كقطب وحيد في فرض قيادتها للنظام العالمي، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.

ولكن بالدرجة الثانية، ضعف وهشاشة النظام العربي الاقليمي، وفقدان الأنظمة العربية لمصداقيتها:

- مصر الدولة العربية الكبرى.. خرجت من معادلة الصراع العربي - الصهيوني، وبالتالي الأمريكي، وقد بلغت من الضعف الذي لا يسمح لها بممانعة حقيقية للمخطط الأمريكي/ الصهيوني.

- السعودية بالأساس تقع في إطار الهيمنة الأمريكية، وقد خلقت لها من المتاعب الداخلية ما يجعلها تخرج من أية مواجهة مع الولايات المتحدة.

- وباقي الدول العربية، حدث ولا حرج، فالدولة التي ليس فيها قواعد عسكرية أمريكية، تشكل قواعد انطلاق لأي عدوان فقد نصبت فيها أنظمة حكم موالية للولايات المتحدة.

- أما الشارع العربي فهو في حالة إحباط وغيبوبة كاملة، أرهقه الفقر والاستعباد والظلم.

وكان يمكن أن تتمادى الولايات المتحدة باستخدام القوة العسكرية ضد سورية بعد احتلال العراق، لكنها على ما أعتقد احجمت عن ذلك لثلاثة أسباب:

الأول: لم تجد في سورية (معارضة) كالمعارضة العراقية والأفغانية، تدخل معها محمولة على الدبابات والمروحيات. فالشعب في سورية محصن بوطنيته وقوميته. وهما حصنان عصيي المنال.

والثاني: لم تجد من بين حلفائها من يقف معها في العدوان على سورية (بعد المستنقع العراقي الذي انزلقت إليه) ولم تجد من المبررات ما يمكن أن يجر معها دولا أخرى خاصة بريطانيا المحنكة سياسيا، وإسبانيا الحائرة بين انتمائها الأوربي، وتطلعاتها إلى ما وراء الأطلسي.

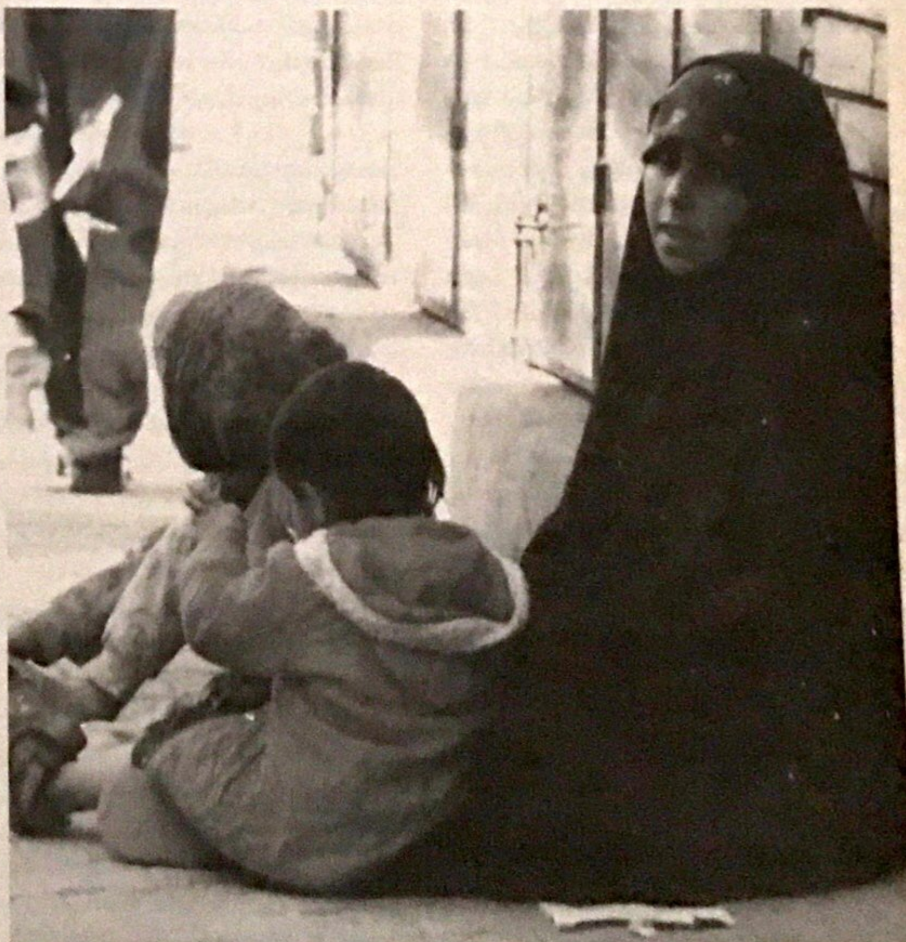
أما السبب الثالث فهو تصاعد المقاومة العراقية، التي خلقت اوضاعا مستجدة في مواجهة الاحتلال الأمريكي لم تكن على استعداد لمواجهته. واليوم فإنها تواجه المقاومة بالمزيد من أعمال العنف والتدمير والشراسة المعهودة لدى الجيوش المرتزقة.

لهذا نجد مساعد وزير الخارجية الأمريكي (ارميتاج) يقول: «إنَّ الولايات المتحدة قضت على (البعث العراقي) بالقوة، وعلى بعث سورية أنْ يغير نفسه»، ويغير نفسه لا تعني تنفيذ مطالب الولايات المتحدة في قطع سورية أي علاقة لها بالانتفاضة الفلسطينية والمقاومة العراقية وقبول شروط السلام الصهيونية فحسب، وإنما أيضا في أنْ تتحول سورية إلى أداة بيد الولايات المتحدة من اجل إقرار (النظام) في العراق والقضاء على المقاومة العراقية على نحو عملي، وليس فقط قبول خارطة الطريق، إنما أيضا الإسهام في فرضها على شعب فلسطين. والولايات المتحدة تريد أيضا، القضاء على المقاومة اللبنانية، ونزع سلاح حزب الله، دون أن تدرك معنى ذلك، فبهذا السلاح تم تحرير جنوب لبنان، وبه يتحصن لبنان وسورية في مواجهة العدوان الإسرائيلي المستمر.

فإن قبلت سورية بهذا الدور، فإنها ستكون ديمقراطية، وان رفضت فهي إرهابية وتدعم الإرهاب!!..

وعدم قبول سورية بهذا الدور، ليس فقط لأنها تتمسك بوطنيتها وقوميتها، وإنما أيضا لأنها تحافظ على تراثها النضالي وتعمل على التمسك بحقها في الحياة، وحقها في حفظ حقوق الأجيال المقبلة، ولأنها تكره الظلم والظالمين، وتناضل من أجل حقوقها وسيادتها، وتحرير أرضها.

هذا إلى جانب، أنها تعلم علم اليقين، أنّ تنفيذ مطالب الولايات المتحدة، ليس له من نهاية، فكلما نفذ مطلب ظهرت مطالب جديدة، والولايات المتحدة تظل غير راضية ما لم يتم الاستسلام النهائي. وسورية تعلم أنّ إرضاء الولايات المتحدة اصعب بكثير من إغضابها. ولا تستطيع سورية أن تقول (فلتغضب أمريكا، ولن ننفذ مطالبها) لأن ذلك يعني أنّ أمريكا لن تتورع عن العدوان، إن لم يكن على نحو مباشر، فعن طريق غير مباشر، وإسرائيل جاهزة. وان كانت واقعة الآن في الحرج الذي تشكله لها الانتفاضة.



فالعدوان على سورية يشكل أحد خياراتها للهروب إلى الأمام.

وإذا كانت جميع الاحتمالات مفتوحة، فإننا نعتقد أن العدوان على سورية، سواء كان مباشرا بالقوة العسكرية الأمريكية أو غير مباشر عن طريق القوة العسكرية الإسرائيلية، فإنه سيدخل الولايات المتحدة في نفق جديد لا مخرج منه، فعدا عن مقاومة جيش سورية العريق بتقاليده النضالية، فإن العدو سيلتقي خلف كل بيت، وكل شجرة، وفي كل شارع وزقاق، وفي البوادي السورية وسواحلها، مقاومة يحتضنها شعب لا يقبل العدوان، ويرفض الظلم، مليئ بالعزة والعنفوان. وسيلقى في ذلك دعم ومساندة الشعب العربي، وجميع الشعوب الحرة في العالم.

وعدا عن ذلك، فإن الولايات المتحدة لن تستطيع إقناع العالم بدوله وشعوبه بأن ثمة مبررا لعدوانها، فالجميع يعلم أن لا علاقة لسورية بالإرهاب. وأنها عانت اكثر من غيرها منه. وسورية ليس لديها أسلحة دمار شامل، وهي طالبت مرارا بنزع أسلحة الدمار الشامل من المنطقة برمتها. وسورية لا تستطيع إلا أن تكون مع القضية الفلسطينية وضد العدوان الإسرائيلي المستمر. لان القضية الفلسطينية - تاريخيا - هي القضية المركزية لسورية، لا بل يفترض انها كذلك لكل العرب. وسورية لا تستطيع أن تتنكر للمقاومة الوطنية الإسلامية في لبنان، ولا لدورها الوطني والقومي.

لهذا لا يمكن لسورية أن تقف مكتوفة الأيدي أمام العدوان اليومي المستمر على ابناء فلسطين، وإذ يتعذر عليها تقديم العون المادي (العسكري) لأسباب عديدة (ترضي أمريكا والصهيونية)، لكنها لا يمكن إلا أن تظل بمشاعرها مع الانتفاضة. كما لا تستطع منع شعبها من التعاطف مع الانتفاضة.

وسورية لا يمكن إلا أن تكون ضد احتلال العراق، ومع وحدة واستقلال التراب العراقي.

وهي أيضا ولأسباب عديدة، لا تستطيع أن تدعم «المقاومة العراقية، ماديا (عسكريا) ولا تستطيع أن تفتح حدودها أمام المتطوعين العرب لدعم المقاومة (وهذا ما يرضي امريكا ايضا) ولكن الشعب لا يمكن (إلا أن يكون (بعواطفه) مع المقاومة العراقية. وهذا أمر لا تستطيع سورية (الحكومة) أن تمنعه..

يبقى السؤال الصعب.. إلى متى تستطيع سورية أن تصمد أمام الضغوط الأمريكية - الصهيونية؟

وإلى أي مدى تذهب الولايات المتحدة في ضغوطها؟

وللإجابة على السؤال الأول فإن الأمر يتعلق، بالدرجة الأولى بالموقف الشعبي - الحكومي، أي بموقف الدولة، بمشاركة حقيقية بين النظام وسائر فئات الشعب. وهذا يتطلب موقفا واضحا من النظام يمتاز بالشفافية والوضوح، مدعوما بموقف شعبي مساندا ومعبرا عن الاجماع الشعبي الذي يرفض التهديد ويقف بحزم ضد المخطط الأمريكي / الصهيوني. وان تأخذ هذه المساندة والمشاركة أشكالها المؤسساتية، وتبرز واقعا حيا على الأرض. واعيا للمخاطر التي تحيط بالأمة العربية بأجمعها، واعيا بالمتغيرات في البيئة الدولية، مقدرا ذلك حق قدره، دون تهويل او خوف، ودون استهانة او استخفاف.

هذا الموقف الذي سوف يفرض احترامه على الجميع سيكتسب قوة أكبر كلما ازداد الموقف تماسكا وهو الذي يجيب على السؤال الثاني.

لقد جاءت الولايات المتحدة، بعساكرها المدججين بآخر ما توصلت إليه مصانعها من اسلحة متطورة ومدمرة إلى العراق، وهي تهدد وتتوعد غير العراق وإلى ابعد من البلدان المجاورة للعراق. جاءت وتحملت أعباء حضورها (المادية والمعنوية)، وغامرت بسمعتها الداخلية والخارجية، ووضعت استراتيجيتها على المحك .. جاءت لا لتنسحب بعد أشهر نتيجة للمقاومة العراقية، وبسبب الرأي العام العالمي، أو بسبب موقف الدول المعارضة.

جاءت الولايات المتحدة ومعها جدول أعمال محدد، لتنفيذ استراتيجية محددة، تعبر عن مصالح محددة، وهي لا شك تمتلك من الوسائل. (المادية والعسكرية) المساعدة على التنفيذ، بل والقادرة على فرض استراتيجيتها بالقوة. لكن من المؤكد أن صمود المقاومة العراقية سوف يجعلها تعيد النظر لا باستراتيجيتها، فحسب، بل في سياساتها اليومية، مما يتيح لسورية فرصة، ولو محدودة، لإعادة ترتيب أوراقها وتمتين وضعها الداخلي، وتحركها الدبلوماسي الخارجي. والمراهنة على المستقبل. وعلى اتساع دائرة (الممانعة) لاستراتيجية الولايات المتحدة ومطامعها ورغبتها المحمومة للسيطرة على العالم. فالولايات المتحدة لا تستطيع أن ترفض إلى الأبد الاستماع إلى اصدقائها، ولا تستطيع أن تسد اذنيها إلى ما لانهاية عن سماع صوت العقل، كما انها لا تستطيع ان تهمل او تحتقر الرأي العام العالمي. او لا تأخذ بموقفه إلى مالا نهاية، لكن ذلك كله يرتبط بموقف الرأي العام الأمريكي نفسه. وهو موقف لا يمكن الاعتداد به أو المراهنة عليه ما لم يشعر أن مصالحه الاقتصادية مهددة. ذلك أن ما يحركه باتجاه التغيير هو الوضع الاقتصادي الداخلي: الضرائب، الأسعار، مستوى المعيشة، معدل النمو الاقتصادي، البورصة والأسهم.

وإدارة بوش تعرف ذلك، لذا فقد اتجهت إلى تحريك الوضع الاقتصادي، والحرب بحد ذاتها تزيد الطلب على الاسلحة والعتاد العسكري الذي من شأنه أن يحرك باقي فروع الاقتصاد. وقد امكن تحقيق معدل نمو اقتصادي أعلى من أي معدل في البلدان الصناعية الغنية التي تمر بمرحلة ركود. لكن ذلك سوف يظل مؤقتا، إذ ستزداد الأعباء وتزداد طلبات زيادة الاعتمادات وستزداد صعوبات الحصول على موافقة السلطة التشريعية، بسبب الانتخابات وارتباط ذلك بالضرائب والرأي العام الداخلي وصندوق الانتخاب.

لا أقول إن الصعوبات المالية التي ستواجه الإدارة الأمريكية، قادرة على التأثير على قراراتها إلى حد يجعلها تغير استراتيجيتها، وإنما مما لا شك فيه أن إرضاء الناخب الأمريكي، يشكل حجر الأساس في تقرير السياسات، وليس من سبيل إلى إرضائه، إلا بالنظر إليه كدافع للضرائب بالدرجة الأولى.

من هنا أهمية أن يشعر الناخب الأمريكي أن السياسة الأمريكية وممارسة الإدارة الأمريكية الخارجية، سوف تؤدي إلى ضرر حقيقي بمصالحه الاقتصادية ووضعه المادي. وسوف يتحقق ذلك على نحو افضل بلا شك، فيما لو تظافرت جهود الدول العربية، لتتخذ موقفا (اقتصاديا - سياسيا) موحدا، يمكن أن يؤثر تأثيرا محسوسا على (المصالح) الاقتصادية الأمريكية. ولا شك أن الدول العربية تمتلك من الإمكانات المادية (نفط - تجارة خارجية - اموال - الدولار... الخ) ما تستطيع التأثير فيه على (مصالح) الولايات المتحدة الاقتصادية. فهل من خطوة جدية في هذا الاتجاه ضمن أوضاع تتردى فيه عناصر قوة النظام العربي الإقليمي وتتهاوى ضعفا وهشاشة؟

إذا كانت سورية، لا تستطيع أن تراهن على موقف عربي مساند وقوي لمواقفها، فإن مما لا شك فيه، أن صمود سورية ولبنان والانتفاضة الفلسطينية والمقاومة العراقية، سوف يخلق نوعا من الحرج لدى الأنظمة العربية، ربما يجعلها تعود إلى رشدها، أو إلى بعض منه..

لكن يظل ما هو المؤكد، أن متانة الوضع الداخلي القائمة على وحدة وطنية متينة، تجمع فئات الشعب كافة، هو الضمانة الوحيدة لإفشال المخططات الأمريكية. وهو الكفيل أيضا، بضمان إنجاز المهمات الوطنية الأخرى في تحقيق التنمية الشاملة والتحديث والتطوير، وإزالة العقبات والشوائب في وجه إقامة الديمقراطية السليمة من خلال واقع وظروف البلد وتوجهات شعبه المعطاء.

قضية الديموقراطية في المنطقة العربية

بين المنظور الأمريكي والرؤية الوطنية

أحمد بهاء الدين شعبان

بات من الواضح أن قضية الديمقراطية قد أصبحت هي القضية الأساس التي يجمع عليها الأغلبية الساحقة من العاملين بالحقل العام، والمنشغلين بمستقبل الوطن، وبتوجهات حركته الرئيسة، باعتبارها المدخل الوحيد، والضروري، للتغيير الحقيقي، ولإعادة بناء المجتمع بما يجعله صالحا للتطور، قادرا على المنافسة، في مواجهة التحديات المحيطة، والمخاطر والتهديدات التي تجمعت، وتتجمع، نذر ما في السموات الملبدة، من حولنا.

يمكن الجزم بأن قضية الديمقراطية كانت في صلب البرنامج الوطني والتحرري لشعبنا، على امتداد تاريخه الحديث والمعاصر، منذ أن فرض قادة الرأي (محمد علي) واليا على البلاد، وحتى صيحة أحمد عرابي، في مواجهة الخديوي توفيق: «لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا، ولن نورث أو نستعبد بعد اليوم»، وفي شعارات ثورة ١٩١٩ التي وحدت ما بين مطلبي الاستقلال والدستور، وفي مظاهرات وانقسامات الحركات الطلابية المعاصرة، بل وحتى في ظل التحركات الشعبية واسعة النطاق، بعدها، التي عبرت على طريقتها- عن التشوف العميق للحرية في بلادنا.

وعلى الرغم من عمق هذه التطلعات الديمقراطية في مجتمعنا، إلا انه من المؤكد أن ما أنجز منها- على أرضية الواقع- هو أقل القليل، الذي لا يعد كافيا- بحد ذاته.. لمعالجة الأثار المتراكمة- على مدار- العقود والقرون- من حكم الاستبداد والديكتاتورية وتغييب الرأي الأخر، وحجب الحقوق الشرعية للطبقات والفئات المضطهدة، حيث تميزت البيروقراطيات الحاكمة دوما بقدرة غير محدودة على التلون وامتصاص الضغوطات، واستيعاب كل آليات الحراك الاجتماعي، والخروج دائما من معارك التغيير دون أن تخسر شيئا ذا بال من مناطق نفوذها وسطوتها، بل والتحرك السريع، فيما بعد لاستعراض ما قد يكون قد قدمته- إكراها- من تنازلات شكلية للجماهير، ولم يكن هذا الأمر حكرا على فترة ما بعد عام ١٩٥٢، وإنما كان علامة مميزة للحياة السياسية في مصر، حتى في الفترة التي اصطلح على تسميتها بـ





«الفترة الليبرالية»، فكثيرا ما كانت البلاد تشهد الانقلابات الدستورية، وحكم الأقلية، ولم يعمر حزب الأغلبية (الوفد) في الحكم إلا فترة وجيزة، على الرغم من جماهيريته الكاسحة، وشعبيته الغلابة، بحيث بدا الوضع وكان تاريخ مصر المعاصر عبارة عن عملية متكررة لإنتاج وإعادة إنتاج القهر، الأمر الذي سد المنافذ أمام كل محاولات التغيير السلمي- طوال المراحل السابقة- وأجهد كافة القوى والمؤسسات والجماعات العاملة في اتجاه «دمقرطة البلاد»، وكبدها خسائر فادحة، دون مقابل يذكر، مما ساعد بدوره على استفحال مناخ الإحباط واليأس في المستقبل، وعمق من الشعور العام بعدم جدوى الكفاح من أجل التغيير- بين الفئات غير الراعية، والمهمشة في المجتمع، وما أكثرها، ويزيد من حدة هذا الشعور تطور ميكانيزمات الفساد البنيوي للنظام وتوحش أجهزة القمع، والأحزاب والهيئات الشعبية النشطة في مجال الحقوق السياسية والاجتماعية في البلاد.

هذه الوضعية الحرجة هي التي فتحت الأبواب، أما الجديد في هذا المجال، المتمثل في دخول عنصر خارجي شديد الخطورة على الخط.

فلقد أعقب أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة في الولايات المتحدة، هجوم أمريكي ساحق استغل هذا الحدث الكبير، كانت البداية، فقط، في أفغانستان تحت شعار «الحرب على الإرهاب»، غير أن مصالح ومطامع دعاة «الإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية»، من متطرفي الجناح العنصري الليكودي لليمين المحافظ الجديد، التي تسيطر على سدة الحكم في البيت الأبيض، دفعت الأمر باتجاه خطوة خطيرة أخرى، تمثلت في العدوان على العراق واحتلاله، تحت مزاعم ثلاث: امتلاكه أسلحة دمار شامل، وصلاته بتنظيم القاعدة، وهما زعمان ثبت زيفهما تماما، وباعتراف مسؤولي جهاز المخابرات المركزية الأمريكية ذاتهم، أما الزعم الثالث، وهو وثيق الصلة بموضوعنا فهو، على نحو ما عبر الرئيس الأمريكي/بوش: «إن أمريكا ستعمل على تحويل العراق إلى نموذج للديمقراطية والحرية، ليكون مصدر إلهام للتغيير والأمل في الشرق الأوسط».

فما مدى صدقية هذا الادعاء الأمريكي، الذي كان واحدا من أهم أسباب العدوان

الأمريكي على العراق، بواسطة التحالف (الأنجلو- أمريكي)، المدعوم بحماسة من أركان (الدولة الصهيونية)؟!.. وما موقع قضية الديمقراطية في إطار المستهدفات الحقيقية للاستراتيجية الأمريكية في منطقتنا؟!.. وهل يفيد المصالح العليا الأمريكية تحقق ديمقراطية فعلية في دول المنطقة، على النحو الذي تروج له الإدارة الأمريكية، وجماعات الضغط المؤيدة لها، في بلادنا؟!.

هذه الأسئلة وغيرها، أجدها بالغة الأهمية، وتحديد الإجابة الواضحة عليها أمر لا مناص منه، للانتقال إلى مناقشة ضرورية وصريحة للقضية المطروحة: «قضية الديمقراطية، في المنطقة العربية، بين المنظور الأمريكي والرؤية الوطنية».

١- المنظور الأمريكي لقضية الديمقراطية في منطقتنا:

في واقع الأمر لم تكن قضية الديمقراطية، بأي صورة من الصور، في وارد المرامي الأمريكية المؤكدة، في منطقتنا، كما يشير اثنان من كبار صناع السياسة الأمريكية المعاصرين هما، مارتن أنديك، والدبلوماسي السابق في إدارة كلينتون ريتشارد هاس، مدير قسم التخطيط السياسي بوزارة الخارجية في إدارة جورج بوش الابن، اللذان أجمعا على أن إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق/كلينتون، حسبما يشير أنديك، قد قامت بترتيب صفقة مع حلفاء أمريكا ظلت قائمة بشكل أو بآخر حتى ١١ سبتمبر، على أساس «أن تقدم الدول العربية المعتدلة القواعد والتسهيلات للقوات الأمريكية، لمساعدتها على احتواء «الدول المارقة»، وتدعم كذلك جهود واشنطن لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي [حسب الرؤية الأمريكية (الإسرائيلية) بالطبع!]، مقابل أن تحجم واشنطن عن ممارسة أي ضغوط حقيقية على هذه الدول (النظم) من أجل التغيير السياسي، فيما يعترف (هاس) بأن «الإدارات الأمريكية المتعاقبة، الجمهورية والديمقراطية، على حد سواء، لم تجعل من مسألة الديمقراطية أولوية بشكل كاف في العديد من أجزاء العالم الإسلامي، وعلى الأخص (العالم العربي). ففي بعض الأحيان تجنبت الولايات المتحدة النظر بعمق في الأعمال الداخلية لهذه البلدان، لصالح تأمين التدفق المتواصل للنفط، ولكبح التوسع السوفيتي والعراقي والإيراني، والتعامل مع القضايا المتصلة بالنزاع العربي - الإسرائيلي، ومقاومة الشيوعية في شرق آسيا، أو لتأمين حق الحصول على القواعد لقواتنا العسكرية في المنطقة».

فمن الثابت إذن أن المصالح الاستراتيجية العليا، المقررة، للولايات المتحدة الأمريكية، تصدرتها مجموعة مستهدفات مترابطة، لم يكن من بينها في أي لحظة مسألة تحقيق الديمقراطية في البلدان العربية والإسلامية، بل إن قضية الديمقراطية، - في واقع الأمر- كانت آخر ما تبتغي تحقيقه الولايات المتحدة، حتى بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وانتهاء حقبة الحرب الباردة لأسباب عديدة منها:

١- سهولة التعامل مع نظم غير ديمقراطية بشأن تأمين مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، وفي مقدمتها بالطبع- النفط، وضمان أمن وتفوق الدولة الصهيونية.

٢- التوجس من احتمال أن يترتب على أية عملية تحول ديمقراطي حقيقي، حدوث حالة من عدم الاستقرار السياسي، أو تغيير نظم موالية لها من خلال صناديق الاقتراع، واستبدالها بنظم معادية بديلة، (مثل الحركات الإسلامية)، مما يؤثر سلباً على المصالح الأمريكية الحيوية في المنطقة.

٣- ضمان أمن ومصالح (الدولة الصهيونية)، حيث أن «الدول التي وقعت اتفاقيات سلام مع (إسرائيل)، بوساطة أمريكية، أو في ظل دور أمريكي بارز، مثل مصر والأردن والسلطة الوطنية الفلسطينية، كانت بحاجة إلى إجراءات غير ديمقراطية حتى تمر هذه الاتفاقيات التي قوبلت بمعارضة شديدة من قبل قوى فعالة مؤثرة في الداخل».

لقد كانت المسألة الديمقراطية الغائبة في دول العالم العربي والإسلامي، إحدى الذرائع التي استندت إليها الإدارة الأمريكية المتطرفة، في سعيها لإيجاد المسوغات الشكلية للعدوان، واحتلال كل من أفغانستان والعراق، وفي إطار التحركات المرسومة لإعادة صياغة، ليس فقط خريطة المنطقة وحسب، وانما الخريطة الكونية بأكملها، على طريق إنجاز هدف بناء الإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية، التي ترى المجموعة الحاكمة في الولايات المتحدة، من غلاة الجناح اليميني - الليكودي، للمحافظين الجدد، إن الظروف مواتية لتحقيقها، مستندة في ذلك إلى توفر «الموارد الاقتصادية والعسكرية والأيديولوجية الهائلة، للولايات المتحدة، التي مكنتها من امتلاك أبعاد القوة الإمبريالية، على نحو ما يرصد (إيمانويل تود)، في كتابه الشهير «ما بعد الإمبراطورية»، دراسة في تفكك النظام الأمريكي».

وكما هو معروف فقد سبق القصف بالطائرات والاحتلال بالقوات العسكرية، قصف آخر بالنظريات والأفكار، مثل نظرية نهاية التاريخ/لفرانسيس فوكوياما الذي بشرَ بنظام النيوليبرالية الغربي، باعتباره النموذج الأمثل الذي يتعين على شعوب العالم قاطبة استلهامه، ونظرية (صموئيل هنتجتون) في صراع الحضارات التي طرحت العلاقة المأزومة، الملتبسة، بين الشرق والغرب، باعتبارها علاقة تناقض عدائي مرشحة للانفجار، كذلك فقد مهدت الأفكار التي طرحها مفكرون استراتيجيون آخرون، مثل زبيجلبوبرزسكي، وهنري كيسنجر، والعديد من منظري اليمين الأمريكي مثال بيري، وبيرل وولفوويتز وغيرهم من رموز المحافظين الجدد، (New consorvateves)، لتعبيد الطريق أمام القوة الأمريكية العاتية، حتى تتقدم فارضة وجودها. مستفيدة من ذريعة (مكافحة الإرهاب) الذي بولغ كثيرا في قدراته، ورفع في هذا السياق، إلى مرتبة القوة العالمية، وهو ما أسس لنشوء حالة «من



الحرب الدائمة على مستوى العالم/حرب عالمية رابعة!.

وفي ظل الترويع غير المحدود للنظام العالمي برمته، (وبالذات للدول العربية والإسلامية التي اتهم مرتكبو اعتداءات سبتمبر بالانتماء إليها)، تم تجاوز الولايات المتحدة للمؤسسات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة، وضرب عرض الحائط بقواعد القانون الدولي، وبالشرعية الدولية بل وحتى برأي الحلفاء الأوروبيين، ناهيك عن الرأي العام العالمي الذي خرج الملايين منه للتظاهر احتجاجا، وانتهكت سيادة الدول، وتم ابتزاز النظم الضعيفة الهشة، في منطقتنا، بسيف (الإرهاب) المسلط، حتى تنصاع للأوامر والنواهي الأمريكية، واستخدمت ذريعة «التغيير الديمقراطي» لتهديد من لا يقدم فروض الولاء والطاعة -دون أدنى نقاش- وبالذات فيما يخص القبول بنتائج العدوان على العراق واحتلال أراضيه ومصادرة ثرواته ودفع الحال فيه إلى تخوم الفوضى، أيضا بالنسبة للقبول بممارسات عصابة شارون العنصرية الهمجية، وبربريتها في التعامل مع أبناء الشعب الفلسطيني، التي تجاوزت كل الحدود المقبولة، على نحو ما نشهده في المواقف الأمريكية تجاه كل من سوريا وإيران، بل وحتى مع نظم (معتدلة وصديقة) مثل الأسرة الحاكمة في المملكة العربية السعودية، والنظام المصري.

لقد تهاوت الأكاذيب الأمريكية بشأن امتلاك نظام صدام حسين لأسلحة دمار شامل تهدد أمريكا وإسرائيل والغرب، وتستطيع أن توضع في حالة الجاهزية للاستخدام «خلال خمس وأربعين دقيقة!!»، خاصة بعد سقوط النظام واحتلال العراق، ومسحها طولا وعرضا، والعجز عن تقديم دليل واحد يثبت هذه الادعاءات، ومع ثبوت تهافت الزعم بوجود علاقة ترابط النظام السابق بتنظيم القاعدة، ازداد حرج الإدارة الأمريكية، ولم تعد تملك - من مسوغ تقدمه - تبرر به حملتها التدميرية لدولة العراق، واحتلاله بكلفته المادية، والبشرية المرتفعة [وبالذات بعد تصاعد أعمال المقاومة، وتضاعف الخسائر اليومية في صفوف جنود الاحتلال] فلم تعد الإدارة الأمريكية تملك سوى التشبث بموضوعة استهداف بناء نظام ديمقراطي في العراق، يكون النموذج المحدث للتأثيرات المتتالية في المنطقة (على غرار تداعيات نظرية الدومينو الشهيرة)، في ظل استمرار الحديث عن عزمها على تغيير خرائط المنطقة بالقوة، وبالذات في الدول التي سميت باعتبارها عناصر مكونة لـ«محور الشر»، الذي أعلن عنه الرئيس الأمريكي، وفي مقدمتها سوريا وإيران.

وقد شجع هذا الإدعاء البعض - في بلادنا - على طرح مجموعة من التصورات، التي لا تقدم جديدا من حيث المضمون، ولكنها تمثل استدعاء خطيرا، بل بالغ الخطورة للتدخل الأجنبي في الشأن الداخلي، مهدرين - بذلك - حصيلة كفاح أجيال تلو أجيال من أبناء الشعب المصري، في سبيل تحقيق الاستقلال الوطني، ونيل الحرية.

فتحت زعم «الدور الخير للاستعمار»، استرجعت أصداء مزاعم قديمة وبالية عن «رسالة الرجل الأبيض»، و«العبء الحضاري»، و«الدور التقدمي للاستعمار».. الخ، وكلها مقولات طرحت في ظل صعود الظاهرة الاستعمارية الغربية، منذ عدة قرون، وتكللت تجربة استعباد الشعوب، ونهب ثرواتها ومضاعفة أسباب تخلفها، في الرد على هذه الترهات، بل ولعب نفر من المثقفين الغربيين، ذوي النزعات الإنسانية التحررية دورا أساسيا في كشف هذه الأباطيل، والإبانة عما تخفيه من أهداف، وما تبطنه من نوايا.

وأقر البعض بصفة «الاحتلال»، للوجود الأنجلو - أمريكي في العراق (وهل كان يمكنهم غير ذلك، خاصة بعد اعتراف أمريكا وانجلترا، وإقرار الأمم المتحدة، هذا الوصف؟!)، غير أنه حاول تجميل هذا الاحتلال بالإدعاء أنه، «احتلال من طبيعة خاصة»!، داعيا لمنحه الفرصة حتى يحقق مزاعمه)!(، و«الصبر» عليه حتى ينجز وعوده، رافضا «المطالبة الفورية بوضع حد للاحتلال، لأنها تفتح الباب أمام المقاومة المسلحة!!».

أما أكثر هذه الدعاوي خطورة وتماسكا، فهي تلك التي «نظرت» لفكرة أن التدخل الأجنبي لإحداث التغيير المطلوب في النظم الحاكمة، وبالذات في منطقتنا، وبالقوة الجبرية، وضع وارد بل وحيد، إذا استعصى أمرها على القوى الداخلية.

وبمعنى آخر فإن أصحاب هذه النظرة لا يجدون غضاضة في الاستعانة بالقوى الخارجية للإطاحة بالنظم القائمة، في المنطقة العربية والإسلامية، بعد أن ثبت من وجهة نظرها - عجز القوى «الديمقراطية»، في هذه البلدان، واستمرت هيمنة هذه النظم دون بديل محتمل مطروح.

إن هذه النظرة التي عبر عنها عالم اجتماع شهير في أكثر من منبر علني، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وهي تحمل في ثناياها - فضلا عن التهديدات المباشرة للاستقلال الوطني القائم، حتى لو كان نسبيا، الخطر الشديد على مستقبل البلاد، وتهدر - بجرة قلم - كفاح أجيال تلو أجيال في سبيل التحرر، وتستبدل نظما ديكتاتورية عميلة لكي تحل محل نظم ديكتاتورية تابعة، وسيصبح واقعا على عاتق القوى الوطنية والديمقراطية، مهمتان ثقيلتان في آن واحد: التخلص من نير الاحتلال، ومواجهة النظام العميل، الذي لا بد وأن يلجأ لسلاح القهر والبطش بالقوى المعارضة، حتى يثبت أقدامه على سدة الحكم.

ب- محددات الرؤية الوطنية لإشكالية التحول الديمقراطي في مجتمعاتنا الاستبدادية:

تتجاهل هذه الدعوة مجموعة من الاعتبارات، تشكل في تفاعلها مجمل الرؤية الوطنية لقضية التحول الديمقراطي في بلادنا، ويمكن أن نصيفها على النحو التالي:

أولا: إن قضية التحول الديمقراطي في كافة المجتمعات هو أمر مرهون بمستوى الإدراك العام ووعي الشعب ومفاهيمه ومعتقداته وقيمة السياسية والاجتماعية، إن التطور الديمقراطي لأي مجتمع يذهب إلى ما هو أبعد من النواحي الدستورية والقانونية، ويصعب اختزاله في مجرد إجراءات أو حتى تشريعات ومؤسسات تنقل من مجتمع لآخر أو تفرض بشكل تحكمي، ولكنه يرتبط ارتباطا وثيقا بثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده وأنماط سلوكياته ودرجة تقدمه الاقتصادي والاجتماعي.



ثانيا: واستنادا إلى ما تقدم فلا يمكن فصل التطور الديمقراطي في أي منطقة، عن تحول أمر

هام، وعلى درجة كبيرة من الضرورة، هو مستوى التطور في إدراك قيمة الفرد، ودرجة الوعي والنضج الفكري، فكل الدول التي تمتعت بدرجة كبيرة من التحولات الديمقراطية استندت على ميراث غني من التأسيس الثقافي استمر لقرون عديدة. إن العملية الديمقراطية - على هذا الأساس - هي عملية اجتماعية ممتدة Social Process، لا يمكن اختزالها أو القفز من فوقها أو التهرب من استحقاقاتها، فالديمقراطية الفرنسية مثلاً هي - في واقع الأمر - وليدة قيم الثورة الفرنسية، وما أرساه رواد ثورة العقلانية الفرنسية من آراء ومعتقدات على مدى قرون ماضية، والحال في الولايات المتحدة لا يختلف كثيرا عن ذلك، وهو في الحالتين، وبالذات في الولايات المتحدة احتاج عملاً مكثفاً وتراكما مستمرا وتضحيات هائلة، لعل أبرز مثالها نضال السود في الولايات المتحدة من أجل التمتع بالحقوق المدنية، والذي لم يتحقق إلا مؤخرا وبجهود مستمرة لعقود طويلة دون انقطاع، فالقفز على الواقع وحرق المراحل، في قضية الديمقراطية، التي هي في جوهرها قضية وعي وإدراك، لن يؤدي إلا لخلق أبنية مشوهة، لن تقل في بشاعتها عما أرسته الأنظمة الديكتاتورية من «مظاهر ديمقراطية، فارغة بلا مضمون.

ثالثا: وبناء عليه لا يمكن فرض أي تحولات اجتماعية عميقة (مثل التحول في بنية النظام السياسي الداخلي للمجتمعات)، فرضا بالقوة الجبرية من الخارج.

في هذه الحالة سيكون مصير أي نظام بديل ليس أفضل حالٍ من ذلك النظام (البائد)، وإنما سيضاف، إلى مثالبه كونه آتي ممثلاً لإرادة القوة الأجنبية التي أحدثت التغيير، وفي المجال التطبيقي، فإن ما يحدث في العراق أبلغ رد على دعاة نظرية التغيير بالاستعانة بـ«عمرو» الأجنبي، استناداً إلى المثل الشائع «بيدي لا بيد عمرو»، فبديل نظام صدام حسين الديكتاتوري العميق يمكن رصده في احتلال أجنبي شديد الوطأة + فوضى عارمة + انهيار اقتصادي..الخ، أما الديمقراطية فأصبحت بعد أن تم الاحتلال مؤجلة إلى أجل غير مسمى، حسب تصريحات المسؤولين الأمريكيين) وهذا الأمر ليس جديداً، بأي حال من الأحوال، وقد مارسته كل النظم الاستعمارية القديمة فـ «جميع الإمبراطوريات تغير ذاتها، والعالم - على حد قول إدوارد سعيد - أنها تختلف عن كل الإمبراطوريات الأخرى، وأن رسالتها ليست هي النهب والسيطرة، بل التعليم والتحرير!!».

رابعا: لا يمكن فصل الديمقراطية السياسية عن الديمقراطية الاجتماعية، فالديمقراطية في جوهرها تعبير عن التوازن الطبقي في المجتمع، ذلك التوازن الذي يحكم العلاقات بين فئات المجتمع ومكوناته الطبقية، ويبقيها ضمن إطار الصراع السلمي لحل المتناقضات، الذي يعتمد على عدم قدرة أي طرف وحده، على حسم الأمور لصالحه منفردا، وبناء حكم ديكتاتوري مطلق دون مقاومة. فهذا التوازن في قوى الطبقات يؤسس لآليات التنافس السلمي السياسي ويحمي المؤسسات الديمقراطية من العصف بها، ويكفل لكل طبقة حظها العادل من ثروة المجتمع، ويحافظ على مصالحها المرتبطة بوجود هذه الوضعية الديمقراطية، ومن ثم يحافظ على وجودها.

والعكس صحيح على طول الخط، فإدراك أي طبقة اجتماعية، أو مجموعة عرقية أو دينية أو فئة من الفئات أنها مهضومة الحق، مغبونة، سيجعلها تعمل من أجل الانقلاب على الآليات الديمقراطية في أقرب فرصة متاحة.

خامسا: لا يمكن استيراد الديمقراطية من الخارج بطريقة الـ «Keyturn» أو «تسليم المفتاح»، التي تمارس في الأعمال الميكانيكية والإنشائية، فالديمقراطية بناء مؤسسي، يستند على خبرة اجتماعية تنظيمية للمجتمع، فلا قيمة للأفراد «الفرط»، غير المنظمين في هيئة اجتماعية ما: حزب سياسي - جمعية مدنية - نقابة مهنية - اتحاد طلابي.. الخ، وبدون توفر هذا الشرط الذي يكفل تدريب عناصر المجتمع على الممارسة الديمقراطية، ويضمن لهم حيزاً إنسانياً وفكرياً ضامناً، سيظل المجتمع يعاني من هشاشة مفرطة، تمنعه من أن يتجاوب مع متطلبات العمل الديمقراطي الحق، وتحرمه من فرص المشاركة الفعالة في التفاعل مع مستلزماتها.

هذه الملحوظات الخمس تحدد الموقف الوطني الصحيح من الملحوظة الأمريكية التي تربط تدخلها بالقوة في منطقتنا بحجة «نشر الديمقراطية»، وكما تبدى في «مشروع الشراكة الأمريكية - الشرق أوسطية، بشأن الديمقراطية في الشرق الأوسط، الذي قدمه وزير الخارجية كولن باول، (ديسمبر ٢٠٠٢)، والذي رصدت له الولايات المتحدة مبلغ ٢٩ مليون دولار، (هذا المبلغ الهزيل المرصود أبلغ تعبير عن حجم الاهتمام الأمريكي الحق بهذه القضية!)، وكذلك عبر العديد من تصريحات القادة الأمريكيين: جور بوش - ديك تشيني - دونالد رامسفيلد - كونداليزا رايس..الخ، وهو الموقف الذي يمكن تلخيصه في التالي:

١- إن قضية الديمقراطية شأن داخلي في المقام الأول يعتمد على تطور القوى الاجتماعية المحلية، ومرهونا بقدرتها على تنظيم صفوف الطبقات الاجتماعية وتطويرها يوما بعد يوم - على طريق التحرر الإنساني الطويل.

٢- استدعاء المحتل الأجنبي لقلب النظم الحاكمة أمر شديد الخطورة ينبغي التنبه من تبعاته، فهو - فضلا عن إهداره للاستقلال الوطني - يهدر أيضا قيم الديمقراطية ذاتها، ويقطع الطريق على بناء ديمقراطي حق، يستند إلى تطور القوى الطبقية في المجتمع، ويحتمي بالوعي العام لدى فئاته.

٣- على الأنظمة العربية والإسلامية التي تحكم منطقتنا، أن تدرك أن استمرار حكمها المستند إلى قهر الأجهزة، واستبداد القوة الباطشة، لن يستمر إلى الأبد، وأن مصيرها إلى زوال مهما تصورت أنها مخلدة في مقامها، وأن فرصة حمايتها الوحيدة من التهديدات الخارجية مرهونة بالانفتاح على شعوبها، والاستقواء بمواطنيها، وهو ما لن يتحقق إلا بإطلاق الحريات والكف عن الركون إلى منظومة القمع البالية.

٤- إن المكتسبات الديمقراطية هي المحصلة الطبيعية لنضال القوى الديمقراطية المنظم والممهد والممنهج والموجه، والذي يستهدف إحداث تراكم في ساحة الحرية المتاحة، والاستعداد لتحمل تكاليف الحرية هو أول شروط تحققها.

خاتمة:

إن الديمقراطية الحقيقية - على نحو ما تقدم - هي الإحساس بالكرامة البشرية، واحترام الذات، وإدراك قيمة الموروث الثقافي في تعاطيه مع العصر، واحترام الهوية الوطنية والقومية المنفتحة على العالم، وهي إعادة الاعتبار لقيمة الإنسان في أوطاننا، بعد أن تحول إلى سلعة رخيصة، والإدراك الداخلي أنه شريك أساسي في بناء المستقبل وصنع المصير، وأنه كائن بشري مبدع له الحق في الوجود، وفي التمتع بثرواته، والتصرف في مقدراته بنفسه. والديمقراطية، من هذا المنظور، ليست مجرد شكل خارجي يعتمد على تدوير السلطة بين طبقة حاكمة مهينة منصاعة للمستعمر، مؤتمرة بأوامره.

الديمقراطية هي نقيض المهانة والهيمنة والسيطرة، وبهذا المعنى فهي ضد الاحتلال والقهر، وتتناقض موضوعيا مع كل الدعاوى الزائفة التي يروج لها البعض، ويستدعون عبرها التدخل الأجنبي لـ (تحريرهم) من المستبد الداخلي، لأن هذه الدعاوي تهدر في ذات الوقت الخالدتين: حرية الوطن، وحرية المواطن.

بعد ١١ سبتمبر

تحولات السياسة الأمريكية في المنطقة العربية

من دعم الاستقرار إلى الدفع نحو التغيير

ماجد كيالي

يتسم الفكر السياسي العربي، - على الأغلب - بميله للتفسير الذاتي والمبسط والعاطفي، للظواهر والتفاعلات والعلاقات السياسية، بدلا من دراستها بشكل مركب، بتفحص منطقها الداخلي وسياق تطورها الموضوعي، باعتبار السياسة حقلا لتفاعلات البنى الاجتماعية والإقتصادية، والعلاقات والإرادات، وموازين القوى!

وفي هذا الإطار، مثلا، يمكن ملاحظة مدى التباين، - وربما التخبط- في تفسير دوافع السياسة الأمريكية، التي وقفت وراء احتلال العراق وتغيير النظام فيه، والتي تقف، أيضا، وراء سعي الولايات المتحدة لإعادة هيكلة النظام العربي، بدعوى إصلاحه ونشر الديمقراطية فيه.

فثمة من يتعامل مع هذه السياسة من زاوية الصراع العربي- الإسرائيلي، فيرى فيها مجرد حرب تشن بالوكالة عن إسرائيل. وثمة من ينظر إليها من الناحية الاقتصادية، أي من أجل التحكم بالنفط في المنطقة. وهناك من يتعامل مع الأمر من الزاوية الاستراتيجية، لتعزيز هيمنة أمريكا على النظام الدولي، باعتبار أن المنطقة العربية مدخلا مناسبا لذلك. وهناك فريق يرى في الأمر نوعا من تجلي «صراع الحضارات». وفريق آخر يرى فيها امتدادا للحرب الأمريكية على (الإرهاب). وطبعا هناك قسم ينظر إليها بأكثر من عامل من هذه العوامل.

والواقع فإن هذه التقييمات، إذا أخذت كل على حدة، تقصر عن تفسير دوافع السياسة الأمريكية، الجديدة. والمقصود أنه برغم من أن الاحتلال الأمريكي للعراق جاء بمكاسب استراتيجية لإسرائيل، مثلا، إلا أنه ينبغي الحذر من المبالغة في الحديث عن أن الدوافع الإسرائيلية هي وحدها التي تقف وراء الحرب. والأخطر من ذلك التصرف على هذا الأساس. مصلحة أمريكية خاصة: سياسية واقتصادية وأمنية، وضمن ذلك مصلحة الولايات المتحدة في ترسيخ هيمنتها على المنطقة والعالم، برغم تقاطع هذه المصلحة مع المصالح الإسرائيلية. بمعنى أن أعيننا وعقولنا يجب أن تتجه نحو تفحص طبيعة توجهات الإدارة الأمريكية، والمستجدات التي دخلت عليها خصوصا بعد حدث ١١/أيلول/٢٠٠١، وبعد هيمنة تيار «المحافظين الجدد» عليها.

ومعنى ذلك، أيضا، أنه ينبغي التعامل مع السياسة الأمريكية بطريقة مركبة، وموضوعية، بتفحص كل عامل من العوامل، التي ذكرناها، من داخل الإدراك الأمريكي، ذاته، للتمكن من تحديد دوره في رسم السياسة التي تنتهجها الإدارة الأمريكية الحالية، بعيدا عن الأفكار المسبقة أو التكهنات الذاتية.



بعد ١١ سبتمبر

وبتقديري، فإنه ثمة ضرورة ومصلحة حقيقية، للمعنيين والمهتمين في الساحة العربية، للشروع بإجراء قراءة موضوعية وواقعية، لتفحص حقيقة الدوافع الأمريكية، التي وقفت وتقف وراء كل ما جرى وما قد يجري، بعيدا عن الأفكار المسبقة أو التكهنات الذاتية، بدءا من الحرب على العراق واحتلاله، وتغيير نظامه السياسي، وصولا إلى محاولة فرض نوع من الوصاية على النظام السياسي العربي والسعي لإعادة هيكلته، بدعوى حاجته للإصلاح والتغيير.

إذ أن معرفة هذه الدوافع من داخل الإدراك الأمريكي، ذاته، هي وحدها التي تتيح لنا تفسير ما حصل، ووعي الواقع المحيط من حولنا، وبالتالي العمل على أساسه، إن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أو للخروج من إسار المأزق العربي الراهن.

واللافت للانتباه أن الخطاب الأمريكي يفسر نفسه بنفسه، والإدارة الأمريكية كانت على غاية من الوضوح في تحديد المنطلقات التي تحكم سياستها الخارجية، وتوضح رؤيتها لذاتها وللآخرين، وتعيين أهدافها ووسائلها، إن إزاء العراق، أو في المنطقة العربية كما على الصعيد الدولي. ويمكن تتبع ذلك في خطابات الرئيس الأمريكي، ذاته، وفي خطابات أركان إدارته. ولكن مشكلتنا. في الساحة العربية، أننا نقع في كل مرة، - وللأسف - في شرك توهماتنا أو أفكارنا المسبقة عن «المؤامرة»، من دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث: هكذا وكأننا، في كل مرة، نصدق على مقولة: «أن العرب قوم لا يقرؤون».

ملامح التغير في السياسة الأمريكية:

بداية جدير بنا التذكير بأنه وطوال نصف القرن الماضي، أي في ظل انقسام العالم إلى معسكرين، انتهجت الولايات المتحدة الأمريكية استراتيجية ثابتة إزاء المنطقة العربية، تقوم على ركائز أربعة أساسية، هي: ١- ضمان استمرار تدفق النفط والتحكم بأسعاره، ٢- الحفاظ على أمن إسرائيل وتفوقها النوعي، ٣- الحؤول دون تمكن أية دولة منافسة لها من السيطرة على هذه المنطقة، ٤- المحافظة على استقرار النظم السياسية السائدة.

كما يجدر التذكير، أنه منذ مطلع التسعينيات، أي بعد تغير البيئة الدولية (بانهيار الاتحاد السوفيتي «السابق»، وانتهاء عالم الحرب الباردة)، وتحكم الولايات المتحدة بالنظامين الدولي والإقليمي، انتهجت الإدارتان الأمريكيتان، في عهد الرئيسين (السابقين) جورج بوش (الأب) وبيل كلينتون، سياسة، مفادها العمل على تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي، بالارتباط مع محاولة إقامة «نظام شرق أوسطي» جديد، في المنطقة، تكون إسرائيل عضوا رئيسا فيه، على أساس أن السلام والاستقرار سيجلبان الرخاء والازدهار لشعوب هذه المنطقة!

وكما هو معروف، فقد شجعت هاتان الإدارتان الإدارات، وبدفع من مسارات العولمة، دول المنطقة، على إدخال إصلاحات اقتصادية وسياسية، وعملت بكل الوسائل (الضغط والإغراء) على دفعها نحو تبني سياسات اقتصادية ليبرالية، وإقامة علاقات تعاون إقليمي ومؤسسات إقليمية، ومع ذلك فإن هاتين الإدارتين ظلتا محافظتين على ركائز السياسة الأمريكية التقليدية الأربعة، التي ذكرناها، وضمنها الحفاظ على استقرار حكومات المنطقة ونظامها السياسي.

ولكن متابعة الخطابات والتحركات السياسية الأمريكية بدءا من احتلال العراق وتغيير نظامه ومحاولة تغيير النظام الفلسطيني، وصولا إلى الحديث عن إعادة هيكلة المنطقة ونشر الديمقراطية فيها، تؤكد بأن إدارة بوش أدخلت تغييرا نوعيا كبيرا في الاستراتيجية الأمريكية، يتمثل بالسعي لتغيير الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي في العالم العربي بدلا من حفظ استقراره واستمراره!

واللافت للانتباه أن محاولة التغيير هذه لم تعد بالنسبة لإدارة بوش، تقتصر على التدخل، بالوسائل الدبلوماسية وعبر الضغوط أو الإغراءات السياسية والاقتصادية، كما كان الأمر في عهد الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون، وإنما باتت تشمل التدخل بمختلف الأشكال، حتى لو تطلب الأمر استخدام القوة. كما يلفت الانتباه أن الإدارة الأمريكية لم تعد تكتف بالمطالبة بإصلاح الحكومات، وإنما باتت تطالب، أيضا، بإصلاح أحوال المجتمعات: السياسية والاقتصادية والثقافية.

وفي هذا الإطار يمكن لنا تفحص ملامح التغير في السياسة الخارجية الأمريكية، من خلال الإطلاع على أهم الوثائق، التي صدرت عن إدارة الرئيس بوش، خلال الفترة الماضية، وهي:

١- خطاب بوش حول الشرق الأوسط (٢٤/ ٢٠٠٢/٥)؛ ٢- استراتيجية الأمن القومي الأمريكي (أيلول ٢٠٠٢)؛ ٣- خطاب كولن باول وزير الخارجية الأمريكية، بشأن «مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة الأمريكية والشرق الأوسط» (٢٠٠٢/١٢/١٢)؛ ٤- خطاب الرئيس بوش في جامعة كارولينا (٢٠٠٣/٥/٩)، بشأن إقامة منطقة تجارة حرة بين الولايات المتحدة ودول الشرق الأوسط؛ ٥- خطاب وليام بيرنز، مساعد وزير الخارجية الأمريكية (٢٠٠٣/٥/١٦)، حول سياسة الولايات المتحدة في العالم العربي. (وكلها منشورة في موقع وزارة الخارجية الأمريكية، على شبكة الانترنت:

usinfo.state.gov/arabi).

١- ففي خطابه الذي ألقاه يوم ٢٠٠٢/٦/٢٤، والذي خصص للحديث عن قضية الشرق الأوسط، طرح الرئيس بوش رؤيته لمعالجة الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، على أساس قيام الدولة الفلسطينية، في نهاية العام ٢٠٠٥، كنهاية للصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

ولكن بوش، في خطابه هذا، رهن إقامة هذه الدولة، بوقف «الإرهاب»، أي وقف المقاومة الفلسطينية، وبإصلاح القيادة الفلسطينية، أو تغييرها. وبذلك لم تعد القضية المطروحة مسألة احتلال إسرائيل لأراضي الفلسطينيين، وإقامتها المستوطنات فيها واعتداءاتها عليهم، وإنما باتت قضية «إصلاح» ووقف «إرهاب»، بحيث بات الجاني (إسرائيل) «ضحية»! والضحية (الشعب الفلسطيني) أصبح بمثابة «معتد»! كما لم يعد «حق تقرير المصير»، بنظر الإدارة الأمريكية، مبدأ مطلقا، وإنما بات مشروطا بالديمقراطية وانتهاج السبل السلمية وبطبيعة الشعب المعني وقيادته!

يقول بوش في خطابه: «لن تقوم الدولة الفلسطينية أبدا بالإرهاب. سوف تبنى من خلال الإصلاح. ويجب أن يكون الإصلاح أكثر من مجرد تغيير شكلي.. وسوف يتطلب الإصلاح الحقيقي مؤسسات سياسية واقتصادية جديدة تماما، ترتكز على الديمقراطية واقتصاديات السوق». واللافت أن بوش لم يطالب، في خطابه، بتغيير القيادة الفلسطينية، فقط، وإنما طالب، أيضا، بإدخال تغييرات في النظام السياسي الفلسطيني، من أساسه، من خلال إقامة مؤسسات منتخبة، ووضع دستور جديد، يضمن الفصل بين السلطات، ووجود قضاء مستقل، وشفافية مالية، ومكافحة الفساد ووضع مسؤولين ذوي كفاءات مع صلاحيات.

والواقع فإن خطاب بوش هذا موجه إلى

بعد ١١ سبتمبر

النظام العربي، بمعنى أن لائحة التغييرات التي طالب بإدخالها في النظام الفلسطيني هي مجرد نموذج للمطالب الأمريكية التي تشمل أكثر من طرف في النظام السياسي العربي، وربما أن البداية كانت في العراق وفلسطين، وهو ما سنثبته لاحقا.

٢- أما عقيدة «الأمن القومي الأمريكي»، التي تبنتها إدارة الرئيس بوش في سبتمبر من العام ٢٠٠٢، فكانت أكثر وضوحا، ومباشرة في تسمية الأمور بمسمياتها، تقول هذه الوثيقة: «في القرن الواحد والعشرين، سوف لن تتمكن إلا الدول التي تشارك في الالتزام بحماية حقوق الإنسان الأساسية، وضمان الحرية السياسية والاقتصادية، من إطلاق قدرات شعوبها وتأمين رخائها في المستقبل»!

وتعتبر الوثيقة أن الولايات المتحدة، بحكم قوتها، هي المنوط بها حماية هذا الانتصار والدفاع عن هذه القيم، حتى لو وصل الأمر حد استخدام القوة العسكرية: «تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية بامتلاك قوة عسكرية لا نظير لها وبنفوذ اقتصادي وسياسي عظيمين.. (وتتابع) سوف ندافع عن السلام من خلال محاربة الإرهابيين والطغاة.. سوف نوسع أفق السلام من خلال تشجيع المجتمعات الحرة والمنفتحة في كل قارة.. كان الأعداء في الماضي يحتاجون إلى جيوش جرارة وقدرات صناعية هائلة للتمكن من تهديد أمن الولايات المتحدة. أما الآن فتستطيع شبكات متسترة من الأفراد الزج بالفوضى والألم عبر شواطئ بلدنا، بثمن يقل عن ثمن شراء دبابة واحدة. فقد أمسى الإرهابيون منظمين للتغلغل في المجتمعات المنفتحة واستغلال التكنولوجيات العصرية ضدنا.. بغية هزم هذا التهديد، علينا استخدام كل أداة متوفرة في ترسانتنا - القوة العسكرية.. وجهود نشطة لقطع التمويل المالي عن الإرهابيين. سوف تساعد الولايات المتحدة الدول التي تحتاج إلى مساعدتنا في محاربة الإرهاب. وسوف تحاسب الدول التي تتورط في الإرهاب». اللافت أن الوثيقة حددت الأعداء بالإرهابيين والطغاة أيضا، وأكدت على سعي الولايات المتحدة «لنشر فوائد الحرية.. والعمل بنشاط لإدخال الأمل بمبادئ الديمقراطية، والتطور الاقتصادي، والأسواق الحرة، والتجارة الحرة إلى كل ركن من أركان العالم.. تملك الولايات المتحدة قوة ونفوذا لا سابق لهما - ولا مثيل لهما - في العالم، يؤازرنا في هذا الموقع، الإيمان بمبادئ الحرية، وقيم المجتمع الحر، كما يرتب علينا مسؤوليات، وواجبات، وفرصة فريدة، على القوة العظيمة لهذه الدولة أن تستخدم لإقامة توازن قوي مساند للحرية».

وهكذا رأت الوثيقة أيضا، في الفقر والفساد والمؤسسات الضعيفة، تربة خصبة لنمو شبكات الإرهاب ولكل الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها العالم الحر. ولذلك اعتبرت أنه من حق الولايات المتحدة، وهي التي تعرضت للخطر في/سبتمبر/٢٠٠١، التدخل لإحداث تغييرات في العالم، لا سيما في البلدان العربية والإسلامية، لأن حفاظها على أمنها لم يعد يقتصر على الحدود الأمريكية، ولو تطلب الأمر استخدام القوة العسكرية. أما أهداف هذا التدخل فقد حددته «استراتيجية الأمن القومي الأمريكي» بالمبادئ التالية: أ- مناصرة الطموحات في الكرامة الإنسانية. ب- تقوية التحالفات لدحر الإرهاب العالمي والعمل لمنع الاعتداءات علينا وعلى أصدقائنا. ج- العمل مع الآخر لنزع فتيل النزاعات الإقليمية. د- منع أعدائنا من تهديدنا، وتهديد حلفائنا، وأصدقائنا بأسلحة الدمار الشامل. هـ- إطلاق حقبة جديدة من النمو الاقتصادي العالمي عبر الأسواق الحرة والتجارة الحرة. و- توسيع دائرة التطور الاقتصادي من خلال إنتاج المجتمعات وإنشاء البنى التحتية للديمقراطية.

٣- وفي إعلان «مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط»، الذي قدمه كولن باول، وزير الخارجية الأمريكية، في خطاب ألقاه يوم ٢٠٠٢/١٢/١٢، قال باول: «أصبح واضحا بصورة متزايدة أنه يجب علينا أن نوسع تعاطينا مع المنطقة إذا كان لنا أن نحقق نجاحا. وعلينا - خصوصا - أن نوجه اهتماما متواصلا ونشيطا إلى الإصلاح الاقتصادي، والسياسي، والتعليمي.. وقد أوجد انتشار الديمقراطية والأسواق الحرة، التي ألهبتها عجائب الثورة التكنولوجية، قوة محركة تستطيع أن تولد ازدهارا ورفاها إنسانيا على نطاق لم يسبق له مثيل. إلا أن هذه الثورة خلفت الشرق الأوسط وراءها إلى حد كبير... وترى المبادرة «أن العجز في الفرص الاقتصادية هو تذكرة إلى اليأس. وهو، إضافة إلى الأنظمة السياسية المتصلبة، خميرة خطرة. تحتاج كثير من شعوب الشرق الأوسط إلى جانب اقتصاديات أكثر تحررا، إلى صوت سياسي أقوى.. إن عددا كبيرا من أطفال المنطقة يفتقر إلى المعرفة ليستفيد من عالم الحرية الاقتصادية والسياسية.. إن أي معالجة للشرق الأوسط تتجاهل تخلفه السياسي، والاقتصادي، والتعليمي، ستكون مبنية على رمال.. حان الوقت لوضع أساس متين من الأمل. إنني أعلن اليوم مبادرة تضع الولايات المتحدة بثبات في جانب تغيير، وإصلاح، ومستقبل حديث للشرق الأوسط. تستند إلى ثلاث ركائز:

- سنشترك مع مجموعات من القطاعين الخاص والعام لسد فجوات الوظائف بإصلاح اقتصادي، واستثمار للأعمال، وتنمية القطاع الخاص.
- سنشترك مع قادة المجتمع لسد فجوة الحرية بمشاريع لتقوية المجتمع المدني، وتوسيع المشاركة السياسية، ورفع أصوات النساء.
- سنعمل على المربين لسد فجوة المعرفة بمدارس أفضل ومزيد من الفرص للتعليم العالي.

وفي كل واحد من هذه المجالات الثلاثة، نحن ملتزمون بمشاركة أصيلة في اتجاهين. مشاركة مع المواطنين ودول المنطقة.

ومن الواضح أن هذه المبادرة جاءت لتعمم الآراء التي سبق أن طرحها الرئيس الأمريكي جورج بوش، في الخطاب الذي ألقاه يوم ٢٠٠٢/٦/٢٤، والذي بدا فيه وكأنه يركز على التغيير السياسي في الساحة الفلسطينية في حين أنه كان في حقيقة الأمر، وكما قدمنا، يوجه رسالة إلى كل من يعنيهم الأمر في العالم العربي. كما أن هذه المبادرة جاءت لتضع وثيقة «استراتيجية الأمن القومي»، على أجندة السياسة الأمريكية في المنطقة العربية.

٤- وفي ٩ مايو ٢٠٠٣ أعلن الرئيس بوش، في خطاب له، أن حكومته ستعمل على تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة تربطها اتفاقات للتجارة الحرة مع الولايات المتحدة خلال عشرة أعوام. ولكن خطاب بوش كان أشمل من ذلك، إذ أعاد التذكير فيه، بأساسيات استراتيجية الأمن القومي، وكان بمثابة إعلان عن الشروع بوضع مبادرة الشراكة الأمريكية - الشرق أوسطية موضع التطبيق. وأهمية هذا الخطاب تنبع من جانبين: أولهما، أنه جاء بعد احتلال العراق، وثانيهما، أنه جاء بعد الإعلان عن خطة «خريطة الطريق»، للتسوية بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وجاء في خطاب بوش: «في عصر من الإرهاب العالمي وأسلحة الدمار الشامل، ما يحدث في

بعد ١١ سبتمبر

الشرق الأوسط يهم أميركا كثيراً. فمرارة تلك المنطقة يمكنها أن تجلب العنف والمعاناة لمدننا. وإن تقدم الحرية والسلام في الشرق الأوسط من شأنه أن يمتص هذه المرارة ويضاعف أمننا.. إننا سنستخدم نفوذنا ومثاليتنا لاستبدال الكراهيات القديمة بآمال جديدة عبر الشرق الأوسط.. دولتنا قوية. وأعظم قوة لدينا هي أننا نخدم قضية الحرية. إننا نؤيد تقدم الحرية في الشرق الأوسط لأنها مبدأ مؤسس، ولأنها تخدم مصلحتنا القومية. فايديولوجية الإرهاب المبنية على الكراهية تكيفها وتغذيها وتحميها أنظمة طغيانية. أما الدول الحرة، فإن جاذبية التطرف تذوي وتموت.. فحيث تحجب الحرية، يعيش الناس في عزلة وجمود وحيث يرحب بالحرية، يستطيع الناس من كل ثقافة أن يزدهروا.. لقد ساعدت الأسواق والتجارة الحرة عبر العالم على هزم الفقر وعلمت الرجال والنساء عادات الحرية. وعليه فإنني أقترح إنشاء منطقة تجارة حرة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط خلال عقد من الزمن لإدخال الفساد والمنافع الشخصية بمبادئ السوق الحرة والقوانين النزيهة، ستنعم شعوب الشرق الأوسط بالازدهار والحرية.. وتتطلب الإفادة القصوى من الفرص الاقتصادية تعليماً أفضل وأشمل وخاصة بالنسبة للمرأة... ويعتمد النجاح الاقتصادي وتحقيق الكرامة الإنسانية على السواء - في النهاية - على حكم القانون والإدارة الشريفة للقضاء.. هذا وفي الوقت الذي تتسع فيه التجارة في الشرق الأوسط وينتشر التعليم وتنال المرأة مكانتها من المساواة والاحترام، وفيما يترسخ حكم القانون، فإن كل شعوب تلك المنطقة ستشهد يوما جديدا يسود فيه العدل والرفاه. فقد ظل الصراع في الأرض المقدسة يشكل أكبر مشكلة في الشرق الأوسط لعدة أجيال. أمريكا ستعمل دون كلل في سبيل تحقيق وجود دولتين هما إسرائيل وفلسطين تعيشان جنبا إلى جنب في أمن وازدهار وسلام».

٥- ومن جهته فقد حاول وليام بيرنز (مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى) شرح السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، في خطاب ألقاه في واشنطن يوم ١٦ أيار الماضي، في مؤتمر نظمه «مركز دراسة الإسلام والديمقراطية». وبحسب بيرنز: «هناك أربع نقاط ذات أهمية ينبغي التأمل فيها عند وضع قضية الديمقراطية والسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط في إطارها الصحيح. أولا، ينبغي أن يعطى تحدي تحقيق انفتاح الأنظمة السياسية في المنطقة برمته أولوية أعلى بكثير مما أعطي له في السنوات الماضية في الأجندة الأمريكية. ثانيا، ينبغي أن يكون دعم التغير الديمقراطي جزءا لا يتجزأ من استراتيجية أوسع تسعى بنشاط مماثل إلى حل النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي؛ وبناء عراق مستقر مزدهر وديمقراطي؛ وتحديث اقتصادات المنطقة. ثالثا، إن التحول إلى الديمقراطية يعني تغيرا تدرجيا وإن كان حقيقيا شاملا.. إنه يشمل عملية بناء المؤسسات السليمة وحكم القانون والمجتمعات المدنية. رابعا، ينبغي أن يكون التغير الديمقراطي مدفوعا من داخل المجتمعات في المنطقة.. إن هذا الأمر ليس مجرد مسألة قيم أمريكية، أو ضمان حقوق الإنسان الأساسية، على رغم ما لهذين الاهتمامين من أهمية قصوى. إنه أيضا مسألة مصالح أمريكية واقعية.. الأنظمة التي لا تجد سبلا للتكيف مع تطلعات شعوبها إلى المشاركة ستصبح أنظمة هشة قابلة للاحتراق.. الرئيس بوش والوزير باول يعتقدان، أن من مصلحتنا جدا في الأمد الطويل أن ندعم التغير الديمقراطي.. التغير الديمقراطي هو عنصر واحد في أجندة إيجابية أوسع للمنطقة، إلى جانب إعادة بناء العراق؛ وتحقيق رؤية الرئيس الخاصة بدولتين للإسرائيليين والفلسطينيين، وتحديث الاقتصادات العربية. ولا يمكننا أن ننظر إلى هذا وكأنه قائمة طعام في مطعم يمكننا اختيار بعض الأطباق فقط منها، فنسعى إلى تحقيق هدف ما ونهمل الأهداف الأخرى. تبرز ثلاثة مجالات حاسمة الأهمية يجب أن تشكل جزءا من العملية: أولا، سيكون على الدول العربية أن توسع الحيز المعطى لمؤسسات مجتمع مدني مستقل، وسائل الإعلام المستقلة والمنظمات النسائية وكيانات أخرى وكثيرة. ثانيا، تقوم الدول العربية بتحسين ممارسات الحكم الأساسية لديها. وهذا يعني خفض ممارسات الفساد والمحسوبية.. العمل في اتجاه حكم القانون، عن طريق أنظمة قضائية أكثر فعالية ومستقلة وقوات شرطة وسجون أكثر قانونية وإنسانية.. ثالثا، على القادة العرب أن يقوموا بالعمل الصعب المتمثل بجعل الانتخابات أكثر شمولية وأكثر نزاهة».

من كل ما تقدم يمكن الاستنتاج بأن مسألة تغيير العالم العربي باتت جزءا من أولويات الإدارة الأمريكية، وأن هذا التغيير بات، وفق رؤيتها السياسية الاستراتيجية، ضرورة ملحة لأمنها واستقرارها وضمان هيمنتها، كقطب أحادي في العالم، وهو ما ينبغي على المعنيين والمحللين إدراكه، للعمل على تدارك تأثيراته وتفويت أهدافه السلبية.

دوافع التغيير في السياسة الأمريكية:

إن قراءة الوثائق المذكورة، تفيد بأنه ثمة دوافع معينة، هي التي حكمت وحسمت التحول في السياسة الخارجية الأمريكية، أي في رؤية أمريكا لذاتها ولدورها العالمي، وهذه الدوافع يمكن تعيينها بالعوامل التالية:

١- منذ أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات، من القرن الماضي، ومع بوادر انهيار الاتحاد السوفيتي (السابق)، بدأت الروح «الإمبراطورية» تسيطر على السياسة الخارجية للولايات المتحدة (عهد الرئيسين رونالد ريغان وجورج بوش - الأب). فقد انتهى الخطر الشيوعي، وعصر الحرب الباردة، وانتهى معهما عالم القطبين. وفي الواقع فإن التغير، في البيئة الدولية، حفز الولايات المتحدة على وعي حقيقية قوتها المطلقة، وبالتالي أهمية عكس تفوقها: الاقتصادي والتكنولوجي والعلمي والعسكري، كحقيقة سياسية، لفرض هيمنتها كقطب أوحد على العالم. وقد حاولت الولايات المتحدة تجسيد هذا التوجه من خلال:

أ - سعيها إلى ملء الفراغ في دول أوروبا الشرقية، كي تتمكن من التدخل في شؤون القارة الأوروبية والسيطرة على تطورات «الاتحاد الأوروبي» الذي يشكل تحديا ومنافسا كبيرا لها، عبر قطبيه الصاعدين (ألمانيا وفرنسا)، من مختلف النواحي: المالية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية. ومعلوم أن الناتج الإجمالي السنوي لدول الاتحاد الأوروبي مجتمعة يزيد على الناتج الإجمالي للولايات المتحدة (١٠ مقابل ٨ مليار دولار). وهو لا يقل عنها تقدما في المجالات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية، ونقطة التفوق البارزة للولايات المتحدة هي في المجال العسكري (كما ونوعا). فبينما تنفق دول الاتحاد الأوروبي حوالي ١٣٠ مليار من الدولارات على التسلح تنفق الولايات المتحدة ما يزيد على ٣٠٠ مليار من الدولارات في هذا المجال، ووصل حجم الإنفاق الأمريكي في ظل الحرب على الإرهاب والعراق إلى ٤٠٠ مليار من الدولارات.

بعد ١١ سبتمبر

ب - سيطرتها على دول آسيا الوسطى، المنسلخة عن الاتحاد السوفيتي (السابق)، لاستخدامها، أولا، في الضغط على روسيا وخلق المتاعب لها في أكثر من مجال، وثانيا، للسيطرة على ثرواتها من النفط والغاز، الذي تمتلك كمية كبيرة منه: وثالثا، لإيجاد موطئ قدم لها يتحكم بالتقارب بين القارتين الأوروبية والأسيوية، أي فيما بين الدول الأوروبية وكل من الصين واليابان والهند وغيرهما من دول جنوب شرق آسيا، التي باتت تشكل قوة اقتصادية وتكنولوجية وحتى عسكرية يحسب لها الحساب.

ج- أما في منطقتنا العربية فقد اتجهت الإدارة الأمريكية نحو تعزيز هيمنتها على العالم العربي، من خلال العمل على إقامة نظام شرق اوسطي فيه، على أسس اقتصادية وأمنية وسياسية وإثنية، وبغض النظر عن هويته الثقافية وأولوياته السياسية والاقتصادية، بحيث يكون هذا النظام أكثر ملاءمة للمصالح والسياسات الأمريكية، بما في ذلك إتاحة المجال لإسرائيل لتكون بمثابة محور هذا النظام والمتحكم بآلياته.

اللافت أيضا انه في هذه المرحلة بدأت مراكز الأبحاث الأمريكية بالترويج لنظريات من نوع: «صراع الحضارات» (صموئيل هنتنغتون)، و«نهاية التاريخ» (فرنسيس فوكوياما)، و«قوس الأزمات»، المقصود به خطر العالم الإسلامي، (زبيغنيو بريجنسكي)، و«إعادة تشكيل الشرق الأوسط» (برنارد لويس)، وقد ركزت معظم هذه الأطروحات على وحدة الغرب في مقابل الشرق، اي الحضارة الغربية في مقابل الحضارة الشرقية، او أمريكا واوروبا (ومعها روسيا) في مقابل الدول التي تنتمي للحضارة الإسلامية والهندية والصينية. ولكنها بشكل أساسي روّجت لما سمته مواجهة خطر «الأصولية الإسلامية» الذي بات بديلا لما سمته في السابق «الخطر الشيوعي».. وكأن أمريكا كانت بحاجة لاختراع «عدو» ما لتبرير توجهاتها الإمبراطورية وميلها لاستخدام قوتها العسكرية في محاولاتها تعزيز هيمنتها على العالم.

٢- إن النزعة «الإمبراطورية» الأمريكية بدأت تتغذى، أيضا، من تنامي المشاعر الوطنية في الولايات المتحدة، وفي الغطرسة في الحديث عن النموذج الثقافي الأمريكي ونمط الحياة الأمريكية. وهذه المشاعر ازدادت بالبروز إثر التداعيات الناجمة عن الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها واشنطن ونيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وبدت هذه المشاعر وكأنها بمثابة بديل، عن التركيز على الروح الأممية والتعددية والتنوع الحضاري والتعاون أو الاعتماد المتبادل، التي كانت ترسخها مسارات العولمة، والتي كانت أمريكا، لا سيما في عهد كلينتون، تدفع إليها، عبر التعاون مع الدول الكبرى الأخرى، وتعزيز دور المنظمات الدولية (مجلس الأمن الدولي، منظمة التجارة العالمية، مؤتمر التنمية الاقتصادية الشرق أوسطية).

وهنا ثمة مجال للاعتقاد بأن هذه التحولات باتت تضع الولايات المتحدة في خانة الدول التي تعيق مسارات «العولمة»، بإصرارها على تعميم نموذجها وفرض مصالحها ورؤيتها، على الدول الأخرى، في ما بات يعرف بـ«الأمركة». ويجري التدليل على ذلك بمعارضة الإدارة الأمريكية قيام «محكمة الجنايات الدولية»، وميلها لتحجيم دور مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة في حل النزاعات الدولية، وتخليها عن اتفاقات «كيوتو» المتعلقة بحماية البيئة، وتراجعها عن معاهدة انتشار الصواريخ «البالستية» مع روسيا، وفرضها أنظمة حماية تجارية على الواردات، على خلاف مساعي منظمة التجارة العالمية: وهي الأمور التي تختلف فيها الولايات المتحدة مع دول الاتحاد الأوروبي.



بعد ١١ سبتمبر

وبرأي الياس سابا فإن «الولايات المتحدة، اليوم تتصرف، على الصعيد السياسي، بشكل يناقض النظام الدولي الذي قام بعد الحرب العالمية الثانية وركيزته الأمم المتحدة والمؤسسات التابعة لها كما يناقض أيضا، على الصعيد الاقتصادي، نموذج النظام المعولم الذي قام بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وثورة المعلوماتية. بكلام آخر، فإن الولايات المتحدة، بعد أحداث ١١ سبتمبر، وتحت ذريعتها، انقضت على النظام الدولي القديم المتداعي، كما انقضت أيضا على النظام العالمي الجديد الذي لم يكتمل نموه بعد، وهي تتصرف بشكل أقرب ما يكون إلى تصرف الإمبراطوريات الغابرة، كالإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفرنسية. (السفير ٢٠٠٣/٣/١٩).

٣- الجديد في النزعة الإمبراطورية الأمريكية، أيضا، هو نمو النزعة العسكرية في سياسة الولايات المتحدة، وتحديدا تزايد الميل لاستخدام القوة، لفرض سياساتها، كما لفرض ذاتها كقطب أوحد على النظام الدولي.

ومعنى ذلك أن الولايات المتحدة اليوم وفي عهد الرئيس بوش هي غير أمريكا كلينتون، التي كانت تحاول فرض إملاءاتها وسياساتها ومصالحها: السياسية والاقتصادية والأمنية، بوسائل المفاوضات والضغط الاقتصادي والدبلوماسي والسياسي. إذ أن إدارة الرئيس بوش تتبنى عقيدة تقوم على مبدأ التدخل المباشر، لإحداث تغييرات تتلاءم مع المصالح الأمريكية. وهذا يشكل التدخل بواسطة القوة العسكرية، واعتماد الحرب الوقائية كوسيلة للتغيير السياسية والاقتصادي في البلدان الأخرى.

٤- من المهم الإدراك جيدا أن ما حسم هذا التحول في الاستراتيجية الأمريكية إنما هو زلزال ١١ سبتمبر ٢٠٠١، التي بات بمثابة «بيرل هاربر» ثانية في العقل السياسي الأمريكي. وهذا التحول هو نتاج قناعة مفادها أن مسارات «العولمة» التي وحدت مصائر العالم وحدت أيضاً مخاطره، بحكم انتشار وسائل العولمة. ما يعني أن مشاعر الغضب والإحباط والفقر وضعف الاستقرار في دولة ما قد ينعكس على دول أخرى، ضمنها أمريكا، بغض النظر عن علاقات حكومة هذه الدولة بالولايات المتحدة الأمريكية.

ومن قراءة الوثائق المذكورة يمكن ملاحظة بأنه ثمة تحولات مهمة دخلت على رؤية أمريكا لذاتها ولدورها العالمي، ومن ضمن ذلك مفهومها لأمنها القومي، الذي لم يعد يقتصر على ما يجري وداخل حدودها وإنما بات يشمل، أيضا، العالم، لا سيما العالم العربي والإسلامي، بسبب انتشار الفقر والجهل والتسلط والفساد فيه. وبرأي الاستراتيجيين في الإدارة الأمريكية، فإن هذه العوامل هي بمثابة التربة الخصبة لتنامي النزعات الأصولية والتطرف والإرهاب، التي باتت تهدد الاستقرار في المنطقة والاستقرار العالمي، ومن ضمن ذلك الولايات المتحدة ذاتها، كما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

والفكرة المركزية التي استنتجها المخططون الاستراتيجيون في الإدارة الأمريكية، ومن ضمنهم تيار «المحافظون الجدد»، أن وجود علاقات تاريخية وطيدة مع أهم دولتين عربيتين (مصر والسعودية) لم يمنع مواطنين من هاتين الدولتين، من تنفيذ عمليات ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة. ويعتقد هؤلاء المخططون بأن مشاعر الغضب والإحباط والتطرف إنما تتغذى من انتشار الفقر وتدني مستوى التعليم وسوء إدارة الدولة. وإن وضع حد للتطرف والإرهاب والأصولية الإسلامية إنما يتطلب إصلاح أنظمة الحكم، في البلدان العربية، ونشر الديمقراطية وتحقيق إصلاحات اقتصادية، وفتح الأسواق، وجذب الاستثمارات، وتغيير مناهج التعليم والثقافة، أي تحسين مستوى المعيشة والتعليم والديمقراطية.

وعلى اعتبار أن الإدارة الأمريكية، تضررت من هذا الواقع (بهجمات أيلول) فإنها باتت تعتقد بأنه من حقها أن تعمل على تحقيق هذه الإصلاحات في بنى الأنظمة العربية ولو تطلب ذلك منها التدخل المباشر والقوة العسكرية، ومثال ذلك ما يحدث مع السلطة الفلسطينية وما حدث في العراق، وما تحاول تعميمه على العديد من الأنظمة العربية.

٥- ما يميز السياسة الأمريكية، في عهد الرئيس بوش، أنها باتت تخضع (لا سيما بعد حدث سبتمبر ٢٠٠١) لتيار «أيديولوجي»، هو تيار «المحافظون الجدد». وهذا التيار يتبنى موقفاً متشدداً، مفاده أنه ثمة صراع بين الخير والشر، في العالم، وأن الأخيار يجب أن يقفوا في صف الولايات المتحدة الأمريكية، ومن لا يقف هذا الموقف فهو يقف في خندق الأشرار! ويعتقد هذا التيار أنه ثمة دور دولي (رسولي) للولايات المتحدة الأمريكية عليها القيام به، لما تتمتع به من إمكانيات ووسائل القوة، لنشر الديمقراطية وحقوق الإنسان والاقتصاد الحر، وإصلاح العالم وبنائه على شاكلة النموذج الأمريكي، أو على الأقل بما يتلاءم والمصالح الأمريكية، وذلك للتوفيق بين المثل الأمريكية والقوة الأمريكية.

وقد وضعت هذه المجموعة نظرياتها في خدمة السياسة الخارجية الأمريكية، بدعوى أنه ينبغي على الولايات المتحدة تعزيز مركزها الإمبراطوري في العالم، وعكس قوتها الحقيقية، عن طريق التدخل الفعال لنشر رسالتها «الحضارية» فيه، ليس بالاعتماد على الوسائل السلمية، فقط، ولا بالاستناد للمنظمات الدولية، فحسب، وإنما، أيضاً، بوسائل القوة العسكرية والمبادرة للحرب الاستباقية. على أساس أن أمريكا هي خير مطلق وأن معارضي أمريكا هم شر مطلق، ينبغي محاربتهم واستئصالهم إن لم يمكن تغييرهم!

وقد برزت هذه المجموعة كمركز قوة في عهد الرئيسين السابقين رونالد ريغان وجورج بوش (الأب)، ولم يكن لهم الغلبة في الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون، ولكنهم في عهد إدارة بوش (الابن)، ولا سيما بعد حدث سبتمبر ٢٠٠١، أصبحت لهم الكلمة الأولى في تقرير وجهة السياسة الأمريكية بحكم موقعهم المتنفذ فيها، ومن هؤلاء وزير الدفاع دوناد رامسفيلد ونائبه بول فولفويتز ومساعده دوغلاس فايث ومسؤول السياسة الدفاعية في البنتاغون ريتشارد بيرل (استقال مؤخراً) والمسؤول عن ملف الشرق الأوسط في وزارة الخارجية أليوت ابراهامز ومستشار نائب وزير الدفاع الأمريكي لشؤون رقابة السلاح ديفيد وورمسر، ورئيس تحرير مجلة «ويكلي ستاندارد» وليام كريستول ودانيال بايبس وروبرت كاغان من «الويكلي ستاندرد»، ولويس ليبي، رئيس موظفي نائب الرئيس ديك تشيني، ومارك غروسمان نائب وزير الخارجية للشؤون السياسية، وريتشارد هاس مدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجية، وروبرت زوليط ممثل تجاري أمريكي على المستوى الحكومي.

وفي هذا السياق أيضاً، يمكن فهم تقرير «البنتاغون» الشهير، الذي كتبه «لوران مورافيك» لمؤسسة «راند» بإشراف ريتشارد بيرل، والذي شخص فيه حتى المملكة العربية السعودية بوصفها عدوا للولايات المتحدة!. وكان بيرل هذا (من أهم منظري تيار المحافظين الجدد) دعا أثناء حرب العراق، إلى التخلص من الأمم المتحدة ومجلس الأمن وإنشاء تحالف «الراغبين» من دول «ديمقراطية» مختارة. وبعد

بعد ١١ سبتمبر

حرب العراق، وفي محاضرة نظمها معهد أبحاث «أمريكان انترابرايز» يوم ٤/١٥ في واشنطن، طالب بيرل الإدارة الأمريكية بعدم منح العرب مكافآت عن احتلال أمريكا للعراق، لتطييب خاطرهم (!)، على شكل الشروع بالعمل وفق خطة «خريطة الطرق» مثلا، لأن ذلك برأي بيرل سيعطي إشارات خاطئة للعرب وستفهم على أنها دليل ضعف من أمريكا. ودعا بيرل، في محاضرته، الكونجرس إلى دعم الجماعات المعارضة للنظام في سورية في الخارج، واستبعاد الأمم المتحدة والدول الأوروبية التي عارضت حرب العراق من أي تأثير سياسي واقتصادي في المنطقة.

وكان بيرل عمل مع دوغلاس فايث وديفيد وورمسر (من أركان المحافظين الجدد) على وضع وثيقة بتصرف بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، في العام ١٩٩٦، لقيادة إسرائيل تحت عنوان: «استراتيجية إسرائيلية للعام ٢٠٠٠». وهذه الوثيقة ركزت، في حينه، على ضرورة القطع مع صهيونية حزب العمل واحياء الصهيونية! وصوغ رؤية جديدة لشراكة أمريكية - إسرائيلية مرتكزا على المصالح والقيم المشتركة وترك إسرائيل تتدبر شؤونها في المنطقة من دون تدخل أمريكي، باعتبار ذلك حقا لإسرائيل لأنها ليست مدينة لأمريكا ولا يجب، لذلك، أن تكون مرتهنة لمصالحها وسياساتها. وأكدت الوثيقة على وجوب عدم خضوع أمريكا لمطالب العرب والأخذ بمصالح إسرائيل الأمنية وضمان تفوقها النوعي في مختلف المجالات. وطالبت الوثيقة بتحجيم سورية وتغيير النظام في العراق وبتجاوز عملية التسوية، لأنها فرضت شرعية إسرائيل وأدت بها إلى شلل استراتيجي، ولأن البيئة العربية غير مستقرة وفيها عداوات ومنافسات تحول دون قيام شرق أوسط جديد. واقترحت الوثيقة فرض عملية سلام جديدة أساسها القبول غير المشروط من قبل العرب بحقوق إسرائيل!.. لأن «بقاء إسرائيل غنية راسخة وقوية هو ضمان للمصالح الأمريكية ولقيام شرق أوسط مسالم».

ويستنتج من ذلك أن التحول في الاستراتيجية الخارجية الأمريكية، لم يأت بسبب نشاط مجموعة أصولية مسيحية (تيار في البروتستانتية)، فقط كما يحلو للبعض تفسير الوضع.كما أن التحول لم يحصل بنتيجة جهد مجموعة من المثقفين اليهود العاملين في الإدارة الأمريكية، فحسب، كما يشيع البعض. فإضافة إلى هذا وذاك، فقد حصل هذا التحول، أساسا، بنتيجة تنامي شعور أمريكا بقوتها وتزايد إحساسها بالقدرة على التفرد في الهيمنة على العالم، ونتيجة للتوافق بين مجمع النفط ومجمع الصناعات الحربية، فيها.

وأيضا، حسم هذا التحول لأن الولايات المتحدة التي تعرضت لضربة قاتلة، بحجم هجوم في (١١ سبتمبر ٢٠٠١)، على أهم رمزين من رموز قوتها وغطرستها، تريد التعويض عن نفسها، والإثبات للعالم أنها دولة لا تقهر. وقد وجدت الولايات المتحدة هذه، في تنظيرات «المحافظين الجدد»، ضالتها للهيمنة على العالم، وتغييره على شاكلتها، بدعوى نشر وتعميم منجزاتها وقيمها ورسالتها.

السياسة الأمريكية الجديدة في الشرق الأوسط:

في أية حال فإن ما يهمنا من دراسة الخلفيات والدوافع، التي حكمت التحول في السياسة الأمريكية، هو معرفة الكيفية التي ستنعكس فيها هذه السياسة، في المرحلة القادمة، على العلاقات الأمريكية - العربية، وعلى مسار الصراع العربي - الإسرائيلي، وعلى المصالح الأمريكية في المنطقة.

ومن تفحص الوثائق السابقة، ومتابعة الخطابات التي تصدر عن أركان الإدارة الأمريكية، وتحركات الولايات المتحدة، في العالم العربي، يبدو أن السياسة الأمريكية في المنطقة خلال الفترة القادمة، ستتسم بالجوانب التالية:

١- واقع التواجد المباشر في المنطقة العربية، وهذا يعني ان الولايات المتحدة لم تعد بحاجة لوكيل يعمل بدلا عنها ولا لحارس يصون مصالحها (دون أن يعني ذلك أنها ستتخلى عن دعمها لإسرائيل). ولكن ذلك لا يعني، أيضا، بأن الإدارة الأمريكية ستكون حازمة في إعادة ترتيب أوضاع المنطقة بهذا الشكل أو ذاك ومن ضمن ذلك الشروع في عملية التسوية ذاتها.

٢- اللافت أن مطالبة الإدارة الأمريكية، المنطقة بإصلاح أو تغيير العالم العربي، لم تعد تقتصر على الأنظمة «الراديكالية»، أو المعادية لها، وانما باتت تشمل ما يعرف بالأنظمة الصديقة لها.

كذلك لأن هذه الإدارة، في سعيها لتحقيق استقرار مصالحها في المنطقة العربية، لم تعد تكتف بالاعتماد على الأنظمة أو الطبقات السياسية الحاكمة، فقط، إذ بات الأمر، بالنسبة لها، يتضمن العمل داخل المجتمعات العربية ذاتها، لإجراء تغييرات أساسية فيها، تطال المجالات: السياسية والاقتصادية والثقافية، (فكرة نشر الديمقراطية التي طرحها كولن باول



بعد ١١ سبتمبر

وزير الخارجية الأمريكية في خطابه يوم ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٢).

ويستنتج من ذلك أن الاستراتيجية الأمريكية التقليدية، إزاء المنطقة، والتي كانت تقتصر على: ضمان تدفق النفط، وحماية أمن إسرائيل، وعدم السماح لأية دولة منافسة الحلول محلها، والحفاظ على استقرار النظم السياسية في المنطقة، باتت تشمل، أيضا، إدخال تغييرات في المبنى الداخلي للنظام الرسمي العربي، في إطار محاولتها إعادة هيكلة المنطقة.

والواقع فإن الولايات المتحدة، بعد نجاح مخططاتها في العراق، لن تعدم الحجة في محاولاتها التدخل في شؤون البلدان العربية فهي ستتدخل حينا بحجة مواجهة الإرهاب ونزع السلاح أو الحد من نفوذ «الإسلام السياسي المتطرف»، أو بحجة الدفاع عن حقوق الإنسان أو الأقليات الأثنية ونشر الديمقراطية وإصلاح النظم السياسية والاقتصادية والتعليمية، ولربما يصل الأمر إلى حد فرض الوصاية الدولية على هذا النظام أو ذاك، بشكل أو بآخر: وما ينبغي لفت الانتباه إليه هنا هو أن الإدارة الأمريكية لا يهمها كثيرا إن كانت حججها هذه مدعمة بأسانيد أم لا (كما بينت التجربة في العراق) كذلك لن يهمها قرارات الشرعية الدولية ولا مجلس الأمن. فأمريكا هي التي تقرر وهي المعيار، وهذا ما يجب وعيه والحذر منه!

٣- إن الإدارة الأمريكية تنطلق، في عملية التغيير، من قناعة مفادها أن عدم الاستقرار في المنطقة لا ينبع من وجود إسرائيل وعدوانها واحتلالها وإنما ينبع من طبيعة الأنظمة العربية ذاتها، ومن علاقات هذه الأنظمة مع شعوبها ومع دول الجوار! ما يعني أن سبب تعثر عملية التسوية في المنظور الأمريكي، ليس له علاقة بسياسات إسرائيل ومواقفها المتعنتة وإنما هو مرتبط بالأنظمة السائدة التي تتغذى من هذا الصراع لتعزيز شعبيتها وإلهاء جماهيرها!

٤- إن الإدارة الأمريكية، باتت أكثر حساسية تجاه ضرورة إيجاد حل لمختلف جوانب الصراع العربي - الإسرائيلي، لأهمية ذلك لاستقرار وضمان مصالحها في هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم. ومن الواضح، بعدكل هذه المعطيات، أنه ثمة ميل لفرض مثل هذا الحل، على الأطراف المعنيين، بغض النظر عن مدى تجاوب هذا الطرف أو ذاك مع الحلول المطروحة: خصوصا بعد أن ثبت استحالة توصل هذه الأطراف لوحدها إلى حل متفق عليه. وطبيعي أن مستوى وشكل الضغط على إسرائيل سيختلف عن مثيله بالنسبة للعرب.

٥- إن مجمل التصريحات الأمريكية المتعلقة بإعادة هيكلة المنطقة العربية والتخلص من الصراع العربي- الإسرائيلي، وإقامة منطقة تجارة حرة بين الولايات المتحدة ودول المنطقة، تؤكد بأن أمريكا لم تتراجع عن مشروعها «الشرق أوسطي» الذي طرحته منذ مطلع التسعينيات، كما قدمنا، برغم كل العراقيل الذي واجهت هذا المشروع وأدت إلى فشله، وهذه ملاحظة على غاية الأهمية، ويمكن لفت الانتباه هنا إلى تمسك الإدارة الأمريكية بالمشروع السعودي (انسحاب مقابل تطبيع وعلاقات تعاون إقليمي).

والجديد في الأمر، ربما، أن الولايات المتحدة الأمريكية، التي فشلت في فرض المشروع الشرق أوسطي، في العقد السابق، بوسائل الابتزاز السياسي والضغط الدبلوماسي والإغراء الاقتصادي، ستحاول في هذه المرة فرض هذا المشروع بوسائل الضغط والإكراه وبالقوة العسكرية، حيث يلزم الأمر، إن منفردة أو بالتعاون مع الكيان الإسرائيلي، وهذا ما أكده وزير الخارجية الأمريكي كولن باول، يوم ٢/٦/ ٢٠٠٣، أمام مجلس الشيوخ الأمريكي حين عبر عن اعتقاده بأن إسقاط النظام العراقي قد يفسح المجال لإعادة صوغ المنطقة بطريقة إيجابية تعزز مصالح الولايات المتحدة، خصوصا إذا تم تحقيق السلام في الشرق الأوسط. وربما أن الترتيبات الشرق أوسطية، هذه المرة، لن تخضع للأهواء التي سادت سابقا في مؤتمرات «القمة الشرق أوسطية للتنمية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا»، أو لجان المفاوضات متعددة الطرف وإنما ستكون على شكل خطط عمل ومقترحات للتنفيذ تتابع من قبل الإدارة الأمريكية.

٦- ستبقى إسرائيل حجر الزاوية والحليف المركزي للسياسة الأمريكية في المنطقة لا سيما بعد أن تبين أن أصدقاء أمريكا في المنطقة العربية لا يستطيعون الذهاب بعيدا في التساوق مع سياسات البيت الأبيض، وحتى تركيا، وبرغم من كل روابطها ومصالحها مع أمريكا، مانعت السماح في حرية الحركة للقوات الأمريكية في العدوان على العراق. وما يجب أخذه بعين الاعتبار هنا هو أن إسرائيل شارون أو إسرائيل الليكود هي اليوم أقرب إلى عقل وقلب الإدارة الأمريكية أكثر من أي وقت مضى، وذلك بحكم المصالح وبحكم الرؤى التي يتبناها تيار «المحافظين الجدد» في الإدارة الأمريكية، والذي يبدو في كثير من الأحوال ليكوديا أكثر من شارون نفسه.

٧- إن الولايات المتحدة دخلت في حقبة جديدة من التنافس الدولي، ما يجعلها أكثر استشراسا وحراكا في محاولاتها تعزيز هيمنتها على المنطقة العربية من النواحي السياسية والاقتصادية والأمنية باعتبارها، بموقعها وثرواتها النفطية، مدخلاً مهما لتسهيل الهيمنة الأمريكية على النظام الدولي. وتبين المعطيات أن العراق لوحده، مثلا، يمتلك ١٣٠ مليار برميل من النفط، في ٧٣ حقلا لا يستثمر منها الآن إلا حوالي ١٥ حقل، وأنه يمتلك حوالي ١٥٠ - ٢٥٠ مليار برميل من النفط في المخزون الاحتياطي وهذا ما يفسر الجهد المحموم لأمريكا في احتلال العراق ووضع يدها على نفطه للتحكم في توزيعه وأسعاره.

عموما هذه مجرد محاولة أولية لتفسير وتحليل السياسة الأمريكية الجديدة، في هذه الظروف الصعبة والحرجة والخطيرة، لتبين الاستحقاقات والتحديات الناجمة عنها، بعيدا عن العواطف والتمنيات أو التوهمات والشعارات، فقد دفعت الأمة العربية، ثمنا باهظاً جراء تضارب الإرادات والمزايدات وجراء تغليب العواطف والرغبات على حساب القدرات والإمكانيات، وهو ما يتطلب العمل على التعامل مع السياسة باعتبارها محصلة تفاعل إرادات وبنى وموازين قوى.

وما يجب التأكيد عليه هنا، أيضا، هو أن إرادة الإدارة الأمريكية ليست قضاء لا راد لها، كما أن هذه السياسة، ذاتها تخضع لتغيرات، كما بينا، ويمكن التأثير فيها، في حال توفرت الإرادة والإدارة والوسائل المناسبة.

واللافت أن النظام العربي، بحاجة ماسة، لتحرير إرادته والشروع بمراجعة جادة لإصلاح وتطوير بناه الداخلية: السياسية والاقتصادية والثقافية (بحسب أولوياته وحاجاته)، على قاعدة تعزيز دولة المؤسسات والقانون والمواطنين، وترسيخ الديمقراطية والمشاركة الشعبية والتعددية في الحياة السياسية، وباتجاه تعزيز التكامل العربي، وذلك ليس، فقط، في سبيل مواجهة التحديات والمخاطر، التي يتعرض لها العرب في هذه المرحلة، وإنما، أساسا، لمواكبة مسارات ومتطلبات الحداثة والتطور والحياة، أيضا، في القرن الحادي والعشرين.

سياسة حكومة شارون

كارثة جديدة تحت ذريعة الأمن الإسرائيلي

منذ انطلاق الانتفاضة الفلسطينية في نهاية العام ٢٠٠٠، شهدت المنطقة والعالم متغيرات مفصلية أثرت بشكل مباشر على معادلة الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، وكانت هذه المتغيرات في معظمها في غير صالح الطرف الفلسطيني، ما جعل إسرائيل توظف هذه المتغيرات لمصلحة خطابها السياسي الذي أخذ يلاقي رواجا بعد هذه المتغيرات، والذي كان يقابل بالصد قبلها. لم تنجح إسرائيل دائما في توظيف المتغيرات، ولكنها في التقييم العام، قد وظفتها لمصلحتها. في محاولة لتغيير صورة إسرائيل في العالم، التي كانت تختصرها صورة الجلاد المحتل لأراضي الآخرين، وفي كثير من الحالات استطاعت إسرائيل أن تقلب صورتها من جلاد إلى ضحية لـ «الإرهاب الفلسطيني» وما كان ذلك ليحدث لولا المتغيرات التي شهدها العالم بعد الضربات التي تلقتها الولايات المتحدة في أيلول من العام ٢٠٠١ والذي نقل الإرهاب إلى القضية المركزية على مستوى العالم. أتت هذه المتغيرات لتصب في صالح إسرائيل.

ولا يختلف الوضع بالنسبة للمتغيرات التي شهدتها المنطقة، فالاحتلال الأميركي للعراق، وتغيير المعادلة الاستراتيجية في المنطقة، أخل من جانبه - أيضا - بمعادلة الصراع (الفلسطيني-الإسرائيلي)، وبهذا الاحتلال تحولت الولايات المتحدة إلى فاعل إقليمي مباشر، وجار جديد من دول الجوار في المنطقة. واليوم لم تعد الدول العربية فاعلاً إقليمياً في المنطقة، لأن الدخول الأميركي بالصورة التي شهدناها في العام الماضي، جعل الدول العربية تنشغل في إعادة ترتيب أوضاعها السياسية لتجنب أي صدام مع الإدارة الأميركية، وبذلك تحولت القضية الفلسطينية إلى مزيد من التهميش في العالم العربي، ولم تعد القضية المركزية بعد التهديدات المباشرة التي باتت تشكلها الولايات المتحدة الأميركية.

وعلى المستوى الداخلي الإسرائيلي، كانت التغيرات التي شهدتها إسرائيل هي مزيدا من التحول باتجاه اليمين، وكان أبرز عنوان لهذا التوحل هو انتخاب مجرم الحرب أرئيل شارون رئيسا للوزراء في مواجهة أيهود باراك في المرة الأولى. وتعزز هذا التحول بإعطاء حزب الليكود الذي على رأسه شارون أغلبية المقاعد في الكنيست التي انتخبت أوائل العام الماضي، بينما ظهر اليسار الإسرائيلي مدمرا في تلك الانتخابات. وبذلك لا يكون شارون قد وصل إلى السلطة في إسرائيل وحسب، بل هو يمارس السلطة دون معارضة، بعد انهيار اليسار الإسرائيلي. وهو يدير سياسة ليس لها بديل اليوم في إسرائيل، فسواء سقط شارون بفعل سياسي، أم نتيجة قضايا وفضائح الفساد، فإن البديل هو بديل يميني أسوأ، عنوانه الأبرز بنيامين نتنياهو.

يعي اليمين الإسرائيلي المتغيرات التي ذكرناها، وهو يحاول توظيف هذه المتغيرات إلى الدرجة القصوى. وهو يدرك أن هذه المتغيرات وأي متغيرات في عالم السياسة هي تغيرات مؤقتة يجب استثمارها لفرض وقائع على الأرض تكرس المصالح الإسرائيلية. وكان توظيف هذه التغيرات بالشكل الأمثل يعتمد على الادعاءات الإسرائيلية، بأن وجود دولة إسرائيل كله في خطر، وبالتالي،



سمير الزين

فإن أي مدخل للحل يكون عبر تدعيم الأمن الإسرائيلي، هذه هي اللعبة المفضلة التي يلعبها شارون، وسيبقى يلعبها إلى وقت طويل في الوقت الذي يفرض الوقائع على الأرض الفلسطينية ليمنع أي حل.

يعتقد ارئيل شارون أن الهاجس الأمني الذي أطلقه في حملتيه الانتخابيتين هو الذي أوصله إلى السلطة في إسرائيل. لذلك عليه المحافظة على وعوده الانتخابية، والعمل على تحويل الخطاب الأيديولوجي الأمني إلى برنامج عمل سياسي للحكومة الإسرائيلية، من أجل بناء إسرائيل المنيعة أمنيا من خلال آلتها العسكرية، التي لا تجد من حلول للمواجهة مع الفلسطينيين سوى المزيد من القتل والدمار في الأراضي الفلسطينية. وبعد الفشل الذي منيت به التوغلات والاجتياحات الإسرائيلية في «تجفيف مستنقع الإرهاب» حسب التعبير الإسرائيلي، وجد شارون نفسه ينقاد إلى مشروع «الجدار الفاصل» لمعالجة المواجهة مع الفلسطينيين. فعاد ليوافق عليه بعد أن كان من أشد المعارضين له سابقا. ففي الوقت الذي تدافع فيه الحكومة الإسرائيلية عن الجدار بأنه ذو طبيعة أمنية يهدف إلى منع «الإرهاب الفلسطيني» من الوصول إلى العمق الإسرائيلي، فهو في حقيقة أهدافه الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية. فالجدار الذي يفترض فيه أن يحمي إسرائيل من «الإرهاب الفلسطيني» يحتاج إلى ضم ٥٢٪ من الأراضي الفلسطينية ليؤدي وظيفته الأمنية ويحول الأراضي الفلسطينية إلى معازل بشرية ومعتقلات جماعية.

إذا كان من الصحيح أن «الجدار الفاصل» هو نكبة جديدة للفلسطينيين، فإن آخر ما يمكن أن يحققه الجدار هو الأمن لإسرائيل، ليس بالمعنى التقني لمفهوم الأمن، بل بالمعنى السياسي. فإن اعتقدت الحكومة الإسرائيلية أن هذا الاقتطاع للمساحات الواسعة من الأراضي الفلسطينية، سيجلب الأمن لها دون حساب لفعل البشر الذين دمر الجدار حياتهم ووطنهم تكون مخطئة، بل هو معادلة لتأجيج الصراع، وليس معادلة لحماية أمن إسرائيل.

ولن يحل المشكلة تكرار مفردة «الأمن» التي أصبحت تشكل كل قاموس شارون السياسي وقاموس الحكومة الإسرائيلية، وهو لا يكل من إعادة كل القضايا إلى الموضوع الأمني والمخاطر التي يشكلها «الإرهاب الفلسطيني» ليس على إسرائيل فحسب بل وعلى العالم، محاولا أن يظهر نفسه في طليعة المعركة «ضد الإرهاب» التي أعلنتها الولايات المتحدة والتي تشغل العالم.

يفضل شارون الظهور بمظهر الرجل القوي لدولة قوية، وهو يعتقد أن إسرائيل قادرة على فرض شروطها على الآخرين وأن الظرف موات لإجبار الآخرين، خاصة الفلسطينيين، على التكيف مع هذه الشروط. ولذلك لا انطلاق إلى أية مفاوضات أو عملية سياسية دون توقف كل ما يجري في الأراضي الفلسطينية، وإصلاح السلطة الفلسطينية!! وكل ذلك يجب أن يتوافق مع المتطلبات الأمنية لإسرائيل، وإلا كان التوجه إلى أي عملية سياسية هو مكافأة لـ «الإرهاب الفلسطيني».

والسؤال الذي يفرض نفسه ما هي المتطلبات الأمنية الإسرائيلية حسب وصفة شارون؟ لا تقتصر فائدة الإجابة على هذا السؤال لمعرفة المتطلبات الأمنية لشارون فحسب، بل الأهم، هل تبقي هذه المتطلبات أي أفق لحل سياسي؟

يبني شارون متطلباته الأمنية على قاعدة أن إسرائيل في خطر لم تشهده منذ «حرب الاستقلال»، وعليها أن تتحول إلى «قلعة أمنية» لمواجهة المخاطر المحدقة بها من كل الجهات، وهذه القلعة لا يجب أن تكون محمية من الجيش والأمن الإسرائيلي فحسب، بل يجب أن يكون «الأمن الإسرائيلي» على رأس أولويات الآخرين في المنطقة، وشعار إصلاح السلطة الفلسطينية الذي رفعه شارون له عنوان وحيد، هو إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية الفلسطينية ووضعها في خدمة وإدارة إسرائيل مباشرة. فإسرائيل التي تملك «خاصرة رخوة» مع الفلسطينيين، يتحتم عليها الاستمرار في السيطرة عليهم، وإذا كان هذا لا يقوله شارون مباشرة، فهو واضح من سياسته التي تستهدف التعطيل، وعدم الذهاب في أي اتجاه، فقد اكتشف سابقا ذريعة (السبعة أيام هدوء) واجترها إلى نهايتها، وها هو اليوم يكتشف ذريعة الإصلاحات التي ستشغل الساحة السياسية في المنطقة إلى وقت طويل، إذا لم يقم شارون بالإطاحة بالسلطة الفلسطينية والعودة إلى الاحتلال من جديد، وهو ينتظر الفرصة المواتية من أجل هذا الحل الذي يعتبره الأمثل بالمعنى السياسي له. فشارون لم يتخل عن خلفيته الأيديولوجية، لذا لم يتورع عن الادعاء بأن إسرائيل تخوض اليوم حرب استكمال لـ «حرب الاستقلال»، وهو ما يفسر سلوكه السياسي، فهو لا يخفي معارضته لاتفاق أوسلو، ورفض أية مناقشة لموضوع المستوطنات، مع أن هذا الطلب جاء من شركاء له في الحكومة الإسرائيلية، وحتى عندما دار الحديث السياسي في المنطقة والولايات المتحدة عن اقتراح على مقاس الاقتراح الذي قدمه بنفسه بإقامة دولة فلسطينية على ٤٢٪ من الأراضي الفلسطينية، عاد ورفضه، وهو لم يبق شيئا من خارطة الطريق التي طرحتها اللجنة الرباعية وتبنتها الولايات المتحدة، واعتبرتها مشروعها للحل بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

إن السياسة الإسرائيلية التي يتبعها شارون تجاه الفلسطينيين تسعى لفرض كل الاشتراطات مسبقا وقبل الوصول إلى أية مفاوضات، ما يعني إلغائها قبل الوصول إليها، ليس بفضل الاشتراطات فحسب، بل وبفعل السياسات الدموية الإسرائيلية اليومية في الأراضي الفلسطينية، وبفضل سياسات «الجدار الفاصل» والسياسة الاستيطانية. وإذا لم تستجب القيادة الفلسطينية لهذه الشروط الإسرائيلية، فإن إسرائيل ترى نفسها معنية بتنفيذ شروطها عبر آلتها العسكرية.

يحشد شارون قائمة كاملة من الشروط الأمنية والسياسية المسبقة، في الوقت الذي يدعو فيه الأطراف العربية للدخول في عملية مفاوضات مرة أخرى من دون شروط مسبقة. وهو يعتقد أن هذه الشروط ستجد استجابة لها عند الأطراف العربية، لإيمانه بأن العرب سيتلائمون مع الواقع القائم في نهاية الأمر، ولن يستمروا بضرب رؤوسهم في الجدار، وعند ذلك تكون إسرائيل قد جنت ثمار كل سياساتها وفرضتها كأمر واقع. لذلك يعمل شارون على أن تتآكل العملية السياسية من خلال المماطلة. والخطر الحقيقي الذي تشكله سياسته، هو تقديره لردة الفعل العربية، بحيث يبدو على قناعة كاملة بأن الجانب العربي سيستمر في تفادي إشعال المنطقة بحرب جديدة تكلفتها عالية، من خلال الاستجابة للشروط الإسرائيلية، وهذا ما شاهدناه في الأونة الأخيرة في التحركات السياسية العربية.

الاشتراطات التي يضعها شارون للعودة إلى العملية السياسية، هي تدمير لأية مفاوضات ممكنة، ومهمة التفاوض حسب منطقه هو حماية أمن إسرائيل ولا مهمة أخرى لها مثل إعادة أراضي للفلسطينيين أو للسوريين. فقراءة سياسة شارون ليست بحاجة إلى مراقب حاذق وذكي لنبش أهدافها، فأهدافها واضحة، بدفن عملية المفاوضات تحت مقولة الأمن، وقضم ما تحقق على الأرض باعتباره يشكل تهديدا لإسرائيل.

تجد اسرائيل اليوم كل الظروف مواتية لمشروعها العدواني وارتكاب جريمة جديدة بحق الفلسطينيين، وفي مثل هذه الظروف يصعب على الفلسطينيين أن يجدوا الوسائل الملائمة للرد على هذه السياسات العدوانية، ورغم أن خياراتهم ليست كبيرة، إلا أن الرد على سياسة شارون ممكن، وإلا سنبقى ننتظر حتى تتحقق كارثة جديدة أمام أعيننا!

قمة مونتيري

... تعزيز التعاون التنموي

تحت خيمة العولمة..!

اختتمت في مدينة مونتيري المكسيكية قمة دول القارة الأمريكية التي استمرت يومي ١٢و١٣/١/٢٠٠٤، وضمت رؤساء دول وحكومات ٣٤ بلدا من الأمريكيتين، بالاتفاق على (مكافحة الفقر، وتشجيع التنمية الاجتماعية، وتحقيق نمو اقتصادي عادل وتعزيز حسن إدارة انظمتها الديمقراطية).

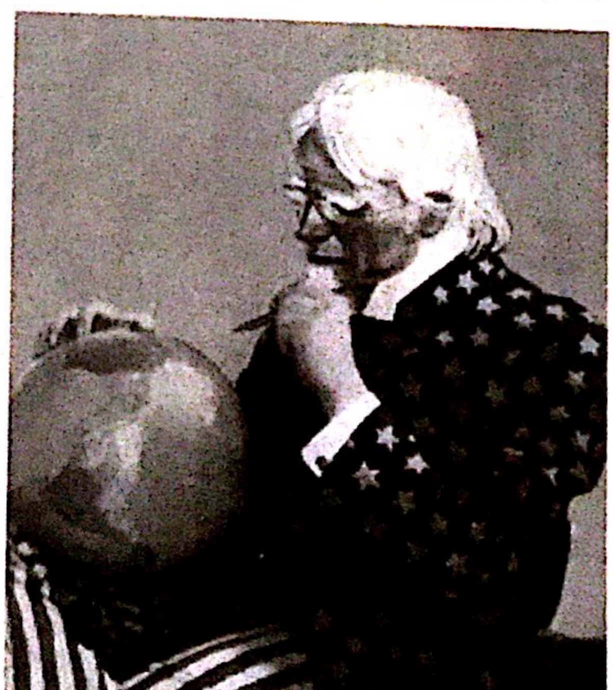
محمد صوان

اكد البيان الختامي على الحاجة لتعبئة الموارد المالية وزيادة فعالية استخدامها، وذلك في إطار من الشراكة بين الدول المتقدمة والنامية. كما أشار البيان إلى أن جهود التنمية يجب أن تركز على قضايا (الاستدامة، وعلاقات النوع، والتوجه نحو البشر). إذ تلعب التجارة والتدفقات الاستثمارية دورا أساسيا وفق طرح (مونتيري)، الذي شجع كذلك الترتيبات الاقتصادية الإقليمية.. وشدد البيان على أن سقوط برجي منظمة التجارة العالمية في نيويورك يوم ٢٠٠١/٩/١١ قد جدد الإرادة للعمل المشترك، وذلك انطلاقا من القناعة بأن السلام والتنمية لا ينفصلان.

هذا وقد قسمت القمة، جدول الأعمال الرئيسية من الآن وحتى القمة القادمة إلى:

١ - تعبئة الموارد الداخلية من أجل التنمية:

تتمثل نقطة الانطلاق هنا في تهيئة البيئة الداخلية لتشجيع المبادرات الحكومية والخاصة، وضبط معدلات التضخم، وتفادي تقلبات الاقتصاد، كذلك اتباع أسلوب حكم رشيد، ومكافحة الفساد، وضمان عدالة توزيع الدخل، وتحرير المرأة وحماية حقوق العمال.



٢ - تعبئة الموارد الدولية من أجل التنمية:

اوضح البيان الختامي: أن التدفقات الرأسمالية، ولا سيما الاستثمار الأجنبي المباشر من أهم محددات التنمية. ومن هنا دعا لخلق المناخ الملائم داخليا وخارجيا لتسهيل هذه التدفقات. كما دعا البيان المؤسسات الدولية والإقليمية لتحمل مسؤوليتها من أجل دعم الاستثمار في البنية التحتية للدول النامية، وحث مجتمع الأعمال أن يضع في حساباته التبعات التنموية، والاجتماعية، وعلاقات النوع والبيئة لمشاريعه، وتشجيع آليات التمويل المشتركة بين القطاعين العام والخاص من أجل دعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة في الدول المتلقية.

٣ - تنمية التعاون الدولي المالي والتقني من أجل التنمية:

تمحورت هذه النطقة حول مساعدات التنمية الرسمية. فقد حث البيان الدول المتقدمة على زيادة نسبة مساعداتها إلى الدول النامية لتصل إلى ٧. ٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي، وإلى ما بين ١٥. ٠٪ و٢. ٠٪ منه في حالة الدول الأقل نموا. وهذه النسب محل اتفاق دولي منذ عام ١٩٩٢ في مؤتمر (ريودي جانيرو)، واكد عليها مؤتمر الأمم المتحدة الثالث للدول الأقل نموا، كما وجه البيان مجموعة من التوصيات للهيئات العاملة في مجال التنمية. تمثلت أهم هذه التوصيات في تنسيق الأعمال مع الدول المتلقية إلى جانب تدعيم مشاركتها في برامج المعونة التي ينبغي أن تستغل لتعبئة مصادر تمويل أخرى مثل الاستثمار والتجارة والموارد الداخلية. وأكد البيان على ضمان توافر موارد تمويلية طويلة الأجل كضامن لفاعلية النظام المالي العالمي.

٤ - دعم الترابط بين النظم النقدية والمالية والتجارية الدولية من أجل التنمية:

ركز البيان هنا على توسيع مؤسسات واطر الحكم، بمعنى إشراك جميع الفاعلين والمؤثرين في عملية التنمية والعمل على تفعيل دور الدول النامية في النظام العالمي. وقد أشار البيان إلى ضرورة قيام الأمم المتحدة بدور محوري في تنسيق جهود الدول والمنظمات الدولية ومؤسسات التمويل. كما التزم الموقعون على نحو خاص بمقاومة الفساد وحظر تمويل (الإرهاب) ومكافحته.

التحديات والمواقف:

واجهت قمة مونتيري تحديان اساسيان:

الأول: ويتمثل في الإرادة او مدى القدرة والرغبة في ترجمة اطروحات البيان الختامي إلى خطط عمل ثم نتائج ملموسة، واهم خطوة في هذا السياق هي توفير التمويل لتحقيق أهداف التنمية المتفق عليها.

الثاني: ويكمن في الحفاظ على المدخل الشامل الذي تبنته القمة. وتتمثل أهم دعائمه في الحرص على اشراك أطراف حكومية وغير حكومية (منظمات المجتمع المدني) في مناقشة مستقبل التعاون التنموي الدولي.

والواقع أن هدف مكافحة الفقر ليس بالهدف الجديد في الخبرة الدولية المعاصرة. فقد سبق ان أعلنت قمة (كوبنهاغن) الاجتماعية عام ١٩٩٥ (الحرب على الفقر) وفي عام ١٩٩٦ طرحت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية خطة تهدف إلى تقليص عدد فقراء العالم إلى النصف بحلول عام

٢٠١٥. وكان العامل المفقود دائما في مثل هذه المبادرات هو القدرة على التنفيذ. ومن هنا ناشدت الأمم المتحدة قبيل انعقاد قمة (مونتيري)، الدول الصناعية المتقدمة، زيادة مخصصات التنمية الدولية. وكما صرح كوفي عنان: (أن قوة البيان الختامي تتوقف على امكانية تطبيقه).

من جانبها أعلنت الولايات المتحدة تخصيص مبلغ خمسة مليارات دولار إضافية في شكل منح على مدار ثلاثة أعوام بداية من عام ٢٠٠٤. ورغم ما لهذا التصريح من قيمة معنوية، إلا انه لا يعني ان الولايات المتحدة قد وصلت إلى نسبة الـ ٠.٧٪ من ناتجها المحلي الإجمالي في صورة معونات. ويذكر ان دول أوروبا الشمالية الخمس (الدنمارك، وفنلندا، وإيسلندا، والنرويج، والسويد)، هي فقط التي وصلت إلى هذه النسبة أو أكثر منها. أما الولايات المتحدة. فيبلغ حجم إنفاقها السنوي على المعونات الخارجية - عشرة مليارات دولار- أي حوالي ٠.١٪ من الناتج المحلي الإجمالي. كما أعلن الاتحاد الأوروبي هو الآخر عن زيادة حجم معوناته التي تصل إلى ١٥ مليار دولار. إلا أن تعهداتهما معاً سوف تمثل أقل من ربع المبلغ المطلوب لتحقيق أغراض التنمية الدولية. كما أن البيان لا يشتمل على أية تعهدات مالية جديدة. يضاف إلى هذا أن اليابان التي تعد أكبر المانحين. إذ تسهم لوحدها بحوالي ١٣ مليار دولار سنوياً، لم تعلن موقفها بعد. وتشير تقديرات البنك الدولي إلى الحاجة لزيادة معونات التنمية سنوياً بما يتراوح بين ٤٠ و٦٠ مليار دولار من أجل تحقيق أهداف قمة الألفية الثالثة.

وإذا كان بيان قمة (مونتيري) قد واكب التطور في فكر المانحين، من حيث الاعتماد بشكل خاص على التجارة والاستثمار المباشر في إطار صيغة (التجارة بدلاً من المعونة) Trade not aid، فإن هذا لا يمكن أن يكون كافياً لمواجهة تحفظات الدول النامية على النظام العالمي الجديد، أو يعطي مؤشراً على إمكانية تحقيق شراكة حقيقية من أجل التنمية، فقد توقع صندوق النقد الدولي انخفاضاً شديداً في صافي التدفقات المالية للدول النامية، نتيجة لمشكلات السيولة ومخاطر الاستثمار. هذا بالإضافة إلى ان قوى السوق بوضعها الحالي لا يمكن أن تخدم مصالح الدول النامية، وهو الأمر الذي ذكره تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠ مشيراً إلى الحاجة لمزيد من الشراكة السياسية والاقتصادية، وقد اشار بيان قمة (مونتيري) إلى الحاجة لتأسيس تعاون دولي قائم على توسيع الحكم العالمي من أجل تنسيق جهود التنمية بين الأطراف الحكومية وغير الحكومية (منظمات المجتمع المدني).

صراع أم توازن مصالح:

لم يحجب غياب (جزيرة الحرية) كوبا عن حضور القمة. ظهور التباين بين دول جنوب القارة وشمالها، لا سيما في ما يتصل (بالتبادل الحر ومكافحة الفساد والفقر وتمويل مشاريع التنمية ومراقبة الهجرة).

حاولت كل من البرازيل وفنزويلا إعطاء الأولوية للشق الاجتماعي بينما ترغب الولايات المتحدة الأمريكية التي تعرضت سياستها لانتقادات متزايدة، إحراز تقدم في مجال إنشاء منطقة للتبادل الحر بين دول القارة.

وبينما استهدف الرئيس/بوش كوبا الغائبة، أشاد الرئيس البرازيلي/لولادا سيلفا بالمساعدة التي قدمتها كوبا لبلاده في مجالي الصحة والتعليم. كما سيطر التوتر على العلاقات بين الرئيس الفنزويلي/تشافيز والإدارة الأمريكية التي تدعم فكرة إجراء استفتاء من أجل إزاحته عن السلطة نظرا لعلاقته الوطيدة مع الرئيس/ كاسترو.

وكانت هذه التباينات محور المحادثات بين الرئيس/ لولاداسيلفا والرئيس/بوش، فأصر الأول على مطلبه المتعلق بعقد (قمة للشأن الاجتماعي)، بينما دعا الثاني إلى بدء العمل في منطقة التبادل الحر بين دول القارة، التي من شأنها خلق سوق تجاري يضم ٨٠٠ مليون نسمة.

ألقت القضايا المشار إليها أعلاه بظلالها على التوقعات الخاصة بتفعيل التعاون التنموي بما يخدم مصالح جميع الأطراف. فقد نجحت قمة (مونتيري) في توفير مشاركة واسعة لمناقشة قضايا التنمية، لكنها فشلت في خلق إجماع على بيانها الختامي. فهناك مصالح واتجاهات تدعو للتنمية بالاعتماد على قوى السوق وتفعيل دور القطاع المشترك. بينما توجد اتجاهات أخرى تتبنى مدخلا يقوم على خلق سلطة عالمية لها حق فرض الضرائب على التجارة الدولية والتدفقات الرأسمالية لفرض السيطرة على النظام الرأسمالي العالمي وينطلق المدخل الأخير من إيمان بأن قوى العولمة لا تعني مجرد تحرير التجارة. وإنما تفرض أسلوباً جديداً لحكم المجتمع الدولي بما يواجهه من مشكلات مختلفة عن تلك التي كان يواجهها في السابق. وقد جاء بيان (مونتيري) أقرب للإتجاه الأول. فقد عكس النظرة الكلاسيكية التي ترفض سيطرة الشركات العملاقة وتحكمها في نمط العلاقات الاقتصادية الدولية.

وقد اعتمد بيان قمة (مونتيري) على مؤسسات (بريتون وودز) في حفظ الاستقرار الاقتصادي العالمي، وهي المؤسسات التي استفادت من دعم وتمويل منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، للوصول إلى درجة عالية من التطور المؤسسي، الذي أعطاه قدرة على الحركة مقارنة بغيرها من المؤسسات الدولية. أما الأمم المتحدة فما زالت في حاجة لتطوير نظمها الداخلية وعلاقاتها الدولية لتكون مركز التنسيق والتعاون في الاقتصاد العالمي. ويذكر كوفي عنان صراحة: (أن المنظمة الدولية لن يتسنى لها إرغام الدول الأقوى اقتصادياً على زيادة تبرعاتها للدول الفقيرة).

تمثل التحديات والتجاذبات السابقة، اختباراً للنظام العالمي الجديد، ككل.... فهل سيستقر على الأحادية القطبية، وتبقى القوى الدولية التقليدية مسيطرة عليه؟! أم ستشق قوى المجتمع المدني العالمي طريقها نحو عولمة عادلة (غير قطبية)؟. لقد نص بيان قمة (مونتيري) على عقد مؤتمر للمتابعة عام ٢٠٠٥، ومن المقرر أن تستضيف جنوب إفريقيا هذا المؤتمر حول (عولمة التنمية)... ويبقى على الأمم المتحدة حتى ذلك التاريخ دور رئيسي في حفظ الشرعية التي وفرتها قمة (مونتيري) من خلال إشراك مختلف الأطراف في مناقشاتها، على قاعدة الالتزام بمبادئ ميثاقها لعام ٢٠٠٢، والعمل بالتعاون مع جميع الأطراف ذات الصلة في جهد مشترك لمتابعة وتطوير الخطى المتخذة في سبيل تحقيق أهداف التنمية، وفتح الآفاق أمام نظام اقتصادي عالمي جديد أكثر عدلاً، يقوم على احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها واستقلالها وتطورها.

نجحت قمة (مونتيري) في توفير مشاركة واسعة لمناقشة قضايا التنمية لكنها فشلت في خلق إجماع على بيانها الختامي

هل ستشق قوى المجتمع المدني العالمي طريقها نحو عولمة عادلة (غير قطبية)

وهم الشرخ الحضاري وجذور الصراع!!

سليم. ن. محسن

♦ في الزمن المغيب: تصمت الحكمة، فلا يسمع أحد، يدخل اللصوص والزناة المدن.. ويغادرها الأتقياء.. أخفوا سيف الإمام.. أنكروا البيعة والوديعة.. ألبسوا شيطان العتمة نورا.. صعدوا عطر المباخر، أدخلوه الكوفة، وطوفوه كربلاء، المأساة ترتحل شعرا: تجوب العراق، تقرأ في سفرها: عن وجع النخيل عذارى عشتار.. عن احتراق الأرض، وموت شهرزاد.. عن خوف الجوع والعار.. كيف يغش الخبث، ويقلب الحقيقة.. كيف ينبح الجهل، ويتسلط الحمقى عن الخراب وقتلى المدائن، عن اختفاء شهريار. كيف قتل الحسين مرتين، وصمت الصهيل.. عن بكاء دجلة، عن موت الحلم في العيون، عن التحدي، وقسوة الرفض، وولادة الطفل الشهيد. نساء يندبن على الضفاف، ينظرن إلى غرق العربي في المياه، وانهيار الوطن..

ان المعنى الحضاري لشعوب منطقة ما لا يندرج توصيفه بتعاظم كيانات الدول وتماسك سلطانها أو في امتلاكها لقدرات التطور التقني إن هي خرجت عن مفهوم الأنسنة

♦ وجهة نظر معاصرة: يمكن من خلالها رؤية الخلافة العباسية في عام ١٢٥٧ م كاحتلال داخلي فاجر، تسلط على رقاب أبناء العرب، والخليفة الهاشمي.. طاغية بغداد. أما هولاكو: فكان محررا، لذا احتفل ورقص اللاتين ناهبو كنوز بيزنطة، والفرنجة الغزاة في إماراتهم على سواحل بلاد الشام، والفرس في بلادهم، وأتباع العلقمي الخائن، والجنود المغول.. في الطرقات المشتعلة.. المباحة بمقتل الطاغية، وخراب بغداد وبكى العرب من وجهة النظر هذه، فان العرب يدينون بالشكر والامتنان.. إلى الإدارة (أنكلو- أميركية) لاحتلالها التحريري.. وإلى (إسرائيل) كبديل عن الفرنجة.

♦ كانت أوروبا قد ابتدأت صعودها بعد تاريخ اجتياح هولاكو المنطقة، وتدمير بغداد.. بما يحسب ردا على استعادة الملك نجم الدين أيوب القدس أيلول /١٢٤٤م/ وإبادة سكانها الفرنجة، إلى أن هزم المماليك «سبايا المغول بقيادة قطز، بيبرس، جيشه عام /١٢٦٠م/ في عين جالوت شمالي فلسطين، وكان هؤلاء عماد الجيش الأيوبي، وذلك في زمن يتقارب مع استعادة البيزنطيين القسطنطينية المحتلة منذ عام ١٢٠٣م من قبل اللاتين الغزاة وطردهم..

- وكانت انقسامات عربية، وفتن دينية، قد أضعفت دولة الخلافة، كما عمت الصراعات مع بيزنطة، والحروب مع الفرنجة إلى إنهاكها، وكان هؤلاء «الصليبيون» قد دخلوا القدس عام ١٠٩٩م وأبادوا سكانها العرب من المسلمين واليهود، توطئة لاحتلال أرض أحلامهم «بابل- العراق» بما أعقب ذلك من انتشار لإماراتهم في سواحل الشام..

- وكان ظهور قوة جنكيز خان في الشرق... عاملا في إيقاظ رغبة القوى المعادية المحيطة «الفرس، والفرنجة - اتفاقيات الملك لويس القديس-»، والداخلية «العلقمي» للخلاص من الخلافة العباسية، فتآمرت هذه لتوجيه جيوش المغول صوب بغداد..

- منذ ذلك التاريخ.. عانت المنطقة من بدائية العقل الأوروبي الغابي، وممنهجه المتواصل في عدائية الشرق... ويبدو بأنه كان يستقي خطه الهمجي..من وعاء عقل بدائي، محفوظ في ذاكرته البعيدة... لم تستطع أن تخرقه الارتقاءات الإنسانية لتجارب الشعوب القاطنة وراء الضفاف المتوسطية المقابلة.. كما أن هذا العقل قد قصر - ربما بسبب البدايات البيئية الصعبة- عن تلمس معاناته اليومية، ورفع التقاء تقاطعاتها... إلى رموز يمكن أن تحتويها ميثولوجيا متأنسنة كما الشرق!

- فبعد عشرة قرون: عمد إلى التخلص من قيود مفاهيم الشرق الرسالي، ومنذ عام ١٠٥٤م- انفصال روما عن القسطنطينية - شرع في إعادة تركيب مضمونها المسيحي الشرقي، وتأويل النص الديني في حرفية تتلاقى مع التحميلات العنيفة: لزمنية التكوين التوراتي، كان قد أبطلها انجيل العهد الجديد: ذلك لإعادة مواءمتها مع بدائية الطروحات المؤسسة للقبائل الهندو - أوربية الجرمانية.. كما لم يثمر تقدم الغرب التقني، في إنتاج علاقات مؤنسنة، وإنما لتطوير تنظيم اجتماعي لاستثمار أقصى لقوة العمل، تتفارق بناه الفوقية مع نتائج التقدم.. في اتجاه تخديمي لسلوكه البدائي الاغتصابي..

♦ في حرب العراق دأب الغرب في إعلامه السائد على إظهار ارتقائه الحضاري من خلال التقنيات التدميرية لديه، بما يتجاوز المعقول البشري - انسيابية التصميم الهندسي لصواريخه، دقة المسار لتحليق الطائرات، وهبوطها، المعجزين... اختراق الفضاء ودقة التصويب، جيش مؤلل، وصور لامعة لمدمراته في البحر - شكل دعائي مفضوح: يحرض على استسلامية لموت فاخر، وهو اذ يخفي حقيقة الهدف الهمجي من عرضه للقدرات - بدمجه بالإفناء النظيف، وإعتام النتائج المصائبية. كان يحاول... بالمقابل، أن يظهر همجية الآخر: ربطا ببدائية تطوره، ومحدودية قدراته - عبر عرض آلية خربة، حديد ممزق، الدماء، والأشلاء- كمخلفات لعقل مأزوم، يندفع في إنجاز فعله استشهاديون متخلفون.. ومع ذلك كان يظهر الغرب في انفلات ردود فعله العصبية، قدرات الإنسان المقهور الفقيرة.. على ابتكار الفعل المجابه، ورفض الاستسلام المجاني، وبالتالي محدودية إدراك الغرب لمعنى الأضحية الاستشهادية: كخلاص، وحياة أفضل للجماعة..

♦ وتجنبا للبس والتلفيق الانتقائي: فان المعنى الحضاري لشعوب منطقة ما، لا يندرج توصيفه بتعاظم كيانات الدول، وتماسك سلطانها، أو في امتلاكها لقدرات التطور التقني، إن هي خرجت عن مفهوم الأنسنة - الالتقاء بالآخر- واعتباره تلاقح معرفي واستمرار تعايش وجود، وتبادل خبرات.. بل أن هذا المعنى، يمكن أن يتفاعل في تحاور والتقاء بين جماعات أوجدت انتظاما قادرا على التقاط الفكر المغاير ضمن جدلية الإرتقاء، وهذه، تمتد جذورها إلى شروط الظروف وملاءمة المكان، في بدايات التكوين المجتمعي.. نرى ذلك في التكوينات الاجتماعية التي التقت على أحواض المناهل الكبرى مثل: النيل، الفراعنة، ودجلة والفرات، سومر، وبابل، وتفاعل شعوب الحدود ما بينهما

في سورية من دمشق إلى القدس، ومكة. بما يتجاوز ذاتها في رسالة ارتقاء إنساني إلى الشعوب، تضمنت حكمتها ما قبل الإبراهيمية إلى المسيحية، والإسلام..

- ونظرا لتأسس عقل النخبويين العرب، على سطح مساحات العقل الغربي، وطروحاته القيمية.. عجزوا عن اختراق واقع شعوبهم وتلمس معاناتهم، وعوضا من أن تكون مهامهم استنباط سبل لخدمتها وفضح المرامي الغربية، تماهوا مع تلك.. وغدوا مروجين لها، كأحصنة طروادية تنتظر لحظة الإجهاز.. وفي الحقيقة كان من نتائج صلتهم العضوية مع المنشأ: أن تحولوا في مختبرات الغرب الاجتماعية، إلى كائنات مدمرة عمياء لا ملامح لها، تعيش على نسغ شعوبها.. لأداء وظيفة تخريبية لمجتمعاتها، والإجهاز على عروبتها.. شاهد الماضي في المنطقة نماذجا منها، منذ تفكك الدولة العثمانية - (عبد الإله، نوري السعيد)، الحاشية الحاكمة في العراق، وفي فلسطين، وبعض المجاميع في سورية عقب انفصال أيلول ١٩٦١، ولم تزل تفاجئ الشعوب بظهور سلالاتها: كداعية ممهدة ومرافقة للاحتلالات.. بما يلزم المراجعة والتدقيق في كل نتاجها الثقافي والمؤسسي..

- فالعروبة في وعي إنسان المنطقة: وعاء لقيم متدفقة، صاغها عبر الزمن.. علاقة جهد العمل في إنبات الأرض، كجنة مؤملة حاضنة للعدالة ومفاهيم حقوق الإنسان، وتفاعل للحريات. وكحالة فيضية لثنائية الأرض والإنسان.. كان الارتباط بها والدفاع عنها، شاغله الأبدي..

- وتجدر الملاحظة: بأنه منذ بداية النضال أوائل القرن /٢٠/ ضد الأجنبي من أجل تكوين الوطن السيادي المعاصر.. كان هنالك انفصال بين تيارين: ١- تيار عروبي يعمل من أجل كيان سياسي مستقل مرحلي، ومجتمع متماسك متطور، مقدمة لكيان عروبي مستقبلي موحد، ٢- تيار آخر متغرب واسع الطيف يعمل دون إعلان ظاهر، من أجل إنهاء الوطن.. وكانت التباينات بين القوى المعارضة، والسلطات السياسية الحاكمة.. تتجه إلى استقراء المطالب الضرورية للنهوض والتقدم تحت مظلة الوطن.. وبينما كانت تنظر القوى العروبية.. إلى الخلاف مع السلطات، كتناقض ثانوي يتناول تخطيء استغراب المفاهيم الدولتية والقومية، وإلى ضرورة إصلاح أخطاء الممارسات السلطوية والكشف عنها كمهام وطنية لاستكمال تكوين الوطن والانتقال منه إلى الموحد.. كانت القوى الموصوفة بالمتغربة على تناقض مع سيرورة المنتظم السياسي ووجوده.. وتجعل من الأخطاء ذاتها تناقضات رئيسية، وذريعة لاشغالات اجتماعية سياسية، تهدف في النهاية إلى هدم الوطن.. ولا ينكر بأن عددا من العروبيين قد انقاد من منطلق استفحال الخلافات مع السلطات إلى التباس في مفهوم المعارضة، وإلى الانزلاق في تحالفات مع القوى المتغربة.. التي سعت إلى استغلال مقاصدها الوطنية، وتشويهها.. وهكذا نلاحظ بأن طروحات النخبوية المتأمركة.. إنما هي استمرار لدعواتها السابقة في الاستقواء بالأجنبي.. لإنهاء الأوطان..

- كما لا يمكن صياغة رؤية مستقبلية، ذات صفة يقينية بالتأسيس على رمال الحاضر - كما يلح عليها البعض بباطنية متخابثة، أو جاهلة - دون قراءة الواقع بما فيه من عثرات، فالشعوب غدت على قناعة بضرورة الكف عن ممارسة عقلية النقل المغامر للتجارب، بما فيها عروض التنمذج الأمريكي الجديد: إذ أن أعواما طويلة من سفح الجهد الفكري، المستقى خطوطه من الغرب، والتبديد الثروتي.. لم يساهم في التقدم، بل أدى إلى تحرك يتضاد مع سيرورة المجتمع..

- ورغم أن الأبحاث الاجتماعية والسياسية المعاصرة، قد تقاربت من مستوى العلم التطبيقي في الاستنباط من حيثيات المادة المعروضة: (الأحكام والنتائج..) فإن البعض لم يزل يصعد المخزون الطفولي الماضي / المتناقل أو المشاهد/ مثلا «هيصة الديمقراطية الكاذبة، إلى التصور الحلمي ليعكسه في زمن مغاير/الحالي/ حقيقة معاشة، وحده يمتلك أسرارها، وفيها وحدها كل الحلول السحرية، للخروج من المصائبية الراهنة، لذا يلجأ إلى أحاطته/بالمقدس/بأشكال صبيانية من المهابة العلمية، فيعمد لتحقيق ذلك: إلى «تحويشة، تلفيقية ينتقي فيها تواريخ وأحداث، وحشد من المقولات، والأفكار المتناقضة.. يسوقها كمقدمات منطقية مسلم بها لخدمة المتخيل - النتائج الموضوعة مسبقا - وهي شكل من محنة العقل النخبوي التبريري في تحولاته الراكضة إلى تجديد تغربه.. والعائدة في أصولها، إلى ما قبل الانتظامات الاجتماعية: فتصبح الحكومات الثيوقراطية، وما هو مطلي بالإيديولوجيا: إنسانية، وتقدمية، والمجتمعات البطريركية باقتصادها الخراجي، ضمانة الحراك السياسي، ومستودع ديمقراطي، والاقتصاديات الطفيلية الناهبة: أسس الليبرالية، والأحزاب الفئوية التي دفعت إلى تخريب المجتمع، واستقدام الأجنبي، وبررت سيادة الاستبداد، والرؤية الواحدة الشمولية، والفوضى (عصرية وعلمانية، وواقعية)، والسلطات الحكيمة (رجعية واستبدادية)، وطموحات الغرب الاغتصابية انفتاح على الكونية، وآفاق تقدمية، ورفاه، وثورة المستقبل التحريرية، والوطن بحدوده السيادية: إعاقة بنيوية، أما المجتمع العروبي في سيرورته التاريخية، بما تحفل من ميثولوجيات، وعقائد، وتلاق لتعدد قيمي، وصيغ تعايش، وكحاضن طبيعي للارتقاء، والعدالة خرافة..

◆ كما هو بين فان النموذج العقلي، للإدارة (الأنكلو - اميركية) الحالية، هو مولود غربي في خصائصه العنصرية، انتقل بداية إلى الولايات لمتحدة، مع تصدير أوروبا في القرن /١٥/ لنفاياتها البشرية، وعمل على تطبيقه مباشرة بإبادة الهنود سكانها الأصليين، وقد تلاقى هذا النموذج الذي تأصل، وتمركز قادة فكره في الولايات المتحدة أواخر القرن العشرين، مع تنامي التوجه الكوني للمؤسسات الاقتصادية الاستثمارية، يؤدلج طموحاته ويبررها منهج فكري حديث يسقط من حسابه الحقوق الاجتماعية الإنسانية، لأصحاب قوة العمل، وصغار المنتجين، والضعفاء في الأرض، لخفض قيمة المنتج، ومراكمة الربح..

- وقد أدى تنامي الرأسمال الاستثماري بأبعاده العمودية والأفقية: إلى انقسام عالمي بين الشعوب والإدارات السياسية الحاكمة، وإلى جعل إدارات الدول كسلطات تابعة.. وبالتالي فصل المجتمع الغربي عن إداراته كممثلة له مفترضة.. ومن ثم إلى مركزية سلطوية، لضرورة تلبية المتطلبات الملحة لإدارات اقتصادية مهيمنة، وبالتالي إلى انتفاء مفهوم الدولة الليبرالية - التقليدي، المؤسس على المبادرة الفردية، والتحول إلى الديكتاتورية، مع شكلية ديمقراطية، ومصادرة عملية لحقوق الإنسان، وحرياته.. بما يستدعي هذا أشكالا من النضالات، لتحقيق العدالة، وإعادة هذه الحقوق..

- وإن هذا بما يعنيه محاكاة للحركة الاقتصادية التي سادت أوائل القرن /١٧/ حيث أخضعت الدولة لمصالح الشركات العابرة / ١٦٠٠/ شركة الهند الشرقية الهولندية /١٦٦٤/ شركة الهند الشرقية الفرنسية، لتأمين جيوش الحماية لأساطيلها، وممتلكاتها ومستعمراتها الجديدة.. وراء البحار، وكان نشاط هذه الشركات، هو الأساس الذي مهد لنشوء الدول القومية الأوربية وتطور قوة أوروبا الحديثة.. وإلى استئناف توجهها الاحتلالي في القرن / ١٨/ و/١٩/ مع وهن الحاجز العثماني.. إلى الشرق المتوسطي، وجنوبه..

- وتبدو العقلية المدمرة الحالية ظاهرة: من خلال حربين عالميتين ساختنتين /١٩١٤/ و/ ١٩٣٩/ انشغلت فيها أوروبا بالاقتتال الداخلي، وتدمير الذات، حصدت جراءة الملايين من ابنائها: بتواطؤ (انجلو- اميركي)، أعقبها حرب باردة طويلة، أسقطت خلالها النفوذ الأوربي الدولي، وختمتها بإنهاء إمبراطورية سوفيتية عظمى.. ومع التشكيل الجديد لانتظام الدول.. بما يتوافق مع مصالح الاستثمار العالمي تكون البداية قد نضجت لانطلاق عالم بعد (أوروبي - اميركي)، على حساب قهر شعوب الأرض كافة..

◆ وعلى وضوح النوايا ومآلها، في اتجاه منطقة حيوية واستراتيجية، تمتلك عصب التقنية الحديثة ، النفط .. ظهرت بوادرها منذ شرعت الدول المؤتمرة قضم العالم.. (اقتصاديا وسياسيا)- كمناطق استثمار للرأسمال الكوني - (أوروبا الشرقية، روسيا، البلقان، وأمريكا اللاتينية، جنوب شرقي اسيا، ووسط آسيا)- واخضاع عديد من الدول العربية، وذلك بتنفيذ تجربتها العالمية الجديدة: باحتلالات مباشرة أهلتها لعراق، بعد الحصار..

- وكانت الإدارة الأنكلو - اميركية قد مهدت إلى هذا التحرك بسلسلة توصيفات - مهينة وشائنة - أشاعتها عن شعوب الشرق العربية الإسلامية وامتدادها - (عقائدها ونظم حكمها)- لم تكن سوى ترداد لمقولات حكمائها من العصور الوسطى، إلى النهضة والأنوار والحديث: من البابا أورباس الثاني، وخطبته الشهيرة في كليرمون. /١٠٩٥م/ وتوما الأكويني، إلى دانتي، ولوثر، إلى مونتسكيو، وفولتير، وروسو، ورينان، ومن تبعهم.. من مستشرقي القرن ١٩ و٢٠ في إعلانهم عن ضرورة استئصال الإسلام.. وهي مشبعة بكراهية توراتية لشعوب بابل أرض العراق - استقدام لمفهوم غيبي، لنفي الآخر «العراق أرض مباحة، شعبها محكوم بالفناء» استخدام حرفي للنص الديني الملفق- لإكساب الغرب ذاته بتبنيه الحقوق الإلهية المتفوقة، ومشروعية الإبادة، استمرار للهمجية. عقيدة الإلغاء هذه، تتضمن كرها للحضارة المنتجة المتفوقة.. بالأنسنة: كره الراعي - الأعراب -، لأهل الحضر - الفلاح -، إن استقدام النص المعتقدي، هو قلب متقصد للمفهوم الحضاري، هنا تدمج المصالح النفعية بالرؤى..

> العراق فلسطين الثانية
> فشل الفرنجة في الوصول إليها
> منذ قرون يعودون اليها اليوم
> بالحقد ذاته
> يحملهم اليها
> تراكم نوعي تقني لا سابق له

- العراق فلسطين الثانية.. الأرض الموعودة - تفيض لبنا وعسلا - الجنة الموصوفة، ينجسها عبيد (سارة)، أبناء هاجر جارية إبراهيم.. فشل الفرنجة في الوصول إليها منذ عشرة قرون.. دمروها بوحشية المغول.. يعودون إليها اليوم بالحقد ذاته، يحملهم إليها، تراكم نوعي تقني لا سابق له.. مرة أخرى تتناقض المفاهيم بين رؤية الثقافة الهمجية، والرؤية الحضارية.. العقل الحضاري ينتج الفلال / الآخر/ ضرورة: لتبليغ الفكرة الرسالية، والاستمرار الهمجي: ينتظر الفريسة.. الآخر: مشروع طريدة، البطل هو الصياد القاتل، هكذا أيضا يستبدل مفهوم البطل.

ليلة القبض على الرئيس صدام حسين السبت ٢٠٠٣/١٢/١٣، ووسط ضبابية المشهد، والشك في الرواية المرفقة: نشأت الأسطورة، فلقد تم اختيار الصور الإعلامية المعروضة، بدراية من قبل اختصاصيين، وكانت النتائج غير التوقعات، كان القصد إذلال الشعوب العربية الوثنية، التي تنجب عقائدها حكاما - أمثال صدام - كان إلغاء الفكرة، الكلمة - بما يتضمن: إعادة لشرعيته كقائد وزعيم.. لم تكن الإهانة عرض صورة الرئيس، وانما لأن الشيطان الأمريكي، كان يلامس وجه القديس.. بدا الرئيس على خلاف ما صورته آلة الدعاية الأمريكية الضخمة - جبارا، ديكتاتورا منسوجا من مخزون تراثهم النازي - بل كان مؤنسنا بالهم الرسالي إلى حد منهل.. في المقابل، فان ظهور رئيس الإدارة الأمريكية في ذات المناسبة بإطارها المستبرق الفخم: لم يعط انطباعا مقبولا، ولم تر الشعوب العربية والمستضعفة فيه.. غير حالة (جرنية)، متأسدة، كما لم تحفل هذه أبدا بما كان ينطق من كلمات..

- لقد دخلت قوات الاحتلال (الأنكلو - أميركية) بغداد في نيسان ٢٠٠٣ في تجاوز فج للشرعية الدولية، ومعاييرها.. مقدمة لإعادة ترتيب المنطقة بما يتوافق والخطط الاستثمارية للشركات، بما يعني هدم مؤسسات المنتظم العراقي: (الاجتماعية، والاقتصادية)، والسيطرة على النفط تمهيدا للعبة الاستثمار العالمية الجديدة..

◆ على وضوح أهداف الاحتلال (الأنكلو- اميركي) في هذه المنطقة كترجمة لطموحاته النفعية التاريخية: كما تفضحها الممارسات المشاهدة.. الدافعة باتجاه تفكيك الكيانات السياسية، عبر فتنة الاقتتال الداخلي بين الاثنيات والمذاهب باحتمالات تدحرج مفاعيل احداثها إلى كامل المنطقة، وما تفضي إليه من المآسي والتخريب.. فان العقل النخبوي المتأمرك، لم يزل يعمل في صيغ عدمية متناقضة.. مأخوذا بنشوة النصر العبثي، ولم يفطن حتى إلى الخلط المفضوح بين انفلات المكبوت من رغباته.. ودوره المأجور المرسوم المكلف به..لأداء مهام الإخلاص الوطني الرصين..

- كما لم يزل يردد مقولات جاهزة، عانى المجتمع الغربي ذاته في أزمنة مختلفة من نتائج منهج تطبيقها.. يسحب حيثياتها (النازية، الفاشية، الستالينية) ليلبسها لواقع متخيل لا وجود له يفترضه في المنطقة.. وهذه تعاد في صيغ لغوية مركبة، التقط بعض مفرداتها من المتداول المحلي، للترويج: بحرفية عقل مسطح، لا يخترق الرمز، إلى ما وراء الظاهر، هذه الطروحات لاصلة لها بالواقع المعني.. ، مثل الدمقراطية، مقابل الديكتاتورية، والاحتلال الداخلي، والمقابر الجماعية ، بما يظهر بأن هذا العقل النخبوي الممسوخ قد تقمص الثقافة الهمجية، متباهيا بإتقانه فلهوة الرياء المتعالي والتحايل، استعدادا للانقضاض الافتراسي..

- وحيث أن جذور النخبة المتأمركة.. قد ائتلفت مع نتائج تراكيب سلوكية خارجة في موضوعها عن استقرارية توازن المنتظم السياسي، أي رفض الانتماء له - للوطن - وعدم فهم خصوصية علاقة العمل بالأرض وتنظيم المجتمع.. ظل هؤلاء خارج الوطن، على هامش فاعلياته، يعانون فيه اضطهادا مجتمعيا مزمنا، كعناصر طفيلية لا فائدة منها .. تنتمي رغم مظهرها المخملي: إلى طوائف اللصوص، والقوادين، تستلهم من ثقافات الغرب إيديولوجية وجودها .. وهذه تتوزع في ثنايا الجسم (الدولتي)، كقوى تدميرية كامنة، تظهر بفاعلية انتقامية زمن الكوارث المخلخلة للمنتظم المجتمعي الاقتصادي: كحالة العراق..

إذن ليس لهؤلاء النخبويون المتأمريكين: كقوى حرمت من التمتع بخصائصها التكوينية، واستقلالية وجودها الارتزاقي، وقمعت حريتها في التخريب والنهب: غير الارتباط بالغازي المدمر (إسرائيل)، والاحتلال (الأنكلو- الأمريكي)، ومن الطبيعي..أن تنظر هذه إليها كقوة محررة، وإلى أن تبرر الاحتلال: بوجود أعدوها الوطن ذاته: بما يعنيه من شعب، وصيغ تعايش، وأخلاق، وقوانين، وأن تصف المجاهدين للحق.. مخربين وإرهابيين..

بني موريس يكشر عن أنيابه العنصرية!

يكشف بني موريس، المؤرخ الإسرائيلي المحسوب على اليسار، والذي يعتبر واحدا من المؤرخين الجدد في الحوار الذي نشرته «السفير» في ٩ / ١ / ٢٠٠٤ مترجما عن «هآرتس» عن الروح العنصرية البغيضة تجاه الفلسطينيين والعرب التي تفوح رائحتها الكريهة من كل كلمة من كلمات هذا «اليساري» الذي أسقط عن وجهه القناع الزائف وكشف دفعة واحدة كل أوراقه بصراحة ووضوح، معلنا «دون رتوش أخلاقية كاذبة» عن قناعاته الحقيقية، كأي صهيوني يميني متطرف، واللافت في حديثه توصيفه للعرب دون خجل بأنهم «برابرة العصر الحديث» ليفصح عن عمق كراهيته واحتقاره لهم وللمسلمين عموما ولثقافتهم، دون أن يفوته التأكيد على هويته الغربية، ودون أن يخفي بطبيعة الحال، خوفه المزمن من «الخطر الديموغرافي» العربي الذي كان برأيه أحد دوافع مشاريع السلام التي يطرحونها..

يرفض بني موريس بوضوح شديد، غير قابل لأي لبس، التصنيف الذي وضعه في خانة «ما بعد الصهيونية» مؤكدا أنه كان صهيونيا على الدوام.. بل يسخر من خطأ تلك التصنيفات التي ظنت أن بحثه التاريخي عن ولادة مشكلة اللاجئين جاء لتشويه المشروع الصهيوني، معتبرا أن ذلك مجرد هراء.. وهذا الأمر يحيلنا إلى بعض القراءات المتسرعة لبعض الباحثين العرب التي راهنت بشكل مبالغ به على كتابات هؤلاء المؤرخين الجدد و«نزعتهم الأخلاقية» فهل علينا أن ننتظر واحداً مثل بني موريس حتى يدلي بأقواله واضحة، دون رتوش، حتى نقتنع بأن «الحمائم» في إسرائيل لا يختلفون عن «الصقور» إلا بالقفازات التي يخفون خلفها مخالبهم الحادة؟! المشكلة هنا، أننا نتحدث عن واحد من الأوساط الأكاديمية، فكيف الحال مع الساسة والسياسيين؟!

لم يأت بني موريس بجديد، سوى أنه تخلى عن بعض المحسنات الشكلانية التي كانت تغلف تحليلاته.. وها هو يقولها على رؤوس الأشهاد: «إن خطأ بن غوريون التاريخي أنه لم يكمل ما بدأ به».. أي أنه لم يقم بعملية التطهير العرقي والطرد لكل العرب حتى نهر الأردن.

إن الأكاديمي بني موريس، واستنادا إلى دراساته التاريخية، لا يعتبر عملية الطرد الجماعية أو «الترانسفير» جريمة حرب.. بل هي ضرورة مبررة في السياق التاريخي لقيام الدولة اليهودية..

ويعتبر أن ما بقي من عرب في إسرائيل والضفة والقطاع يشكلون اليوم خطراً وجوديا على استمرار الدولة اليهودية، وهو لا يستبعد بالتالي (بل يدعو ويحرض) إلى استكمال ما بدأ به بن غوريون عام ١٩٤٨.. بطرد الفلسطينيين والترانسفير الجماعي لهم، إذا ما أتيح ظرف مناسب لهذه العملية في المستقبل القريب.

من خلال أطروحات بني موريس العنصرية.. البغيضة لا تختفي الحدود الفاصلة بين اليمين واليسار الصهيوني فحسب، بل تختفي أيضا الحدود الفاصلة بين المستوى الأكاديمي والمستوى السياسي والعسكري. هذه العقلية السائدة في المجتمع الإسرائيلي ستدفع بالتأكيد المنطقة أكثر فأكثر نحو الهاوية!



ثقافة وفنون

في إشكال مدن الملح:

الحداثة المتناقضة وإنسان الأطراف

د. فيصل دراج

يكتب عبد الرحمن منيف، في الجزء الأول من «مدن الملح»، عن اللقاء الأول بين الآلة الأوروبية والطبيعة البريئة الغريبة عنها، ما يلي: «الآلات المجنونة تقتلع الأشجار، وتدك الأرض، وتقلب كل ما فوقها... .. كانت الأشجار، وهي تميل وتترنح، قبل أن تسقط تصرخ، تستغيث، تولول، تجن، تنادي نداء أخيرا موجعا، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرع، وكأنها تحتج وتريد أن تلتحم بالتراب من جديد، في محاولة لأن تنبثق، لأن تتفجر مرة أخرى.. ...». تتكون الصورة الخافقة بالحركة الموجعة، من الاقتلاع والدك والقلب والترنح والسقوط والاستغاثة والاحتجاج والمقاومة اليائسة، مشيرة إلى أمرين: اللقاء القاتل والدفن النهائي، علا صوت الضحية مولولا أم أخرسه القاتل من النظرة الأولى. تصف الرواية مواجهة بين عنصرين غير متجانسين، أولهما آلة قاتلة جاءت من الثورة الصناعية، وثانيهما طبيعة بريئة قديمة، لم يمسها التصنيع والعقل التقني. زمنان مختلفان كليا، يرجع اختلافهما صوت الضحية إلى صمت أخرس، لن يلتقي قط بمن يلتفت إليه.



تطرح رواية منيف إشكال «الحداثة الكونية» التي ولدت في «مركز» أوروبي وذهبت إلى «أطراف» لم تعرف الحداثة. التبس الذهاب بقوة طرف ويضعف غيره، وتعين «قتلا» بأدوات أوروبية. فالقتل مستمر وقديم دون أن تظل أدواته المستمرة قديمة. تستدعي «الحداثة القاتلة» خطابا عربيا، قديما متجددا، رأى الحداثة مقولة كونية، تتوجه إلى إنسان يساوي غيره، وتعد البشر بحقوق متساوية. اعتقد الخطاب أن الزمن الكوني يأوي جميع الأمم العاقلة، وأن أفكار الثورة الفرنسية متاحة للجميع، دون تقييد أو إعاقة. وعن زمن الحق الذين يظل أبناء الأزمنة الحديثة، صدر تفاؤل الطهطاوي وأحلام طه حسين واجتهاد اللبناني النبيل رئيف خوري.

غفل الخطاب العربي، الذي تعايشت فيه البراءة وجمالية الأفكار، عن نسبية الحداثة، التي تطاوع من جاء بها وتعاقب غيره، وتتجلى نعمة في المركز وجحيما في الأطراف. فالإنسان المبدع، الذي يخلق تاريخه وتاريخ غيره، هو «روبنسون كروزو»، الذي نصبته «الأمواج الرحيمة» حاكما على جزيرة «عذراء»، يهلك «المتوحش» من سكانها، ويحول من تبقى إلى قوة عضلية منتجة. والإنسان الحديث هو «لورانس العرب»، الذي مقت في بعض العرب بشرتهم البيضاء قبل أي شيء آخر، لأنه اعتقد أن البياض صفة حضارية، تليق بشعوب وتهان إن انتقلت إلى أخرى. أما «حقوق الإنسان» التي جاءت بها الثورة الفرنسية، فقد ترجمها ابنها النجيب نابليون بونابرت إلى مدافع تدك الإسكندرية وخيول تطأ سنابكها ساحة الأزهر، وإلى أسرى مصريين يلقى بهم في النيل ليلا ودعوة تحض اليهود على الرجوع إلى «أرض أجدادهم». ولن يكون معنى العقلانية، وهي مقولة حداثية، مختلفا، منذ أن آمن «العقلانيون الكبار» بالمراتب البشرية، كأن يكتب الفيلسوف الإنجليزي هيوم في القرن الثامن عشر: «تشكل الأمم الأوروبية هذا الجزء من الكرة الأرضية الذي يقتات بشعور الحرية والشرف والإنصاف، وبقيم تتفوق على قيم البشرية جميعا»، وأن يتحدث الفرنسي رينان عن «البربرية» التي لن «تملك المدفعية أبدا، وحتى لو امتلكتها فإنها لن تحسن استعمالها». لن يكون التاريخ الكوني في هذا التصور، وهو تاريخ حديث، إلا التاريخ الأوروبي، الذي عين ذاته مرجعا للحقيقة.

كتب الفيلسوف الألماني «كانت»، في مقالته الشهيرة: «ما هو التنوير؟» - ١٧٨٤ -: «عصر التنوير هو خروج الإنسانية، بقواها الذاتية، من حالة عدم النضج الآثم. إن الكسل والجبن هما السببان اللذان يجعلان جزءا كبيرا من البشرية يبقى سعيدا في حالة عدم النضج هذه.... تنطوي كلمات الفيلسوف على نبرة إنسانية غيورة، تشجب الكسل والجبن، دون أن تمنعه عن اشتقاق غير الأوروبي من

الأوروبي. فإذا كان الأوروبي هو من اكتشف فضائل النشاط والشجاعة، فإن الأثم العاجز هو الذي لم يقع على الاكتشاف الأوروبي. يفصل الفيلسوف، وهو يتحدث عن النضج ونقيضه، بين إنسانية قاصرة مشدودة إلى طفولة آثمة، وأخرى تحررت من العجز الأثم، واستوت مكتملة النمو فاضلة. يصل الفيلسوف إلى «تفاوت الشعوب»، عقلا وخلقا، مبررا السيطرة والإخضاع، ومسوغا استعباد الإنسان النشيط لغيره. لهذا «قرر الإنجليز، كما غيرهم من الأوروبيين، التحول إلى مبشرين بالحضارة»، طالما أن في الإنسانية «آثما» يحتاج إلى الهداية و«قاصرا» لا يحسن التفكير. لم يشر «كانت»، وهو يقيس غير الأوروبي على الأوروبي، إلى «الآلات المجنونة» التي تفتك بأراضي «الأثمين»، بعد أن رأى «الأنوار» في المركز الأوروبي والظلمة في أطراف تجهل معنى التنوير.

يوسع «هيجل» خطاب «كانت» منجزا مركزية أوروبية نموذجية، تقرر التاريخ الكوني أوروبيا، وتقرأ في الأخير انتصار الإرادة الإلهية. يقول الفيلسوف التنويري: «ينهب التاريخ الكوني من الشرق إلى الغرب. إن أوروبا هي، بشكل مطلق، نهاية التاريخ الكوني، وأن آسيا هي بداية له». على خلاف «كانت»، الذي يأخذ بمجاز عضوي قوامه الطفولة المتأبدة والنضج الأخير، يأخذ هيجل بمجاز زماني - مكاني، ينزاح التاريخ فيه، بشكل مطلق، من آسيا قديمة إلى أوروبا حديثة. ينزاح التاريخ، الذي استقر في نهاية أوروبية، عاقلا محملا بغايات سماوية، فهو «التحقق الذاتي للإله وللعقل والحرية»، أي أنه، بلغة أخرى، التحقق اللاهوتي لسيرورة التنوير. رأى «كانت» التنوير في الانتقال من القاصر الأثم إلى الناضج الفاضل، وأبصره الألماني الآخر في الانتقال من قارة قديمة، لا عقل فيها ولا حرية، إلى قارة حديثة، هي مركز العالم ونهايته. يتم الانتقال، هيجليا، من الشرق المطلق إلى الغرب المطلق، أو من الشرق إلى غرب هو المطلق عينه. وهذا الغرب / المطلق يجعل إفريقيا، وبلدانا على صورتها، أرضا مغلقة، «يركد» فيها افريقي «فج»، يكرر ساكنا تعاليم ثابتة. يفصل الفيلسوف، نظريا، بين «العقل المغلق» والعقل المفتوح ويرحل الفرق، تطبيقيا، من قارة إلى أخرى. وبفضل هذا الفرق يستطيع «المجتمع المدني»، وهو مجتمع أوروبي لزوما، أن يحل تناقضاته الطبقية في الأراضي «المغلقة». كأن المستعمرات، بـ «المعنى الفلسفي»، شرط تحقق «المجتمع البرجوازي»، يستوعب فقراء أوروبا ويعيد انتاجهم أغنياء هادئين. تتحدد «بلاد النفط»، التي يكتب عنها منيف، «أراض مغلقة»، بالمعنى الهيجيلي، تنتظر «عقلا مفتوحا» يدك ثباتها بـ «آلات مجنونة». يصل هيجل، متكئ على فلسفة الانتصار، إلى نهاية التاريخ، ويخترع معها إنسانا مغايرا خلفه التاريخ الكوني وراءه، منتهيا، أي الفيلسوف، إلى «شريعة الأقوى»، الممتعة على مستوى الصياغة الفلسفية والشفافة في حيز التطبيق.

لم يكن غريبا، والحال هذه، أن يفسر «الخطاب الفلسفي للحداثة»، من هيجل إلى هبرماس، الحداثة الأوروبية بـ «مكونات أوروبية داخلية»، دون إضافات خارجية. فالحداثة، وبالمعنى المتداول فلسفيا، هي: الإصلاح الديني، الثورة الفرنسية، فلسفة التنوير ونهوض الآداب والفنون، يعطف عليها، أحيانا، توسع سبل الملاحة، مثل الوقوع على «رأس الرجاء الصالح». وللتفسير المجزوء، الذي يبدأ بأوروبا وينتهي بها، أسباب لها شكل البداهة. فإذا كانت الحداثة الأوروبية هي العقل والحرية والإنسان النشيط، فإن ما يقع خارج أوروبا لا حداثة فيه ولا يقبل بالتحديث. كما لو كان «الآخر» حيزا مغايرا يطبق عليه الأوروبي الحديث أدواته الحداثية لا غير. إنها «ثنائية» المركز والأطراف، أو الداخل والخارج، التي تجعل الأوروبي يعترف بذاته بمقولات حداثية، ويطبق على «الآخر» «آلات حديثة جهنمية». لا يرى الخطاب الأوروبي بهذا المعنى، في «اكتشاف أمريكا»، وهو النهاية الفعلية للعصور الوسطى، بعدا حداثيا، ولا يتوقف أمام «اكتشافات» أخرى، أحالت على تجارة العبيد وتدمير حضارة «المايا»، أو على غيرهما. يأتي الموقف من «تفاوت الشعوب»، الذي يعطي الحقوق والواجبات لإنسان جدير بالحقوق كما قرر هيوم، ويمنعها عن «الطفل الإنساني»، الذي لن يبلغ «مرحلة الرجولة».

تحجب كلمة «الاكتشاف» إلغاء «الآخر»، ذلك أن «المكتشف» لا وجود له إلا لحظة اكتشافه. مدين هو بوجوده لمن عثر عليه لـ «المرة الأولى»، ومدين له أكثر بـ «اسمه الجديد» الذي أنعم به عليه. وبما أن التسمية خلق، يكون على المخلوق أن ينصاع إلى أوامر خالقه، وإلا استجلب عقابا شديدا يعيده إلى الطريق السوي. يصبح تمرد «الهندي الأحمر» عصيانا وإبادته تأديبا، لأنه نسي أنه «مكتشف»، وأنه، قبل الاكتشاف، لم يكن موجودا، وأن «المكتشف» (بكسر الشين)، هو الذي يقرر مصير واستعمالات ما عثر عليه، هنديا كان أم إفريقيا أو نفطيا عربيا يرقد تحت الرمال.

ينسى الخطاب الحداثي الأوروبي، في شكله المسيطر، مصائر إنسان «الأطراف» مرتين: ينساه حين لا يرى دور «ثروة الآخر» في حل تناقضات «المجتمع المدني»، بلغة هيجل، وينساه حين يغفل عن دور «المجتمع الأوروبي» في إتلاف «الآخر» واعتقال تناقضاته. يحجب «الاكتشاف» النسيان المزدوج، ويصير كلمة محايدة تلائم البشر والأشياء، بل يتحول،

غفل الخطاب العربي الذي تعايشت فيه البراءة وجمالية الأفكار عن نسبية الحداثة التي تطاوع من جاء بها وتعاقب غيره

تحجب كلمة «الاكتشاف» الغاء «الآخر» ذلك أن «المكتشف» لا وجود له إلا لحظة اكتشافه مدين هو بوجوده لمن عثر عليه لـ «المرة الأولى»

تقرأ «مدن الملح» الفرق بين حداثة المركز وآثارها الدامية في «الأراضي المغلقة»

يبني منيف روايته من متواليات حكائية، تذكّر بموروث أدبي عربي. وباجتهاد خاص في التعامل مع الراهن والموروث

وقد تجرد، إلى تجربة علمية جمالية تأملية. فـ «الاكتشاف» علاقة مركبة بين الإنسان والطبيعة، تتضمن العلمي والشعري والتقني والتجاري، أي جملة علاقات موضوعية لا «تؤثم» أحداً، شريطة عدم التدقيق في مفردة ملتبسة هي: الطبيعة، التي تسوي بين النفط و«العبد» الإفريقي و«رأس الرجاء الصالح».

يفضي معنى الطبيعة، في تطور ينصب «الغرب» مركزاً، إلى الفصل بين حاجات الإنسان الغربي، وهو حداثي لزوماً، وحاجات «الآخر» الذي اكتشفته حداثة جاءت إليه ولم يسع إليها. لذلك تأتي «الآلات»، التي استحدثتها الثورة الصناعية، إلى «أرض مغلقة»، وتعالجها بأسلوب حديث، دون أن تكترث بـ «إنسان كسول»، هو امتداد للطبيعة وللكشوفات العلمية. فهذا الإنسان، الذي تطبق عليه الحداثة، سعيد بسلطة تقليدية، تشتري الحداثة، وتمتهن «حقوق الإنسان»، وتتعامل مع السلع الحديثة وترى في الأفكار الحداثية كفراً. يخلي مفهوم الحداثة مكانه لمصطلح: السوق، حيث الحداثة هي سوق المنتجات الحديثة، و«الآخر»، الذي فاتته الحداثة، مستهلك كوني.

يتكشف الزمن الكوني، في مصائر الحداثة، غربياً بامتياز، ويتجلى «زمن الأطراف» أثراً حداثياً عاطلاً، لا هو بالزمن الذي كان ولا بالزمن الذي سيغدو حداثياً، فهو جزء في الزمن الكوني وليس منه، يتغير بغيره ولا يغير شيئاً. إنه الزمن المفتت الذي لا يقبل التوحيد، يكتبه الزمن المنتصر مجازياً، بما يحفظه مفتتاً بلا هوية، ويكتبه فعلياً خارج المجاز، مؤكداً كسله وإثمه وتأبيه على الحداثة والتحديث. لهذا يفسر المؤرخ المنتصر انتصاره بحداثته ويشرح هزيمة «الآخر» بتقليديته، مستعيداً، بشكل آخر، ثنائية الإنسان والطبيعة المحايدة. فكما يهزم الإنسان المبدع الطبيعة، بعد أن اكتشف قوانينها، تهزم الحداثة التقليد، بعد أن اكتشفت «المجتمع التقليدي» وفضت أسراره. تأتي الأفكار من العقل وتذهب تطبيقاتها، إلى حيث تشاء، مبينة أن شرعة الغاب تظل كما كانت، حتى لو أخذت صياغة هيجيلية فاتنة.

حمل التاريخ الكوني معه في القرن الثامن عشر وما تلاه مصطلح «الأدب العالمي»، الذي يترجم عالمية الأدب الأوروبي ويعتبره أدباً للعالم كله في آن. لا يخفي المصطلح الأدبي انتصاره، متكئ على سلطة من جاء به وعلى دلالته اللفظية المباشرة. وهو، في الحالين، يقول بحداثة كتابية لا تنفصل عن حداثات مجتمعية متعددة، وسعت زمن المتخيل الأدبي الأوروبي ومكانه. أفضت الحداثة الأدبية، التي تقرأ «الأطراف» بمقولات من «المركز»، إلى البحث عن حداثة أدبية أخرى، ذهب إليها جمال الغيطاني وغيره من دروب مختلفة، وتوقف أمامها طويلاً عبد الرحمن منيف في «مدن الملح».

تقرأ «مدن الملح» الفرق بين حداثة المركز وآثارها الدامية في «الأراضي المغلقة»، وتنقب في الفرق عن كتابة أخرى، تتهم «الأدب العالمي»، وتتطلع إلى عولمة أدبية جديدة. يسطر الروائي فوق الفرق المزبوع تاريخه الوطني، الذي كتبه المؤرخ المنتصر كما أراد، وأوله «الأديب العالمي» كما ارتأى. وهذا الفرق، المصنوع من الهزيمة والانتصار، هو الذي يقود الروائي مباشرة إلى موضوع التاريخ، ويملي عليه كتابته من جديد، مخاطباً ذاكرة ناقصة، ومتطلعاً إلى ذاكرة لا تمكر بالمغلوبين. يبحث الروائي، الذي يكتب التاريخ السلطوي بشكل مغاير، في التاريخ الكوني عن ذاته المغيبة ويتأمل فيه الذات التي تغيب غيرها. لكنه وهو يواجه ذاتاً بأخرى، يواجه «الأدب العالمي» المكتفي بأوروبيته، بـ «أدب غير أوروبي»، مشغول بالاعتراف بذاته وباعتراف متبادل محتمل بين «الآداب العالمية».

يبني منيف روايته من متواليات حكائية، تذكر بموروث أدبي عربي، وباجتهاد خاص في التعامل مع الراهن والموروث. ومع أن في البناء صوتاً فردياً / جماعياً، فإن فيه، لزوماً، الآخر الأوروبي، الذي أنتج هوية أدبية متحققة، وهوية مغتربة تفتش عن ذاتها. ولهذا يستقدم منيف «الأصل الأدبي العربي» ويلقي به في وجه «الأدب العالمي»، حيث على الأصل أن يتبدل وأن يصبح جزءاً من البحث الراهن، وأن يظل بحثاً مفتوحاً لا يعرف الانغلاق. فلا علاقة بين الهوية والانغلاق، لأن انغلاق الهوية يعادل موتها. يعيد الروائي بهذا المعنى، كتابة تاريخ شعبه المغلوب ويسائل تاريخاً أدبياً وطنياً صاغ، بأشكال مختلفة، أسئلة الغلب والخيبة والاغتراب. يتهم الروائي، في الحالين، تاريخاً سلطوياً، مرجعه حاجات السلطة، وتاريخاً كونياً، يضع شعوباً فوق أخرى، و«أدبياً عالمياً» يختصر العالم إلى قارة واحدة. كأن «الأدب العالمي» بالمعنى النبيل للكلمة، هو الذي ينقض أسطورة «الأدب العالمي»، ويرى إلى أدب تتوازعه الشعوب جميعاً، بعيداً عن ثنائية المركز والأطراف والانتصار والهزيمة.



عبد الرحمن منيف

..الروائي خارج الرواية

سعيد البرغوثي

تعرفت إليه مثل الملايين الذين عرفوه عبر إبداعاته الروائية، لم أكن أحلم أن أظفر باقتراب أكثر، كنت مكتفيا وممتلئا بإبداعاته حيث كنت أجد نفسي هناك.. أحلم وأتألم وأشاكس وأحزن وأرفض.. وأعيد تكويني! كنت أترك لخيالي العنان ليرسم صورة الرجل، الروائي كما أشاء. فلم أكن أحلم باقتراب أكثر، وعبر قراءات تدهشني كنت أتساءل: ما الذي أخذ الحقوقي والاقتصادي إلى عالم الإبداع الروائي.. وأتساءل: كم كانت خسارة المشهد الروائي كبيرة لو أن منيف لم يهجر عالم الحقوق والاقتصاد إلى عالم الرواية؟!

وتولد دار كنعان، ومع ولادتها كمشروع تنويري ثقافي ولدت معها المشاريع.. وفي غرفة متواضعة هناك التقيت به: فارعا كرمح، حيويا كنهر، متحفزا كبركان.. يسأل ويصغي.. ومن عباءته وعباءة الراحل سعد الله ونوس، والناقد فيصل دراج ولدت «قضايا وشهادات» كمشروع لكتاب دوري يتطلع إلى عمل ثقافي جماعي، يبدأ من أسئلة الواقع اليومي التي تمس المثقف ودوره بقدر ما تمس الإنسان العادي الباحث عن الخبز والحرية والكرامة الوطنية.. هناك عرفت الروائي خارج الرواية!

وإذا كان تساؤلي السابق، ما الذي أخذ الحقوقي والاقتصادي إلى الإبداع الروائي.. عاد سؤال آخر يشاغلني من جديد: ما الذي يجيء بالروائي المبدع إلى عالم التنوير، ليخوض في بحوث جافة كالحداثة والعقلانية، والديمقراطية، والثقافة الوطنية! ولم يكن هذا التساؤل مقتصرا على «منيف»، بل تعداه لمبدع آخر تقاطع معه بالهواجس نفسها، حيث جاء من المسرح الذي وقع عبره مبكرا أحد أهم أعماله المسرحية «حفلة سمر من أجل خمسة حزيران»، ولم يكن قد تجاوز العشرين إلا قليلا، منفعلا بهزيمة حزيران عام سبعة وستين، فيما كان «دينامو» الناقد فيصل دراج يحلق به بين هذا وذاك، معلنين ولاءهم للشأن العام.. منشغلين بالإنسان والتاريخ والجغرافيا.. ثم ليضموا إليهم فيما بعد جابر عصفور.. ولاحقا نصر حامد أبو زيد من مصر.

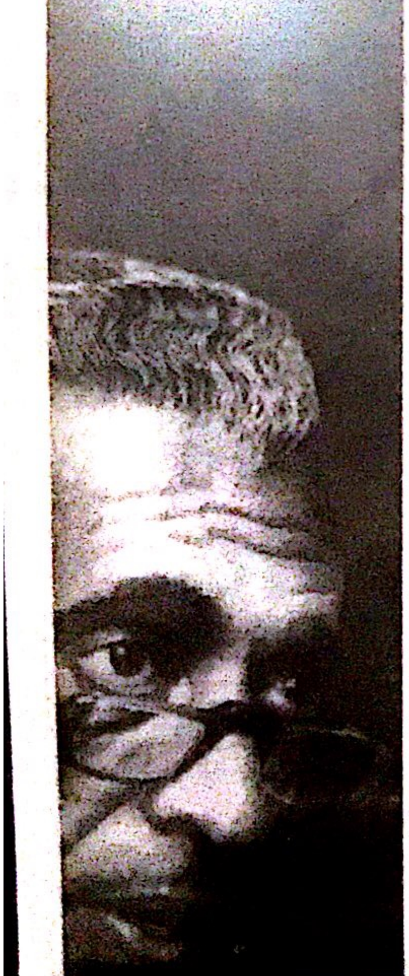
ولم تكن الإجابة على تساؤلاتي السابقة صعبة، فقد كانت مستبطنة بالأساس في ثنايا إبداعاتهم. كانت تتخفى أحيانا وتطل برأسها أحيانا أخرى، من بين «الأشجار واغتيال مرزوق، وشرق المتوسط، وعالم بلا خرائط.. وخماسية مدن الملح..» أو من «حفلة سمر ورأس المملوك جابر».. بينما كانت واضحة عبر المقالات النقدية والسياسية التي سخر دراج حيزا واسعا منها لثنائية المثقف والسلطة، معلنا الانحياز للمثقف الآخر.. المثقف العضوي.. مثقف الشأن العام بمواجهة ثقافة تابعة ظلامية.. ينتجها مثقفون بائسون بوطأة حسابات بائسة.

وهكذا.. وأنا المعني بالجانب التنفيذي «لقضايا وشهادات» وجدت نفسي على تماس يومي مع الروائي خارج الرواية.. ومع المسرحي.. خارج المسرح.. والناقد المشغول بالقيمة الحقيقية للثقافة.. لم أكن أعرف أيهم الطير.. وأيهما الجناحان، فقد كانوا يعملون بتناغم مدهش استكتابا واختيارا وتحريرا وإبداعا.. طيلة الأعداد الستة التي صدرت من «قضايا وشهادات».

رحل سعد الله ونوس، وبرحيله فقد كل من منيف ودراج أحد جناحيه! لملما جناحيهما، وأصدرا العدد السابع والأخير من «قضايا وشهادات»، «تحية إلى سعد الله ونوس».. ولا أعلم الآن.. هل سيكون بمقدور دراج، وبلا جناحين إعداد عدد ثامن أخير «تحية إلى عبد الرحمن منيف»؟!.

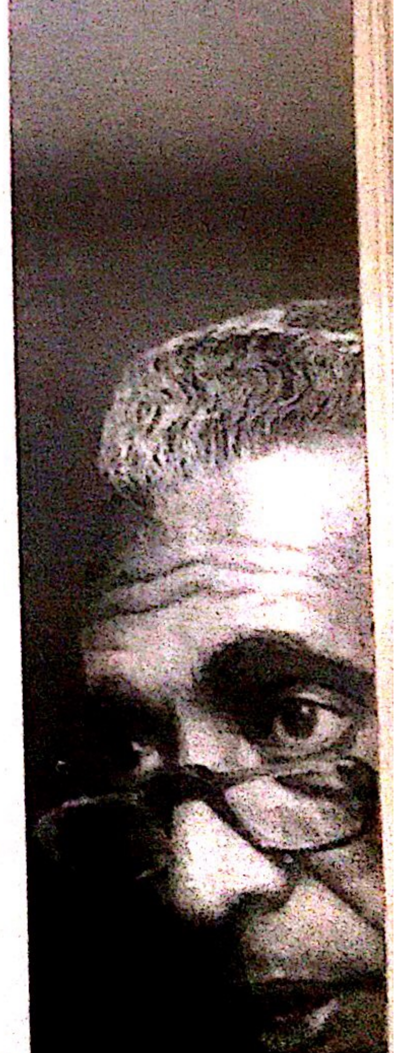
ما الذي أخذ الحقوقي والاقتصادي إلى عالم الإبداع الروائي؟

وكم كانت خسارة المشهد الروائي كبيرة لو أن منيف لم يهجر عالم الحقوق والاقتصاد إلى عالم الرواية؟!



عالم عبد الرحمن منيف الروائي ينطلق من ثلاث مقولات وهي: مقولة القمع.. ومقولة الهزيمة ومقولة الصحراء..

بغياب عبد الرحمن منيف يفقد الإنسان العادي الباحث عن الخبز والحرية والكرامة الوطنية أحد أكبر مناصريه



بعد المرض الذي ألزمه البيت، وهناك في منزله كنا نلتقيه، ودائما برفقة زوجته.. رفيقة دربه الطويل.. ومع ابتسامته الدائمة كان يسأل عن كل صغيرة وكبيرة: صحتنا! عملنا! همومنا! مخفيا آثار مرضه ومواجعه رغم وطأته، وكأنه إشفاقا وحرصا علينا، لا يريد أن يحملنا عبء مرضه.

وبعيدا عن «قضايا وشهادات»، ترك لنا أبو عوف فسحة للاقتراب من شواطئه الخاصة، وسمح لنفسه بتلك الفسحة.. هناك كان عالمه الآخر، حيث كان مشغولا على مدار الأيام بهموم السياسة والثقافة والإبداع، فقد كان مشاركا في معظم الندوات الثقافية، ومتابعا يقظا للتطورات السياسية.. وأيضا متابعا بشغف للفنون التشكيلية والمسرحية، حيث دائما مكانه المفضل بين زوجته وابنته!

خارج نصوصه الروائية، التي عرفت بما فيه الكفاية، يمكن لنا أيضا استخلاص بعض ملامح الروائي من خلال حواراته العديدة التي تلقي الضوء على تطور مواقفه، ومسارات حياته المتعرجة، التي نعثر على أصدائها مبثوثة في ثنايا نصوصه الإبداعية.

فمن عالم السياسة كانت الانطلاقة الأولى كمهنة واحتراف، تتعايش إلى جانب الأدب كهواية.. ومن ثم طرأ التحول على المسار باتجاه الأدب والرواية تحديدا كخيار تحولت معه الهواية إلى مهنة، وعندما قرر أن يترك السياسة كعمل حزبي، دون أن يتركها كهم ومتابعة للشأن العام، يقول منيف في أحد حواراته: «نحن كجيل، فتحنا عيوننا على أول هزيمة للعرب في مواجهة إسرائيل في العام ١٩٤٨، ثم تتابعت الهزائم التي أعطت مؤشرات عن فشل الصيغة السياسية القائمة، كونها دون مستوى التحديات، وطبيعي كلنا انخرطنا بشكل أو بآخر في العمل السياسي، لكن دائما يبحث الإنسان عن مركز الثقل الذي يناسب موقعه وإمكانياته، إذا أراد أن يكون مؤثرا، ولعله من سوء الحظ، أو ربما من حسنه أنني وجدت نفسي ضمن صيغة سياسية، رغم تفاعلي معها، وانصرافي لكل متطلباتها تبين لي، أنها لا تكفي، من هنا، بدأ تطلعي نحو وسائل تعبير تعوض لي هذا النقص فكانت: الرواية وسيلة أو صيغة أعتبرها قادرة على التوصيل، وقادرة على طرح المشاكل بجرأة أكبر، هذا لا يعني أنني أدين العمل السياسي وأعتبر الرواية بديلا. الرواية لا يمكن أن تكون بديلا عن أي شيء. مهمة الرواية الأساسية أن تزيد في الوعي العام، وتخلق حساسية إضافية لإدراك المشاكل والهموم وبالتالي المساهمة في عملية التغيير المطلوبة».

البداية تكون مع الميلاد والأصل، والروائي عبد الرحمن منيف أبصر النور عام ١٩٣٣ في عمان، والده من «نجد».. ووالدته عراقية.. وهكذا جمع المكان بين هذا المثلث. انتقل والده كما يقول من نجد إلى العراق وسورية والأردن بحثا عن الرزق، وخلال رحلات الوالد مع الأسرة كانت هناك محطات استقرار مؤقت. في إحدى هذه المحطات مات. أنهيت دراستي الثانوية في عمان، بعدها ذهبت إلى بغداد من أجل الدراسة الجامعية حيث درست الحقوق. بقيت في بغداد حتى عام ١٩٥٥ حيث طردت لأسباب سياسية فذهبت إلى القاهرة.

في القاهرة أكملت دراسة الحقوق، ومنها ذهبت إلى يوغسلافيا للدراسة أيضا حيث تحولت إلى الاقتصاد بعد يوغسلافيا عدت إلى بيروت متفرغا للعمل الحزبي والسياسي، ثم جئت إلى سورية عام ١٩٦٤. وبقيت حتى عام ١٩٧٣ أعمل كموظف في وزارة النفط، وأخيرا في تسويق النفط وكنت أتردد إلى سوريا قبل ذلك ومنذ عام ١٩٦١.

بعد عام ١٩٧٣ غادرت إلى لبنان، حيث مكثت سنتين ومنها إلى العراق مرة أخرى حيث قضيت سبع سنوات كنت أعمل فيها رئيسا لتحرير مجلة (النفط والتنمية).

منذ سنة ١٩٥٠ وحتى ١٩٦٥ كان مستغرقا في العمل السياسي، ثم مع موجة الانحسار والهزائم شعر بخديعة المؤسسة السياسية، وتفرغ للرواية كأداة أخرى يعبر من خلالها عن قضاياه السياسية، وبهذا المعنى جمع بين حقلين معرفيين لهما التأثير الأقوى والقدرة الأفضل على الإقناع وعلى التبصر بالحقائق التي تخص عن الآخرين.

بقي التنويه أن عالم عبد الرحمن منيف الروائي، وحسب الناقد الراحل صبحي الطعان ينطلق من ثلاث مقولات، وكل ما عداها أتى تفصيلا لها وتفريعا وهي: مقولة القمع.. ومقولة الهزيمة ومقولة الصحراء.. وهذه المقولات تشكل الملامح الكبرى لعالم منيف الروائي وكأمثلة على ذلك يمكن أن نعثر على مقولة القمع بوضوح في ثلاث روايات للراحل: «الأشجار واغتيال مرزوق.. شرق المتوسط، الآن هنا»، وتتوضح مقولة الهزيمة بملامحها الكبرى في روايات: «حين تركنا الجسر، قصة حب مجوسية.. وعالم بلا خرائط».. أما عالم الصحراء.. فهو يقاربه من خلال «الأشجار، النهايات، سباق المسافات الطويلة ومدن الملح.. وأرض السواد».

أما المدن التي عرفها منيف، وعاش فيها، فكان لها حضور واسع في أعماله، بغداد، عمان.. أما دمشق التي أحبها، فقد عاجله القدر قبل أن يكتب روايتها..

بغياب عبد الرحمن منيف تغيب قامة إبداعية وإنسانية من أبرز القامات، ويفقد الإنسان العادي الباحث عن الخبز والحرية والكرامة الوطنية، أحد أكبر مناصريه. أما أسرته المفجوعة برحيله، زوجته وأولاده، فلم يفقدوا احتضان الزوج والأب فقط، بل فقدوا صديقا جسد إيمانه بالديمقراطية والتعدد واحترام الآخر، بداية من هنا من بيته.. من بيتهم..

الطائف.. الطواف.. والطوفان!!!

عادل محمود

... سيأتي اليوم الذي يقال فيه بدلا من «المنطقة العربية» «منطقة الطوائف». ثم يأتي لاحقا التنويع المسرحي الساخر محمولا على سجع: ... كمنطقة الطواف (الأماكن المقدسة) ومنطقة الطفو (البترول) والطوفان (منطقة الاضطرابات)!! فخريطة المنطقة في ظل الاحتلال - أصبح لدينا اثنان - هي مناطق صفراء (سنية) وخضراء (شيعية) وحناء (كردية) وثمة صلبان يمكن التلويح بها أيضا. وماذا أيضا ؟! إن لحماس منطقتها، وللجهاد أيضا ولفتح، لأبي علاء، وأبو عمار ونصر يوسف وحكم بلعاوي. ويوسي بيلين يقسم، على كيفه، مع مجموعة فلسطينية، فتصبح القدس أربع مناطق متفقا على سيادتها. والضفة مستوطنات يهودية ومواطنين فلسطينيين. وتبدأ مسرحية جديدة ينتقدها الجميع.

نحن نعلم أن الضفة الغربية ذهبت عام ٦٧ بـ العرش الهاشمي، الذي بسبب إعلانه الحرب مضطرا أمام فروسية وافتراس الجماهير وأمام احتمال أن يصدق أحمد سعيد فينتصر العرب...

وبسبب آخر وآخر... فتح دايان خريطته الجاهزة ودخل. إن الله وحده، (بسبب غلاوة القدس)، يعرف متى يخرج دايان، ليس من القدس ورام الله وبيت لحم... وإنما أيضا من البيت العربي الذليل، والذي لا حول له ولا قوة... دخل دايان إلى «قلب» الأمة ولم يخرج بعد!!!.

نحن نعلم أن غزة وأريحا أولا... افتتحت (شعارا وبازارا) باب مفاوضات مغلق منذ الدرفات الداخلية بنوايا إسرائيل التي تمطمط الوقت لكي تتسع الإمكانية، ويلائم الظرف، ويضعف الخصم ولا تضيق العبارة!!... فتستبدل غزة أولا بغزة أخيرا.

وهاهم اليوم يصطادون في ضواحيها: رفح أولا وغزة أخيرا.

فإذا كانت حماس تعتقد أن غزة هي ساحة المعركة (العسكرية) فإنها كمن قال: (بغداد هي المعركة) وكمن قال: (فارس لفارس هي المعركة). والتساؤل هو: هل القضم اليومي للبيوت والقتل الانتقائي والعشوائي... ليس معركة؟ وأيضا، وبعد أن يدمر الإسرائيليون معاقل في غزة ثم لاحقا يقتحمونها عارفين الثمن وجاهزين لدفعه... ما الذي سيكون المعركة القادمة بمنطق السلاح الفلسطيني والانتحاريين الفلسطينيين؟ ماذا بعد؟

أما سؤالي فهو لماذا لا تترك غزة لنفسها قيمة القلعة وضرورتها واستمراريتها؟ ما دامت المعركة مع إسرائيل طويلة إلى هذا الحد، والحسم بعيدا إلى هذا الحد.. وهذا ليس عيبا بحد ذاته.. لماذا لا يكون هناك سوى هذا التكتيك الفقير: يضربون فنضرب. ثم يصعدون الوتيرة فنخفض الوتائر. يصعدون أكثر فيصبح الثمن أفدح على المدى الراهن والمتوسط والبعيد؟!

للأسف، كل هذا يحدث والجميع في تخبط لم نعهده من قبل في الأداء الفلسطيني/ السلطة منقسمة. والأفراد والفصائل والمناطق منقسمة: غزة لحماس، ورام الله لعرفات، والخليل للخلايلة، وبيت لحم لمسيح آخر.. ولا أحد يعرف حتى الآن، كيف ومتى ينتصر «من على من»؟ إن خطة للإنهاك هي المقررة والجارية. المنهكون لا يعرفون المستوى المطلوب كمنسوب للإنهاك إلا عندما يسقط الجميع في حفرة تنازلات لا قاع لها.

والجرافات لا عمل لها سوى تعميق هذه الحفرة، والجدار العازل يتكفل برسم خريطة الأمر الواقع.

إذا تدهور العرب، نفهم ذلك، فلديهم من الوديان والقيعان ما يكفي لاستيعاب خردة التدهور... أما الفلسطينيون فيجب ألا تنقلب، لحظة واحدة، عربة خضار في سوق نابلس... جراء الحذر الناقص لبائع متجول.
إن خطأ الفلسطيني.. خطيئة!!



المرأة

الطفولة والتصور •

محمد ملص

في محاولتي هنا لرسم ملامح المرأة بين «التصور» و«الصورة» في ما حققته سينمائيا أو أدبيا. سأعتمد في رسمي هذا ليس على الأفلام السينمائية الروائية، بل على النصوص السينمائية الأدبية التي كتبتها لهذه الأفلام.

فأنا أعتبر النص السينمائي، أو «السيناريو» عتبة قائمة بذاتها، له كيانه الإبداعي. وهو يضمر في داخله الرسم الأول للفكرة والأحداث والشخصيات..

واعتمادي النصوص، وليس الأفلام نفسها، يتيح للقارئ التأمل في عالم لا يقوم على التفلسف أو التنظير. أو يستقي مرجعيته من أفلام قد لا يكون قد شاهدها أو قد شاهدها منذ فترة بعيدة.

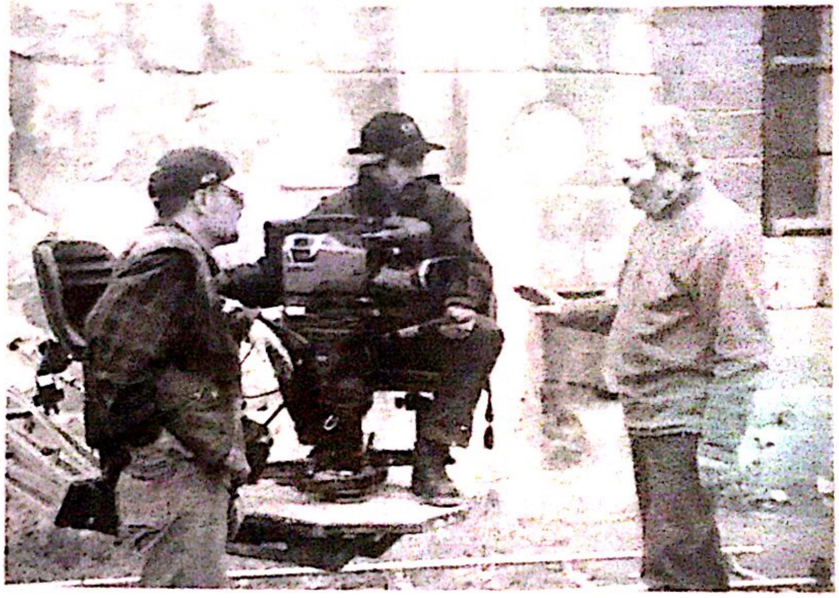
بالإضافة لذلك، هناك رغبتي وطموحي لإعطاء النص السينمائي أو «السيناريو الأدبي» مشروعية وحق التواجد كإبداع مستقل. أما الفيلم فهو إبداع آخر، يتشابه أو يتفارق عن النص، ينجح المخرج في تجسيد كامل طاقته أو يفشل في ذلك، فهذا أمر يخضع للسينما ولغتها وللنقد السينمائي..

سأترك النص يرسم كيف ارتسمت المرأة من خلال «التصور» ومن خلال «الصورة».

في ثلاثة نصوص روائية سينمائية، حاولت كتابة «ثلاثية» فيلمية، ترسم «بورتريه» سينمائي لسوريا، منذ أواسط الثلاثينات، وتحديدا منذ ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، وحتى أوائل التسعينات، وتحديدا حرب الخليج الثانية.

في هذه الثلاثية، كنت وفي كل واحد منها، ابحث عن شيء رئيسي وأساسي أحس بافتقاده، في عيشي اليوم في بلدي.

في فيلم «الليل» (١٩٩٢) كنت ابحث عن المكان المفقود. وكان المكان المفقود هو القنيطرة التي دمرها العدو الإسرائيلي. فأعدت بناءها وبناء حياتها سينمائيا واخترت لحياتها في الفيلم زمنين:



الزمن الأول يمتد من الثورة الشعبية في فلسطين عام ١٩٣٦ وينتهي عام ١٩٤٩ حيث حصل الانقلاب العسكري الأول في سوريا، الذي بدأ به انحدار الحياة المدنية.

الزمن الثاني ويمتد بين «ذاكرة مشتهاة» و«ذاكرة متخيلة» بين احتلال المدينة عام ١٩٦٧ وتدميرها عام ١٩٧٤ واليوم.

في فيلم «أحلام المدينة» (١٩٨٤) كنت أبحث عن الزمن المفقود، وكان هذا الزمن بالنسبة لي، منتصف الخمسينات، حيث حصلت أول انتخابات ديمقراطية في سوريا،

وقد اخترت لمكان البحث عن هذا الزمن، حي شعبي في مدينة دمشق.

وبدأت الفيلم من بدايات النهاية لمرحلة الديكتاتورية العسكرية عام ٥٢، وتكاثف التحركات الشعبية والسياسة التي قصمت ظهر هذه الديكتاتورية، وحققت الانتخابات. وأنهيت الفيلم بقيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨.

في الفيلم الثالث «سينما الدنيا» (لم يحقق بعد)، أحاول البحث عن «الذات المفقودة» عبر ذاكرة «لدماغ» مصاب وغائب، وعبر حب لم يعد له وجود. واخترت لمكان البحث عن هذه الذات المفقودة «السينما» كفضاء و إبداع وخيال وحب. أما زمن البحث فهو «عاصفة الصحراء».

في هذه الثلاثية كان الوطن هو التصور، والمرأة هي الصورة. لكن كليهما مغمسا بوقائع الحياة اليومية والاجتماعية والسياسية.

المرأة التي حاولت رسمها والتعبير عنها، تتمثل في شخصيات نسائية خاصة بي، تنتمي في كل نص إلى زمن الفيلم ولبيئته وعصره..

ودائما في هذه الشخصيات النسائية، كان لدي ما يتجاوز بيئتها ومكانها، وينتمي إلى عالمي الوجداني الشخصي، والى حبي الخاص للمرأة.

❖ ❖ ❖

.. في اختياري لـ «الذات» فضاء للتعبير عن نفسي أدبيا وسينمائيا، شكلت «الذاكرة المعاشة» و الوعي لـ «الذاكرة العامة» مرجعا أساسيا للمادة التي أستمد منها هذا التعبير.

وفي كل مرحلة، كنت أستخرج من هذه «الذات» ما يتفق والحاجة التعبيرية، وفق الموضوع الذي يمليه الوعي، أو الوجع، أو المشكلة التي تكون قد غدت بالنسبة لي، شوكة في الحلق، تفرض نفسها، وتدفع بي إلى الموضوع، أو ذاك، والى أداته المتاحة، كما تدفع في كثير من المرات، إلى صياغة شكل هذا التعبير.

في الوقت ذاته.. كانت ذاكرة «الطفولة» منارة الضوء واللون والصوت، في شطآن هذا الفضاء.

في البدء كانت «القنيطرة»

نحن لا نختار مسقط رأسنا، ولا نختار مراتع الطفولة.

لكن مدينة «القنيطرة» كانت المكان الذي سقط رأسي به، وكانت المكان

الذي تضوعت مجة الهواء الأولى منه وفيه، فوشمت هذه المدينة ذاكرتي.

ففي فضاء ذاكرتي «الموشومة» هواءها، وعلى جدران هذه الذاكرة صورتها، وفي دهاليزها مصيرها المأساوي.

وإذا كانت «القنيطرة» خاصرة جسد وطن تلقى طعنة فلسطين، فان صور ذاكرتي في هذه المدينة، تختلط بالصور التي عاشتها هي.

لكن الصورة الأخيرة في هذا «الألبوم» هي قبر أبي.

بعد موت أبي وموت المدينة، صار الوشم مرايا للصور..

وظلت المرأة - الأم المسربلة في السواد «برواز» و «كادر» للصورة، وتعطي للصورة «عبقها».

بعدها جاءت «دمشق».

وتبدأ دمشق من الصورة في «البرواز» معلقة على جدار الروح.

وحين تبدأ الحياة من جديد، تشكل المرأة - الأم، بقامتها وجسدها وصوتها.. عتبة لرؤية الحياة في دمشق الخمسينات، في ذلك الحي الشعبي من المدينة.

وتصدح الحياة بصوتها الصاخب في تلك الأيام، أو في ذاك العصر، ويختلط كل شيء، الطموح الوطني والتخلف والدين والمشاريع السياسية الكبيرة والشهوات والحب والدعارة والأديان والطوائف فتنهش جسد الوطن كله وتتكثف وتتعتق في «جرار» ذلك الحي وفي «دهاليز» الذات والوجدان والوعي.

فكيف ارتسمت صورة «المرأة» في فضاء هذه الذات؟

ومن كانت؟

وأي «عدسة» من عدسات الروح، وضعتها في «الكاميرا» لتصويرها؟

وما هو اللون والضوء؟

وهل كان لـ «صوت» المرأة صورة؟

فيما حققته سينمائيا وأدبيا، كنت أحس دائما أن «الصورة» في الفيلم أو «الكلمة» في النص لها صوت خفي، مضمر، يكمن في نسيج الصورة أو الكلمة.

ونظرا لحميمية وحسية العلاقة التي تربطني بهما، فقد



من فيلم أحلام المدينة

كنت أرى في تخلقهما الإبداعي تخلق كائن له ملمس وطعم ورائحة المرأة.

الليل

في النص السينمائي لفيلم «الليل» ليست المرأة شخصية من شخصيات الرواية، هي الرواية والرواية منها وعنها وبها، وهي الراوي..

وحين يكون للأحداث من يرويها، فنحن لسنا من يرسم، بل الراوي هو الذي يرسم نفسه.

❖ ❖ ❖

في هذا «البورتريه»، لا أريد أن أعرف، متى تكون المرأة «صورة» والمدينة «صوت»، ومتى يندغم الصوت في نسيج الصورة، والصورة في ذبذبات الصوت.

في هذا النص، نطل على العالم الداخلي والوجداني وعلى «ذاكرة» لحظات عبقة أو منسية أو ضبابية أو غامضة، والتي غدت كلها مع مرور الزمن: أشبه بشفاه متحركة في صورة صامتة.

أحلام المدينة

في النص السينمائي لفيلم «أحلام المدينة»، جملتين متباعدتين، لكن كلا منهما ترسم لحظة عابرة لصورة المرأة، بدتا لي مفاتيح موسيقية لقراءة أو عزف أو رسم صورة «المرأة» في هذا النص - الفيلم.

الجملة الأولى:

«.. كانت المرأة متسربلة بالسواد، وحين رأتنا أسدلت منديلها على وجهها، فتبلل المنديل بالعرق».

في هذه الصورة سعيت أن ينبعث الضوء من المرأة ذاتها، فينيرنا نحن ويرانا، ليس أن نضيئه لنراه.

الجملة الثانية:

«.. سمع الصبي صوت مدقة الباب، فنظر باتجاه المنزل، ورأى يد المرأة تخرج من وراء باب البيت، وتمتد وتمسك مدقة الباب وتقرع الباب ثم تختفي وراءه.. »

وفي هذه الصورة أردت القول، أن صوت المرأة «محرم» علينا، لكن يدها تطل مغمسة بالأنوثة، وأن سحر اللحظة يعلو بصوت



من فيلم الليل

[illegible]



[illegible]

... والحركة والصخب.

[illegible]

[illegible] ... الانتخابات الديمقراطية وعشية هذه الانتخابات [illegible]

[illegible]

تقول ثم ... [illegible]

[illegible]

ويلا الكمام. تجلس وتمد ساقيها منفرشحة ما بينهما، وتمسك الطرف الاسفل لفستانها وتهوي به على وجهها لتخفف عنها حرا خاصا بها. تكمل كلامها:

- شو ما في حر كتير. ولكن انا مثل النار. تنظر الى وجه الأرملة الشابة وتتأمله بتمعن واشتهاء وتقول:

- حقيانة اليوم... شو حطيت لوجهك..؟

- برأكوا بعد ما تقابلني المعلم راح يصير شغلك احسن!

بدي اسألك ما هذه الضجة في الحارات؟ وشو ها الانتخابات؟ شايفتها هذه المرة غير شكل.. وكل الناس عم يحكوا فيها.

بس جاء اليوم على حارتنا. وعملوا له استقبال فظيع.. والله نسيت شو اسمه!

العسلي؟ مو العسلي المختار. لا..! الشاب.. شو اسمه؟ يلي عيونه زرق وشعراته عكروزي. شو اسمه؟

وقف في ها الحارة نبعا وصار يخطب وحواليه ها الشباب.. انا لما عرفته لم يصير غيبه عني. والشباب يلي معه طارت عيونهم لما شافوني!

تتحمحم [illegible] وترمي الكلام رشا، تقترب مرة من اذني المرأة وتهمس لها. واخرى من صدرها وتتحسسهما وتقول:

- شوفي صدركنا شو عم ينعل ويصعر

تمد أم عدنان يدها من شعرها وتقول: أريني لك ينا الشيب في شعرك! وقفي! سأقلع لك الشيب!

تشد أم عدنان شعرات الشيب وتنتفها من رأسها وتقول: والله بكره ساحني لك شعرك بأيدي هدول!

ثم تشير أم عدنان إلى مرفقيها وتقول: و بكرة هو سيعبي لك أيديك ذهب ليمون!

تتابع قائلة:

- والله أنا بتمنى أن يموت زوجي، لأتزوجه بدلا منك! لكن ماذا أفعل؟ زوجي لا بيطلقني ولا عم بيموت!

بتعرفي؟! عم بيحصل ذهب من مصنع العباءات، وست وسبع «شغالات» لا يلحقون بطلبات الشغل! صنعة كنز! لو تري الناس التي تأتي إلى دكانه، كأنهم أمراء، وكلهم من الحجاز ومكة والمدينة..

إياك أن تضيعي الفرصة من يدك! بني آدم له فرصة واحدة في هذا العمر!

خايفه من زوجته الأولى؟ لا تخافي منها! هو سيطق على أن يتزوج غيرها، لتروح وتشق حالها، وهو لولا الأولاد لطلقها! سبع ثمان أولاد، أين من الممكن أن يرمي بهم؟

أنت شوي وراء شوي، تمكنين نفسك منه! الآن كم يوم.. كم شهر، أؤجركم غرفة في بيتي، وبعدين سيأخذ لك بيت خاص بك!

غرفتي مليئة كرمال عيونك، والتخت تبعي عريض! والخزانة كلها تحت تصرفك، وهي مليئة بالملابس الداخلية، وسأخيط لك روب واحد وخلاص!

يوم أو اثنين بعملك حفلة وبتدخلي! وريثما تصير الأوراق الرسمية بنكتب «كتاب براني»، وعلى سنة الله ورسوله.. والله ثلاث أرباع نساء هذه البلد متزوجون بـ «كتاب براني»، أنت فقط هزي لي برأسك موافقة، وستري كيف أني سأطير، وآتي لك بـ «المتقدم» ونمشي! لك والله المرأة إذا لم تنبسط في صباها، فمتى ستنبسط؟!

قومي! تحركي! أحركي شوي!

تقترب من أذنها وتهمس لها.

في هذه الصورة تبدو «المرأة» أشبه بـ «الشيطان» في لحظة الغواية.

تدور حول «المرأة» الأخرى، تقترب منها و تبتعد عنها، توشوشها، تصرخ بها، تؤنبها، تزجرها، تدلعها بحب، لكنها دائما تهدف إلى الإيقاع بها.

وهي لا تكف عن الكلام، بل لعلها تعيد الكثير من كلامها مرات عديدة.. أما المرأة الأخرى فلا تقول شيئا، إنها تسمع، تفكر، وتحس أن بعضا مما تقوله بالنسبة لها كأنه «مونولوج» داخلي خاص بها.

سينما الدنيا

في هذا النص السينمائي (لم يتحقق بعد كفيلم) يخرج المؤلف من وراء الحكاية ليرويها.

ويرسم ثلاث «بورتريهات» لثلاث نساء.

إمرأة منام

يقول الراوي في النص:

«... و حين التفت إليها، رأيتها وقد غفت بعمق وغطى شعرها الكستنائي وجهها الذي أدارته عني.

كان الغطاء الأخضر الذي التحفنا به، قد كشف جزءا من ظهرها الجميل، وإحدى ركبتيها..

تأملتها وبدت لي قطرتا العرق بين أوبار ظهرها، حبتين من الأمان تخرجاني من الوحشة التي تتملكني، وحين استقرت عيناي على حبة



البن، التي رسمتها يد الرب على ظهرها تسربت الطمأنينة العميقة إلى روحي.

وحين هبطت السلم لأخرج، كانت تقف على عتبة الغرفة، وقد أمسكت طرف الباب بيد وبالأخرى أطراف الغطاء لتستر به جسدها..

بدت لي في هذه العتمة، ظلالا تملأها عيناي بما يحلو لها من الصور، وكانت صورة أمي أولى هذه الصور...

قالت:

- الله معك!

وكان لصوتها طعم لا يتسرب إليه أي ظلال أو صور».

امرأة دنيا

«.. وحين استلقت في السرير، مديرة وجهها إلى الحائط، كانت تفوح في أنفي رائحة الخراب.

رفعت رأسها قليلا ونظرت إلي، ثم عادت وأغمضت عينيها، و تمتمت قائلة:

- ما بيهمك شي إلا السينما؟!.

أخذت أفكر بأن الاعتياد والاستكانة، لابد وأن تكونا قد نقلتا الخراب إلى داخلي أيضا.

قطعت تأملاتي والتفتت بجسدها إلي وقالت:

- هلا أنت ما في شي بالدنيا بيشغل بالك إلا الأفلام؟!

ثم التفت بجسدها مديرة ظهرها لي، وعاد تنفسها الرتيب ليسري في هذا الصمت.

كنت أحس أن هذه المرأة تستلب مني «الهواء»، وبدا لي أن الإنسان الذي يفقد كل شيء، يتصرف وكأنه يحتل كل شيء.

وأن هذه المرأة، التي أدير لها ظهري، وأستمع إلى تنفسها الرتيب، تعيش في فضاء من التعذيب الذاتي المسدود.

لقد فقدت الأمل في العثور على «الصورة، المشتهاة» التي رسمتها للعلاقة بيننا، ولم تعد تجد أمامها إلا اللجوء إلى تكسير «الصور» في مراياها الخاصة.

كان كل منا الآن يغمض عينيه ويتحدث مع الآخر وكأنه يتحدث مع نفسه. وكأنه «ضفدع» يحدق في نفسه في صندوق من مرايا الحلم أو الانتظار.

بدا المشهد بيننا، وكأنه نغمات «بوليرو» يلتف عن الآخر، أو يلتفت إليه، فيأز السرير النحاسي، وتتراشق الطلقات في خنادق ملتوية وعائمة، يطلق طلقته ثم يبحث عن وكر يلجأ إليه لينقض من جديد.

وهذا الصمت كان كالهدنة المؤقتة، حيث ما يلبث أن يئز السرير من تحتنا، ويبدأ كل شيء من جديد.

انتفضت وخرجت من صندوق «المرايا»، ومدت يدها وسحبت الغطاء عني، وأخرجتني من صندوق «مراياي»، كأنني «ضفدع» آن الأوان لتشريحه.

أخذت تتلمس جسدي قطعة قطعة، وتتحرى كل التفاصيل فيه، وكأنها تبحث عن أثر ما، عن بصمة، عن طعم، عن رائحة.. وتخلط الأسئلة بالإجابات، والصمت بالكلمات، والكلام المحكي اليوم بالمحكي قبل سنوات... حوارات الأفلام بحوارات الحياة... تدور وتندب الماضي وترثي الحاضر، وتتحسر على لحظات من هنا وهناك... ثم تعلن متوعدة ومهددة بفرض «الصورة» التي تريدها هي...

أخذت أحس بالاختناق وبالتعرق الشديد..

انتابني الإحساس بأن ما يجري، هو صراع «الصور» التي تبحث عن ضحايا لها، أو عن متفرجين، وكأنها صور شخصيات درامية، في حال من العجز والحيرة، ولا تجد أمامها إلا أن تعري نفسها وتنكأ جروحها وتعرض انكساراتها.

كنت أحس وهي تؤدي هذا الدور، وكأن «الصوت» في داخلي يمسك بالصورة، كما يمسك مخرج بالممثلة بين الكواليس، منتظرا اللحظة ليدفع به إلى داخل المنصة.

إمرأة سينما

تقول مريم:

.. وحين غاب الراوي ودخل إلى «الكوما»، شعرت بقوة داخلية تدفعني لأن أكون البديل عنه في روايته.

وحين أخذت تتسرب مشاعري وآرائي الخاصة، إلى الحكاية... بدأت أحس أن الرواية أخذت تبدو وكأنها روايتي أنا، بل في كثير من المرات وجدت نفسي مضطرة لأن أبني «الميزانسين» الخاص بي، كي يمضي الحدث في تطوره.

بدأ كل شيء، حين أحسست أنه قد غدا وكأن «رأسه» على طبق في العراء مغمسا بالهشاشة.

في ضباب هذه الهشاشة، وفي أرجوحته بين الحياة والموت، أخذت أتأمل كيف بدأت حبال «الكونترول» التي يلفها حول نفسه، بالتفكك شيئا فشيئا. فكانت هذه «الصورة»، رغم مذاقها المأساوي، تبدو لي أكثر جمالا وحرية.

وإذا كان فيلمي الذي أهجس به، ولم أمتلك الثقة مرة لتحقيقه، فإن ثقة غامضة تولدت لدي الآن ودفعتني لكي أقرر إنقاذي له من الموت، هو «فيلمي».

نظرت إليه في تلك اللحظة، فشعرت أن علاقة خاصة، مختلفة، أخذت تتخلق في داخلي... لعلها تشبه ذلك النوع من العلاقة، التي كانت تنشأ دائما في داخله، مع الممثلة التي يختارها في كل فيلم من أفلامه.

لم لا؟ أليس هو الآن «الممثل» في فيلمي.

لا أتذكر كيف تعلمت، أن الذي يغيب عن الوعي، يجب أن لا نتركه في غيابه، وأننا يجب أن نفعل كل الوسائل كي يستيقظ.

وحين قيل أنه من المحتمل أن يموت، شرعت باستخدام كل ما لدي كي أوقف هذا الاحتمال.

كان يسيطر علي خوف عميق من أن أي شيء فيه لم يعد في أمان، ولم يكن لدي من حيلة إلا الحكي معه.



أخذت أناديه وأحكي معه، في الطريق، في السيارة، في المستشفى، في الممرات، في المصاعد، وهو بعيد في «الطبقي المحوري»، وهو وراء زجاج غرفة العمليات... أحكي أوشوشه.. أمامه، وراءه، فوق رأسه.

أخاف أن يتوقف النبض، فأحكي مع القلب.

أخاف أن يتوقف هذا «التنفس» المتقطع، فصرت أحكي مع الرئتين، أخاف من هذا النزيف في الرأس، فأحكي مع الأوردة والشرايين، أخاف من الغيبوبة، فأحكي مع الدماغ.

أحكي... وأحكي...

هكذا، شيئا فشيئا، بدأت تتفلت مني حبال «الكونترول» التي كنت ألف نفسي بها، وكأني أيضا كنت أدخل في غيبوبة من نوع آخر.

وصار الحكي له، كأنه لي.

وصار الحكي معه وعنه، كأنه معي وعني...

وحين كنت أجعل له «المشتهى» معاشا، و«المتخيل» ممكنا، وجدت نفسي أحكي للمرة الأولى بصوت عال، أو أمام أحد، عن نفسي، عن تجربتي، عن الأشياء الحميمية التي عشتها، وكأن اللحظة معه، كانت أقوى من التعذيب في السجن، الذي صمدت أمامه، ولم يستطع أن يجعلني أبوح...

ربما هذا «الحكي»، هو الذي جعلني أحس أني أكتب فيلمي أنا...

كنت أدور حواليه، تارة «كأم»، وأخرى كحبيبة، وثالثة كـ «مساعدة» مخرج، تحضر له «اللوكيشين».

حكيت له عن السينما، وكيف بدأت علاقتي بها، وكيف حين لم يكن أمامي شاشة، إلا جدران الزنزانة، كيف كنت صور الأفلام في خيالي، وأعمل لها المونتاج، وكيف كنت أنتظر رفيقاتي في الزنزانة كي يناموا، وأضع الفيلم في آخر الليل وأتفرج عليه، وعيش فيه.

وفي الوقت الذي أحكي، كنت أمسك أصابع يديه وقدميه وأدفئها له باللمس وبالنفخ، وأفرك له رأسه بأصابعي، ثم تذكرت أنه يحب رائحة «الحبق»، فاستخرجت من حقيبتي زجاجة «الحبق»، وصرت أمسح له جسمه.. ووضعت له في المسجلة «فيروز» لتغني «بشوفك في الصحو! جاي من الصحو! ضايع بورق اللوز...».

استخرجت من صدري لأول مرة، رسائل الحب التي كتبتها لحبيبي على ورق السجائر في السجن، وقرأتها له.

كأن شهابا قد أفلت من يدي.

وأحسست أننا كلنا، وهو نفسه، قد تقلمت أظافرنا، وأصبحنا نمضي في الحياة، طالما كانت هي تمضي بنا.

وأدركت أننا كلنا، وهو نفسه، نعيش حياتنا الفعلية في دهاليز غامضة، نصفها في العتمة ونصفها في الضوء، وأن أجسادنا صارت اليوم مستودعات للمرايا.

وأن «الصورة» المفقودة، قد أخذت تتفسد في أرواحنا لطول ما سجنت في آبار النفس.

ركضت إلى الحمام، تأملت نفسي في المرآة قليلا... سرحت شعري، تمكيجت، وضعت عطري، ارتديت له ملابس ممثله في مشهد ما، وخرجت لأؤدي له مشهدا في فيلم من أفلامه وأقلد له صوتها وأقول حوارها وأغني أغنيتها.

لغة الرثاء لدى فدوى طوقان

د. ماجدة حمود

فجعت الشاعرة فدوى طوقان بأعز الأحبة، أخويها (إبراهيم، ونمر) اللذين رعيا موهبتها وخففا عبء الحياة عنها، لهذا ليس غريبا أن نجدها مخلصة لذكراهما إلى درجة تثير العجب.



قالوا: ما زالت تحضنهم/ شجناً يتعتق في صمت/، ترفض موتهم وتحياهم صورا، ذكرى، أطيافا ترد دماء القلب/ تعب من القلب حياة ومن العينين / في زمن مجنون لا يبكي، أو يذكر الميت/ أكثر من أو يومين.

إنها تعود وتذكرنا بإنسان هذا العصر الآلي، الذي يعيش في زمن مجنون، لا يهتم بموت الأحبة، لكن الشاعرة تعود فتؤمن بأن الحب أسمى ما في الوجود، لهذا تبكي أحبتها الذين رحلوا بمثل هذه اللوعة والفجيعة.

في غمرة أحزانها الخاصة توصلت للتعبير عن الحزن العام الذي يغمر قلب كل إنسان

لو تأملنا لغة الرثاء لديها لوجدناها لغة الحب الممتزج بالحزن (تحضنهم، شجنا، يتعتق، تحياهم، أطيافا)

تتجلى روعة هذه اللغة بقدرتها التخيلية التي تصور الحزن الفاجع حيا أبد الدهر، بل يزداد (يتعتق) مع الزمن قوة وعمقا (تحياهم صورا ذكرى، أطيافا ترد القلب/ تعب من القلب حياة ومن العينين)

أي حزن هذا الذي يجعل من قلب الشاعرة موردا لصور الأحبة وذكراهم، أي حزن يجعل من دم قلبها وماء عينيها نبعا يرتوي منه الأحبة فتتحول ذكراهم إلى حياة، فهي تهبهم نبض الروح وخفق القلب ونور العينين لهذا لا يمكن أن ننساهم أبدا.

في قصيدة «لماذا» من الديوان الرابع، نجدها تستخدم لغة العقل لعلها تهدئ من لوعتها فتقول:

أقول لقلبي اكتمال هو الموت/ تتويج عمر وفيض امتلاء / هو جزء من الكون حر/ يدور مع الفلك الدائر/ تفلت من لمسات السنين / من الزمن الغادر / أقول... / ولكن قلبي في غمرات أساه/ العميق الصموت/ يعود فيقرع جدران صدري/ يسائل في حيرة في قنوط: / لماذا يموت ؟!/ لماذا يموت؟!

ستتضح لنا دلالات هذا التساؤل في سيرتها الذاتية، الجزء الأول، حين تحدثت عن موت أخيها (لماذا يموت قبل الأوان، ولماذا يموت بهذا الشكل الفاجع؟)

تكمن روعة هذا المقطع في مراوحته بين لغة المنطق (في البداية) ولغة العاطفة الجياشة التي تأبى سماع المنطق البارد (بأن الموت اعتراف بوصول الإنسان مرحلة النضج والامتلاء، فلم يعد ثمة من مزيد، الموت تجاوز لقيود الزمن الذي نعيشه دون أمان من غدره، الموت حرية وامتزاج بالكون...).

بدا لنا الدفق العاطفي في قولها (لكن قلبي في غمرات أساه العميق الصموت) تحمل كلمة «غمرات» إيحاء مضطربا وصراعا شديدا، لكنه، يجمع في الوقت نفسه العمق والصمت، لعل الحزن أشد ما يكون في مثل هذه الحالة، لهذا تأتي عبارة (يعود فيقرع جدران صدري/ يسائل في قنوط/ لماذا يموت/ لماذا يموت.)؟!

نلاحظ أن لغة الرثاء لم تكن في ديوانها الأول والثاني بمثل هذه القوة المؤثرة، فقد كانت لغتها أميل إلى لغة الرثاء التقليدية. ففي قصيدة «على القبر» من ديوانها الأول تقول في رثاء أخيها إبراهيم:

«أديا قبرا، هنا كم طاف روحي/ هائما حولك كالطير الذبيح/ أو ما أبصرته دامي الجروح/ تنزى فرط تبريح ويأس/ مرهقا مما يعنيه الحنين!».

تستخدم الشاعرة هنا لغة مألوفة (كم طاف روحي، تبريح، يأس، مرهقا، دامي الجروح...)

كما نلاحظ أن الصورة بسيطة قد سبقت إليها (كالطير الذبيح) وهذا لا يعني انتقاصا من عاطفة الشاعرة ولوعتها، ولكن هذا يدل على أن القدرة الفنية لدى الشاعرة نضجت مع مرور الأيام، مما أدى إلى تطور لغتها، فصارت أكثر حرارة، دون أن يعني ذلك أنها أكثر تعقيدا أو إغرابا.

يا موت يا غشوم يا غدار/تخطفهم أحبتي وإخوتي/أحبتي وإخوتي زهر الرياض، لؤلؤ المحار/أحبتي وإخوتي الشموس والأقمار/ تخطفهم في عز عنفوانهم/ في روعة انطلاقهم إلى القمم/ يا موت يا مجنون يا أعمى العين/يا أصم/ يا قاصما ظهري الضعيف لي لديك/ألف ثار/ألف ثار.

تدهشنا اللغة هنا، بعفويتها وبساطتها، تبدو مألوفة (غشوم، غدار، الشموس، الأقمار، زهر الرياض، لؤلؤ المحار) لكن أسلوب النداء بهذه اللوعة أكسب الشعر حرارة (يا موت يا غشوم يا غدار... يا مجنون يا أعمى العيون) ثم أتت الخاتمة (لي عندك ألف تأثر، ألف ثار) لتشكل تعبيرا موحيا عن أقسى ما يكابده المرء من أحزان وفجيعة، ولا شك أن تكرار (ألف ثار) جعل الحزن أشبه بصراخ اللوعة والقهر، خاصة أن كلمة (ألف) صاخبة الإيقاع في حين بدت لنا كلمة (ثار) ذات إيقاع حزين مفجوع.

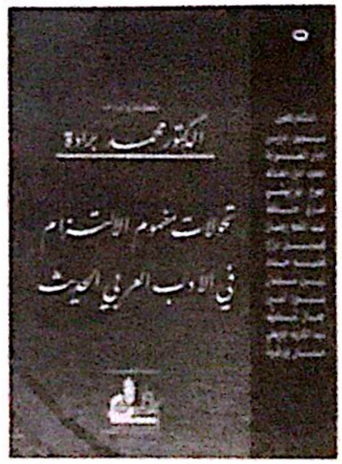
تملك فدوى لغة رثائية تستطيع أن تمس شغاف كل قلب، باعتقادنا، بل استطاعت أن تجعل لغة أحزانها لغة حزن كل إنسان، إنها في غمرة أحزانها الخاصة توصلت للتعبير عن الحزن العام الذي يغمر قلب كل إنسان في لحظة ضعف، تقول في قصيدة «حصار» من ديوانها الرابع (أمام الباب المغلق).

في الليل حين تفلت الأحزان من /إسارها/ وحين وجهنا الأصيل يرفع القناع/فيستبين العالم المصدع الأركان في/أعماقنا/ قفرا كئيب.

إنها لغة تحدثنا عن أعماقنا وما يضطرب فيها من أحزان قد لا يجرؤ على البوح بها في وضح النهار، إننا نقاومها فنضع قناعا يسترها، لكننا في الليل، بيننا وبين أنفسنا نرفع القناع ونظهر ضعفنا، وانهيارنا فيطفو حزننا المخبأ في الأعماق حاصدا عن عيوننا النوم، عندئذ ندرك أننا نعيش في عالم بائس لا أمان فيه ولا جمال، إذ خلا من الأحبة.

تحولات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث

علي الكردي



تخطيط وإشراف:
د. محمد برادة
الناشر: دار الفكر بدمشق /٢٠٠٣

لا يدعي برادة أن الكتاب (الذين تحدث عنهم) يغطون مختلف الاتجاهات النقدية والفكرية السائدة في مشرق الوطن العربي ومغربه

لم يشأ محمد برادة أن يقتصر الاجتهاد عليه وحده في إعادة طرح الأسئلة المتصلة بمفهوم الالتزام كما طرحه (سارتر) في أربعينيات القرن الماضي في كتابه (ما الأدب؟)، ومن ثم التحولات التي طرأت عليه في الأدب العربي الحديث، عبر الترجمة والمثاقفة والجدل الواسع الذي ساد الساحة العربية منذ أكثر من نصف قرن، وساهمت في إذكائه مجلة (الآداب) البيروتية لزمن طويل.. بل أراد إشراك ثلاثة عشر كاتبا ينتمون إلى حقلي الإبداع والنقد، أو يجمعون بينهما، ويمثلون أجيالا مختلفة هم: (سهيل إدريس، إدوار الخراط، محمود أمين العالم، جورج طرابيشي، صبري حافظ، عبد المنعم رمضان، فيصل دراج، قاسم حداد، نبيل سليمان، نورا أمين، جمال شحيد، عبد الكريم جويطي، حسان بورقية)، لشعوره ربما بأهمية وضرورة أن يضم الكتاب طيفا واسعا من الآراء ووجهات النظر التي تتقاطع أحيانا، وتتباين أحيانا أخرى لاختلافها على صعيد التجارب الإبداعية، وطرائق التفكير، ومنهجية التحليل، وبالتالي أراد برادة لهذا الكتاب الذي خطط له وأشرف على إصداره أن يمثل عينة أو خزعة تعكس أهم الاتجاهات، والتصورات، وردود الأفعال التي ترتبط بشكل أو بآخر بذلك الجدل الذي أثير، أو الذي يمكن ان يثار حول الالتزام، ومفهوم الأدب، ومغامرة الكتابة بشكل عام، لا سيما وأن أسئلة هذا المفهوم ما تزال برأيه راهنة وإشكالية رغم انخفاض حدة الجدل حولها خلال العقدين الأخيرين، أو تواريها خلف عناوين أخرى.

لا يدعي برادة أن هؤلاء الكتاب يغطون مختلف الاتجاهات النقدية والفكرية السائدة في مشرق الوطن العربي ومغربه، وبالتالي يظل الأمر من وجهة نظره مفتوحا، وقابلا للتوسع والتقصي «لالتقاط مختلف الهواجس والتوجهات النظرية الفاعلة في وعي ولا وعي المبدعين الأدبيين العرب»، ص (٣١٥)، والمقصد الذي يتوخاه من وراء ذلك هو: استثارة نقاش حول علاقتنا بالأدب وغائيته في سياق يبدو أكثر فأكثر، معاكسا للإبداع والقراءة، وفي شروط اجتماعية وثقافية تميل إلى الخلط والمزايدة والشعارية.

اتبع برادة منهجية محددة كي يأتي الكتاب متسقا، ومستوفيا لشروط البحث، إذ قدم له في البداية بمقالة مطولة، حملت عنوان الكتاب ذاته: «تحولات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث»، حاول خلالها العودة بالمفهوم السارتري للالتزام إلى السياق التاريخي الذي ولد في رحمه، ثم وضح المسوغات التي دفعته إلى إعادة طرح الأسئلة التي ولدها من قبيل: لماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟.. ثم أفسح المجال أمام وجهات نظر الكتاب المشاركين في الملف كي تفصح عن نفسها ضمن تلاوين واجتهادات متعددة، وذلك على شكل مقالات مستقلة، تعبر كل واحدة منها بصورة متكاملة عن وجهة نظر صاحبها، ثم أضاف مقالة لدبينوا دونيس «ترجمها بنفسه عن «معنى الالتزام» حددت بدقة التخوم المؤسسة لهذا المفهوم. وختم الكتاب بمقالة تحليلية له (على سبيل التركيب والاستخلاص) أجمل خلالها ما توصل إليه من استنتاجات.

قبل الدخول في عرض وجهات نظر الكتاب المشاركين في الملف والتعليق عليها، لا بد من القول: أننا لا ندري بدقة فيما إذا كانت غائية البحث بالمعنى الذي يتوخاه برادة، نابعة فعلا من حاجة حقيقية تطرحها اليوم أسئلة الأدب العربي الحديث، ونظرية الأدب والأدبية عموما، خاصة وأن الانشغالات النظرية بأسئلة الكتابة الإبداعية، وعلاقة النص بالمتلقي وقضية التواصل والقراءة، وعلم الدلالة والتأويل.. قد شهد تراكما هائلا من خلال المثاقفة والترجمة والنقل والإنتاج النقدي الذي يملأ المشهد الأدبي العربي الحديث بالكثير من الاتجاهات التي تعتمد في رؤيتها وتحليلاتها على النظريات الحديثة وفلسفاتها الغربية التي ينهل منها بعض النقاد العرب كالبنيوية، وما بعد البنيوية والتفكيكية والظاهراتية واللسانيات بشكل عام، لا سيما وأن البحث لم يأت على ذكر علاقة هذه النظريات بمفهوم الالتزام إلا لماما هنا وهناك، مما ترك الكثير من الأسئلة المعلقة التي تحتاج إلى إضاءة وتحليل حتى يستقيم البحث ويغتني من مختلف جوانبه.

المقدمة.. وغائية البحث

في إطار جهده لإعادة طرح مفهوم الإلتزام ضمن سياقه الأساسي يعود برادة إلى القرن التاسع عشر، عندما طرح مجموعة من الشعراء والروائيين الغربيين تساؤلات حول ماهية الأدب ووظائفه ومكوناته الجمالية والمضمونية، مما فتح الباب واسعا أمام نظرية الأدب التي امتدت فروعها وأسئلتها في القرن العشرين، لتلامس هوية الأدب وعلائقه باللغة والعلوم الإنسانية، وبالتالي لتتساءل حول الأسس

الأبستمولوجية التي تتيح التفكير في الأدب كحدث متميز يوجد في تماس دائم مع بقية الخطابات، ويطمح إلى إضفاء مشروعية نظرية على مجاله وأدواته وغاياته، ولكن قبل أن تصل النظرية الأدبية إلى هذا الأفق العلمي المفتوح الذي شهدته منذ الستينيات، فإن سؤال ما الأدب؟ شهد خصومات جدلية في الأربعينيات، عندما نشر/سارتر مقالاته الشهيرة في مجلة (الأزمنة الحديثة) قبل أن ينشرها في كتاب مستقل يحمل عنوان (ما الأدب؟).. هذا الكتاب الذي يشكل منعطفا ومرجعا يتوقف عنده كل باحث كلما طرحت أسئلة الأدب، وخاصة ما يتصل منها بمسؤولية الكاتب والتزامه، ورغم ذلك لا يعني هذا كما يشير/ برادة، أن هذه القضايا لم تطرح من قبل، بل هي كانت متداولة منذ أن تفجرت قضية الضابط (دريفوس) في نهاية القرن التاسع عشر، ومع مقالات إميل زولا الشهيرة (إني أتهم)، ثم من خلال الثورة السيريالية في فترة ما بين الحربين العالميتين، ومواقف أندريه جيد بعد زيارته للكونغو والاتحاد السوفييتي، ومن خلال استكشاف/أندريه مالرو لثورة الصين، ثم الحرب الأهلية في إسبانيا سنة ١٩٣٦، وتكوين جبهة الكتاب المناهضين للفاشية.. إلخ، بيد أن أهمية كتاب سارتر - كما يقول برادة - تنبع أساسا من كونه كثف تلك اللحظات والاتجاهات المتعارضة، وربطها بسياق جديد محمل بالأسئلة والتحولات.. هو سياق ما بعد الحرب العالمية الثانية في فرنسا وأوروبا.

ثمة نقطة أخرى يشير إليها برادة، أضفت أهمية إضافية على أطروحات سارتر، وهي استخدامه لعدته الفلسفية الجامعة بين الوجودية والمنهج الظاهراتي، ليحلل ماهية الكتابة، وعلائقها بالقراءة والجمهور، وبحركية المجتمع وأسئلته المستقبلية من منظور لا يقتصر على نقد السلبيات، بل يتعداه إلى (أفق البناء)، والبحث عن دور للأدب وللكاتب في مسيرة المجتمع والإنسان نحو ما يسميه الفيلسوف كانط (مدينة الغايات).. وفي هذا السياق المعقد، نحت سارتر مفهوم الالتزام بدلالات وتلاوين متقاطعة ومتكاملة كي يبتعد به عن الاختزال والشعاراتية.

بعد أن يوضح برادة السياق الطبيعي الذي بلور مفهوم الالتزام السارتري، يقارب التأثيرات التي أحدثها كتاب سارتر (ما الأدب؟) في حقل الأدب العربي الحديث منذ الخمسينيات، لتزامنه مع لحظة تمفصل ثقافية وسياسية، أعطت للأدب العربي إبداعات مغايرة لما قبلها، ثم يوضح دواعي طرحه هذا الموضوع مجددا على هذا الشكل، مع التنويه إلى أنه لا يهدف إلى الدراسة المدققة التفصيلية القائمة على الإستبار الميداني واستجواب أكبر عدد ممكن من النقاد والكتاب والقراء.. وإنما يتوخى إعادة طرح مفهوم الالتزام من منظور إشكالي، يربطه بالأسئلة الراهنة عند بعض مبدعينا ونقادنا، ليغربل حصيلة رحلة المفهوم وفلسفته طوال ما يزيد على نصف قرن من الزمن.

مقالات أخرى

ثمة مقالة أيضا في الكتاب يجب الإشارة إليها كتبها/عبد الكريم جويطي وهي مخصصة لاستعراض مواقف ثلاثة أصوات بارزة في الشعر العربي: صلاح عبد الصبور، عبد الوهاب البياتي، أمل دنقل، ويجد الكاتب أن شعراء الحداثة العربية توزعوا بين موقفين: التباعد الظرفي والاجتماعي عبر مسافة صوفية تتيح التأمل والتعالي على العابر نشدانا لجوهر الكينونة وجذور العلة، وهذا برأيه ما مثله/صلاح عبد الصبور إلى جانب شعراء آخرين، ثم موقف الاستجابة لأسئلة الحاضر وتجليات الواقع بأشكال متباينة تحقق للشعر مسافته التعبيرية عن طريق توظيف الأساطير والحكايات وأقنعة التاريخ، وهو ما نجده واضحا في تجربة كل من (البياتي وأمل دنقل) مع اختلاف في المنحى الفني.

كذلك خصص الكتاب مقالة كتبها/ حسان بوريقة (الالتزام السارتري في مرآة أدورنو، وكانيتي وبارت) بين من خلالها أن دلالة الالتزام لم تكن أحادية، وأن تنظيرات سارتر، رغم مرتكزاتها الفلسفية والمعرفية الواسعة، إنما كانت لحظة في مسار ثقافي وفكري ارتبط بصراع مجتمعي وأيديولوجي واسع، وهذا ما يفسر لنا كون الإبداع الأدبي يرفض التقيد بقوالب جاهزة، أو بطريقة معينة، أو بتعاليم مقننة.

السؤال الذي يطرح نفسه: إلى أي حد استجاب الكتاب المشاركون في الملف إلى غائية البحث كما يطمح برادة؟

في الواقع، تراوحت مساهمات الكتاب بين المراجعة الذاتية النقدية التي شابت مواقف بعضهم تجاه المسألة (جورج طرابيشي.. قاسم حداد.. نبيل سليمان.. جمال شحيد) وبين بعض الشهادات التي أخذت منحى دفاعيا وتبريريا لمواقفهم من المسألة آنذاك (سهيل إدريس، محمود أمين العالم، إدوار خراط)، وبين بعض وجهات النظر التحليلية التي حاولت أن تفتح المسألة على الأفق المستقبلي من خلال استجلاء التغيرات التي طرأت على مفهوم الأدب والأيديولوجيا، على ضوء ما تراكم لدينا من خلال المثاقفة التي تفتقر أحيانا إلى الكثير من الاستيعاب والتمثل والتدقيق، ومن خلال بعض الأحداث التي شكلت مفاصل هامة في تاريخنا الاجتماعي والثقافي (فيصل دراج، صبري حافظ)، ويلفت الانتباه في الكتاب آراء الجيل الجديد (نورا أمين.. عبد المنعم رمضان)، حيث تغير مفهوم الالتزام من وجهة نظرهما ليأخذ أبعادا ذاتية، تستبطن ما يعتمل في دواخلهما عبر ما يمكن أن نطلق عليه كيمياء التفاعل الداخلي الذي ينعكس في النص عبر مغامرة الكتابة في كليتها التي لا تخضع إلى التجزيء، ولا تقبل بما هو خارج عنها. فالنص الأدبي من وجهة نظرهما يصوغ فنيا أسئلة معرفية تنطلق من الذات لتختلط (بما بين الذاتيات)، أي تفتح الباب أمام أفق العلاقة مع القارئ.

أبطال سارتر ليسوا كائنات تجريدية

بما يشبه الدفاع عن الذات، والدفاع عن تجربة دار (الآداب) التي روجت لفكر سارتر ومفهومه للالتزام يدافع سهيل إدريس في شهادته دفاعا حارا عن سارتر، ويطلب من القارئ أن يأخذ آثاره ومؤلفاته كوحدة لا تنفصم عراها، ويعتبر الحرية والمسؤولية هما قطبا الفلسفة السارترية، إذ ليس ثمة (جوهر) متجرد علينا أن نحترمه، وإن هناك (وجود) جديد دائما علينا أن نبرزه أبدا وبلا انقطاع.

ويعتبر إدريس سارتر شاهدا على عصره، وهذا صحيح بالعام، إلا أنه لا يأخذ سارتر في مجموع مساره ومغامراته الفكرية والسياسية كما يقول برادة، ذلك أن الالتزام عند سارتر قد عرف لحظتين متمايزتين، فهو حتى حدود أحداث الطلاب في فرنسا عام ١٩٦٨، كان ينطلق من مفهوم شامل يعتمد الأدب والفلسفة لإنجاز نقد جذري لاختلالات المجتمع وللمخاطر المهددة للفرد في صراعاته ضد الدولة والمؤسسات، وفيما بعد أراد أن يصبح أداة فاعلة في التغيير السياسي للمجتمع ضمن مواقف صراعية تتحيز لرؤية ماركسية متطرفة، قادته إلى تحليلات متسرعة أخطأت فهم التحولات في فرنسا بعد فورة ١٩٦٨، كما قادته إلى موالاة إسرائيل والدفاع عن (اشتراكيتها) و(ديمقراطيتها)



وبالتالي إذا كان لنا أن نقدر مواقفه المتعاطفة مع ثورة الجزائر كما يلفت الانتباه إلى ذلك إدريس، فلا يمكننا أن نتقبل مواقفه تجاه إسرائيل التي لا تنسجم مع مسار فلسفته الأخلاقية.

ويلاحظ جورج طرابيشي بصفته مترجما وناقدا أن الثقافة العربية المعاصرة قد تستورد أحيانا المفاهيم، وحتى الشعارات، قبل أن تكون المكتبة العربية قد استوعبت - عن طريق الترجمة - الكتب الأمهات التي صاغت تلك المفاهيم. ويعترف بالتناقض الداخلي الذي جعله ينوس في فترة الخمسينيات بين النزعة العقلانية التي شكلت آنذاك أفقا لتغيير بنيات المجتمع العربي الماضوية، مما دفعه إلى الاهتمام بسارتر وترجمة دراساته ومقالاته، وبين هواه الأدبي (الميتافيزيقي) الذي لا تلبيه عقلانية سارتر المغالية. وبالتالي يرى طرابيشي أنه كان شغوفا بالنظرية السارترية. إلا أنه لم يكن يتواصل مع كتابات سارتر الأدبية والروائية، وكذلك كانت تجتذبه النصوص الروائية التي لا تصدر عن تصور للالتزام الأدبي، ولا عن تخطيطات عقلانية، بل تلك التي تعبر عن الغامض والكامن في الأعماق ويستشهد بأعمال عبد السلام العجيلي، وترجمته لرواية (زوربا) كازانتزاكي.. أي تبين له عبر الترجمة وتراكم التجربة أن مفهوم الالتزام السارتري قد سقط بالتقادم، لكن ذلك يفسح المجال أمام الالتزام الذي تكمن غائيته فيه، لا في هدف أيديولوجي مفارق.

أبطال سارتر ليسوا كائنات تجريدية

وتبرز التقاطعات جلية بين المبدعين (إدوار الخراط، عبد المنعم رمضان، قاسم حداد، نورا آمين) في نظرتهم إلى مفهوم الالتزام، لجهة تغير هذه النظرة لتأخذ أبعادا ذاتية، رغم الفوارق الكثيرة في مسار كل واحد منهم، ولجهة الاختلاف في خلفية تكوينه الفكري والثقافي، فإدوار الخراط الذي عاش أحلام الثورة التروتسكية) في بداياته، عاد مع تكسر أحلام جيله إلى تعديل مفهومه للالتزام الذي بات التزاما بقيم الفن التي تعني التزاما بقيمة الحرية، حرية الفنان وحرية الآخر، وبالتالي يرفض الخراط أي قيد على (الذات)، إلا حرية (الآخر) في الحوار، لذلك فالالتزام الأمين برأيه هو: الالتزام بقيم العقلانية والديمقراطية والحرية، وعلى هذا الأساس ينشد المطلق ويلتزم بالحرية والدفاع عن المجد الإنساني، إنه يكتب، لأنه لا يعرف لماذا يكتب، لكن الكتابة تسعفه على مجابهة العالم - اللغز.

تنظيرات سارتر، رغم مرتكزاتها الفلسفية والمعرفية الواسعة، إنما كانت لحظة في مسار ثقافي وفكري ارتبط بصراع مجتمعي وأيديولوجي واسع

يسترجع عبد المنعم رمضان تعرجات خيوط مساراته الشعرية والفكرية التي شكلت محطات التزام مختلفة الأصول (وجودية، ماركسية، تروتسكية..) ومن ثم حاول أن يستجلي لحظات التغير الفاصلة في هذه المسيرة التي سقطت معها الأوهام أمام حقل الشعر تلك التي انتقلت في المشهد العربي، من صورة الشاعر العام إلى طيف الشاعر الخاص، وبشيء من التخييل الفانتازي يتصور لقاء مفترضا بينه وبين تروتسكي والسيد المسيح والحسين، يشربون الشاي في مقهى شعبي، ويتحاورون، حيث يبدأ كل واحد منهم في تلطيف وأنسنة الجانب الخشن من عقيدته، كي يجعلها عقيدة خالية من الوحشية والقتل، وحينئذ يغادرهم في دلالة رمزية على الانفلات من الاستسلام إلى الأيديولوجيات المسبقة، وبالتالي منذ أوائل السبعينيات شرع الشعراء برأيه في الهرب والفرار وراء عربة الشاعر الخاص، الشاعر دون مشتركات قدر الإمكان، دون رسالة، ودون جمهور، ودون شعب، الشاعر اليتيم، الذي يواجه العالم منفردا، ويخوض التجربة لحسابه الخاص.

من الملاحظ تركيز رمضان على الخطاب الشعري، مع أن الخطاب ليس هو الشعر، وإنما مادته، وهو يتغير باختلاف اتجاهات الشعراء ومواقفهم، مع ذلك فإن مقاربة موضوع (الالتزام) من هذه الزاوية صحيح منهجيا، إلا أن رمضان لم يركز كثيرا على علاقة الخطاب الشعري بمفهوم الأدبية بشكل عام.

من جهته استعرض الشاعر قاسم حداد التباسات مفهوم الالتزام الذي اختلط مع المجالات التي سادت في الستينيات في البحرين بالمعنى الحرفي للالتزام الحزبي، وهذا الخلط كما يقول ساد لدى السلطة التي كانت تتهم كل من يتبنى مفهوم الالتزام بالشيوعية، ولدى الأوساط اليسارية التي وقعت بشكل يدعو للرثاء في ذات الخلط، بتأكيدها على الأديب والكاتب إذا أراد أن يكون كذلك، فلا بد له من أن يلتزم (بالمعنى الحرفي للالتزام الحزبي) في الحزب الشيوعي، وهذا ما كان يضاعف الالتباسات النظرية التي تعرض لها مفهوم الالتزام.

بيد أن حداد الذي صقلته تجربة الحياة والكتابة تعلم كما يقول: ما يمكن وصفه بالحس الكوني، ليس في شكل الكتابة الأدبية ولكن في معناها الجوهري كفعالية إنسانية، وهذا ما أوصل حداد - كبقية المبدعين - إلى الأبعاد الذاتية لمفهوم الالتزام.

وما جرى في البحرين، يمثل ظاهرة عامة عرفتها بقية البلدان العربية، مع وجود (الجدانوفيين)، أصحاب الآراء اليقينية الذين مارسوا سلطة فكرية على الأدباء كان لها تأثيرات سلبية كبيرة على مسيرة هذا الأدب.

التحول حول الموت

وتستوقفنا شهادة القاصة والروائية/نورا آمين وهي من الأصوات الشابة المميزة التي اعتبرت أن سارتر بصياغته مفهوم الالتزام أوقعنا في فخ لا نستطيع أن نخرج منه حتى الآن، ثم استعرضت دلالات هذا المفهوم والسياقات الاجتماعية والسياسية الذي ولد فيه، وأعطت تعريفا أشمل له «باعتباره أدبا يكتبه المبدع بوعي نضالي يهدف إلى مساندة قضية عامة يؤمن بها» ولا ينبغي برأيها أن تكون هذه القضية هي (الماركسية أو الاشتراكية كما جرى الحال بل ربما تكون أيديولوجيا أصولية)، أو كفاحا من أجل التحرر من الاستعمار أو مصارعة القمع والتدرج الطبقي أو السلطة البطريركية (الأدب النسوي مثلا)، فالأدب الملتزم بهذا المعنى يتسع ليشمل كافة أشكال الكتابة التي يدفعها (وعي القضية)، ومع غياب مصطلح (الأدب الملتزم) في التسعينيات، ترى/نورا تحولات شتى بدأت تطرأ على مفهوم (الأدب الملتزم)، كاعتماد رواية التسعينيات في مصر على السيرة الذاتية، وتفاصيل الحياة اليومية والعلاقات الشخصية وهذا الأدب بهذا المعنى هو التزام بقضية



شخصية، أو أدب ملتزم نحو نفسه فقط، وهو ما أطلقت عليه التحول الحالي لمفهوم (الأدب الملتزم) نحو الموت.. وترى أن الجيل الجديد بدأ يكتب أدبا بدوافع مغايرة عما سبق، فهي تكتب كي تحرر نفسها أولا، ولتقيم علاقة ملموسة مع القارئ؛ لأن المتلقي شرط جوهري لوجود الأدب. الكتابة عندها عملية استكشاف لخبايا النفس واستيهاماتها وهي قائمة - كما هو حال الأدب بشكل عام - على الاستعارة والمجاز والتخييل والتناص والتلاقح.. لتفتح أفق العلاقة التبادلية مع القارئ، لأن القراءة هي ذلك الفعل الذي يتيح لنا فرصة أن نكون أنفسنا، ونكون آخرين في آن معا.

رؤية النقاد لمفهوم الالتزام

يختلف مفهوم النقاد لأدب الالتزام، حسب تكوين ثقافتهم الخاصة، والتغيرات التي طرأت على وعيهم الأدبي خلال مسيرتهم الطويلة في ممارسة العمل النقدي، حيث ارتبط عند محمود أمين العالم بتأثيرات الفلسفة والفكر، وكان لرسالة الأدب قيمة مركزية في مفهومه للأدب، حيث استعرض مساره الغني بالتعرجات المتجددة المرتبطة بثوابت فكرية وأيديولوجية تتعلق برؤيته الشمولية لحق الإنسان العربي في التحرر والتقدم والوجود الفاعل.

ويتوقف محمود أمين العالم عند بداياته التي تأثرت بقراءة التراث، ثم التحول الذي طرأ على مسيرته الفكرية وتصوراته الجمالية بدءا من التأثيرات السوريالية إلى المعايير المنهجية الماركسية، ثم انفتاحه فيما بعد على كافة النظريات النقدية وقراءته للإبداعات العربية المختلفة.. وضمن هذا السياق بنى مفهومه النقدي للالتزام الذي وجه من خلاله انتقادات عديدة لمفهوم الحرية والالتزام عند سارتر، وانتقد مسألة الغموض عند أدونيس، ويفرد العالم مساحة خاصة لمسألة التلقي التي يعتبرها متعة في ذاتها إذا لم تكن تلقيا سلبيا، بل مشاركة في إعادة الكتابة نفسها تتيح تجديد السلوك العملي تجاه الواقع، وتتيح معرفة وجدانية عميقة، تدعم التنوع البشري في إطار وحدة عالية ديمقراطية قائمة على التكافؤ واحترام الاختلاف وتعدد الخصوصيات والهويات الثقافية والقومية، وهذا ما يمنح الأدب المعنى الإنساني العميق والشامل للالتزام.

من جهته سرد الناقد جمال شحيد تأثير قراءاته المتنوعة على مفهومه للأدب والالتزام، الذي تغير بعد سفره إلى فرنسا للدراسة ومن خلال الإطلاع على الأعمال الأدبية الجديدة والنظريات النقدية الحديثة، ويؤكد شحيد أن رؤيته النقدية تنبع من دور الأدب في ترقية ذوق الإنسان المعرفي والجمالي، وهذا برأيه ما يبرر استمرار دور الأدب في تقليص وحشية العالم وتخليص الإنسان من نزعته الذئبية وهمجيته.

يرصد/فيصل دراج برؤية نقدية مسيرة الأدب العربي (شعرا ورواية) ويرى أن الرسالة التحريضية لازمت النص الأدبي العربي منذ ولادته وحتى اليوم، ثم يتتبع أهم لحظات التحول التي طرأت على هذا الأدب الذي اتخذ من الإنسان محورا له، متأملا في تاريخ هزائمه وانتصاراته، ويرى/دراج أن دعوة الالتزام التي راجت من بداية الخمسينيات حتى هزيمة حزيران، ليست إلا دعوة زائدة تنسب إلى الأدب وظيفة موضوعية قائمة فيه.. ثم يعود/دراج إلى بدايات القرن العشرين، إلى المرحلة التي أطلق عليها برادة: «تزامن الأدب والثورة، قبل أن تتلاشى هذه الأخيرة»، حيث يستعرض/دراج تجارب اهم الأسماء العربية في الرواية والشعر (فرح انطون، أمين الريحاني، طه حسين، توفيق الحكيم، توفيق عواد، البارودي، خليل مطران).. وصولا إلى السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور..»، ثم يتوقف دراج في محطة ثانية، عند «الالتزام الصريح» بعد الحرب العالمية الثانية واشتداد الصراع الأيديولوجي، فالالتزام نظريا يحيل على قضية الإنسان، بلغة سارتر، «إذ الكتابة موقف، يستكمل بموضوع خارجه يحتاج القول كما يحتاجه القول»، وبهذا المعنى يرى/دراج أن الالتزام كان صراعا بين مواقف سياسية اختارت الأدب مسرحا لها. بعد هزيمة حزيران وحتى اليوم عاد السياق العربي المعيش من وجهة نظر/دراج إلى زمن ما قبل حداثي، بيد أن النص الأدبي استطاع أن يتخلص من الالتزام الذي كانت تمليه المبادئ الأخلاقية المجردة، والتحزب الأيديولوجي الصريح، ليحل مكانه التزام جديد تنتجه بنية النص الأدبية، التي تحتضن الواقع بعريه، بمعنى آخر استطاع النص الأدبي أن يقرأ الواقع القائم، ويؤرخ فنيا وجماليا لوقائع الراهن، «نابشا المسكوت عنه، ليصل إلى مفهوم (الالتزام بالحقيقة) الذي أفضى بدوره عند/دراج إلى طرح أسئلة إشكالية تتصل بشروط التقويض التي تحاصر المجتمعات العربية، وتجعل نزوعها إلى الحداثة عملا مبتورا، محفوفا بالتعثر، وهذا ما يجعل الإبداعات الجريئة الواعية لسياقها التاريخي تغدو شكلا من أشكال المقاومة المبدعة».

ويستجلي الناقد/صبري حافظ في مقالته دور (الأيديولوجيا) في تحديد مفاهيم الالتزام وإشكالياتها المعقدة في النقد والأدب، ويرى أن غياب مفهوم الالتزام عن ساحة الجدل النقدي في العقدين الأخيرين أدى إلى الكثير من الخلط والبلبلة بشأن ماهية الأدب عامة وعلاقته بالأيديولوجيا... ويتوقف/صبري عند الطابع المتدرج لمفهوم الالتزام في التجربة المصرية، وصولا إلى المفهوم الراهن له الذي يحيل إلى خصوصية البنية الفنية وقدرتها على التقاط مفارقات الواقع المعقدة، وهذا ما جعل الإبداع الأدبي برأيه وسيلة جوهرية لالتقاط مفارقات الواقع وتشخيص اللحظات المضيئة في وجدان المجتمعات العربية وذاكرتها على حد تعبير/ برادة.

الاستنتاج الأساسي الذي خرج به الكتاب هو نسبية مفهوم الالتزام السارتري، وتباين لبوساته التي تجسدت عبر حقول أدبية تنتمي لثقافات مختلفة، وهذا ما يفسر رفض الإبداع الأدبي التقيد بأساليب أو بتعاليم مقننة من جهة، ورفضه لأي سياق فكري أو أيديولوجي خارج عن سياق الصراع الفكري أو الأيديولوجي الذي نبت فيه.

ثمة ملاحظة أخرى تتعلق باستمرار الالتباس لدى المبدعين والنقاد على حد سواء لجهة توضيح علاقتهم بمفهوم الأدب والكتابة والقارئ بشكل عام.

أوقعنا سارتر بصياغته مفهوم الالتزام في فخ لم نستطع أن نخرج منه حتى الآن

غياب مفهوم الالتزام عن ساحة الجدل النقدي في العقدين الأخيرين أدى إلى الكثير من الخلط والبلبلة بشأن ماهية الأدب عامة وعلاقته بالأيديولوجيا

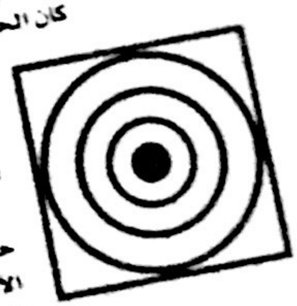
جسد متماسك للدموع

(نص)

قضيت هذا الصباح معذبا.. بالأحرى منذ ليلة الأمس، وربما لهذا السبب لم أنم جيدا. كانت شمعة صفراء جميلة قد وضعت فوق الشمعدان الجميل الذي اكتشفته في منزل القرية في الزيارة السابقة.. أشعلتها فأصدرت ضوءا رائعا صافيا.. لكن بعد قليل تحرك الهواء خفيفا.. لم يكن من القوة في البلكونة.. بحيث يطفئ الشمعة، ولكنه اشتبك في معركة عنيفة حولت ضوءها إلى لهب متعدد المصدر.. كان واضحا أن الفتيل طويل بحيث سقط جزء منه على جسم الشمعة العلوي فأصبح هناك فتيلان، وأحيانا بدوا لي ثلاثة.. صار الضوء شعلة، أخذت تنهش جسد الشمعة نهشا وبسرعة.. وكان بديهيا أن تتساقط دموع الشمعة بكثافة حول بقية جسدها، ثم حول جسد الشمعدان حتى وصلت إلى المائدة.

كنت أراقب ذلك باهتمام وأنا أفكر في البحث عن آنية ألم فيها الدموع الفائضة. ذهبت إلى المكتب ووجدت آنية صغيرة كانت مملوءة إلى نصفها بدموع سابقة.. قلت: إنها لن تكفي لدموع هذه المرة الكثيفة. بعد أن تعهد القادة العرب أمام الرئيس بوش بالتزامهم بالقضاء على المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل في مقابل تعهده بدولة لم أستطع أن أتبين بدقة لمن: للفلسطينيين أم للإسرائيليين؟ كنت مكتوما منذ سمعت البيان، ولذلك اهتممت بمعركة الهواء مع الشمعة، وأجلت البحث عن طريقة للملمة الدموع حتى الصباح.

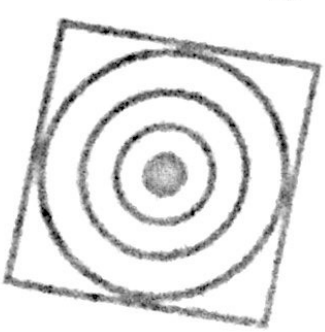
بعد الإفطار، وجدت نفسي مدفوعاً للبحث بين أشيائي القديمة عن أي شيء يصلح وعاء للدموع، فلم أجد. ولم يعد أمامي سوى ثلاثة حلول: الأول هو أن أنزل إلى الدور الأسفل وأبحث في أشياء أمي. وسرعان ما حسمت هذا الحل بالرفض، خشية أن ألمس أشياءها التي لم أقترب منها منذ ماتت. لست في حالة تتحمل مثل هذا الوجع الآن، وتساءلت بيني وبين نفسي: هل سأستطيع أن أفعل ذلك يوماً ما؟



كان الحل الثاني أن أخرج لشراء شيء ما يصلح كآنية.. طبق صغير مثلاً... لكني وجدتني غير راغب في التعامل مع الآخرين.. كنت أريد البقاء مع نفسي.

لم يبق أمامي إذن سوى الحل الثالث. استعمال نصف الآنية المتوفرة لدي.

أتيت بالشمعدان وأخذت الدموع دمعة دمعة أو كتلة كتلة، حسبما كان وضعها ووضعتها في حجري، ثم صففتها في الآنية، مراعياً أن أحتفظ بمساحة فارغة حول الفتيل الصغير. حين انتهيت أصبح واضحاً أن كمية الدموع أكبر من حجم الآنية ومن طاقة الفتيل، مما يعني أنها ستفيض حتماً خارج الآنية.. وكان الحل متاحاً أن أضع تحت الآنية، آنية أوسع ليس من الضروري أن تتوفر فيها الشروط الضرورية.. يمكن أن تكون من البلاستيك (وكان الكثير منها متوفراً).. فهي مؤقتة، ستكون مجرد إناء لاستقبال الدموع، ولكنها لن تشتمل فيها..



سيد البحراوي

مجرد مخزن مؤقت - سأنقل منه الدموع حينما أجد لها مكانا آخر في الآنية الحالية، أو حينما أجد آنية أخرى.

أخذت الآنية بحرص وذهبت إلى مكتبي.. وضعتها على المائدة ثم أشعلتها، وبدأت أراقبها حتى بدا لي أن أمورها تسير على ما يرام، وأخذت أقرأ دون أن أنساها، بعد قليل لاحظت أنها تحتاج إلى رعاية.. بتعديل وضع الفتيل أو إقامة سدود في المناطق الضعيفة.. كان همي أن أصل إلى جسد متماسك للدموع.. يحمي أيا منها من الفقد أو الضياع.

مع الوقت زادت الدموع التي أسالها الفتيل.. بحيث غطت عليه، فانطفأ. فأحضرت فتيلا قويا كنت قد أعددته في الزيارات السابقة من خيط أول جلباب بلدي لبسته، وقد تهرأ بعد أكثر من عشرين عاما. زرعت الفتيل في وسط الآنية ولملمت حوله الكتل المتباعدة من الدموع، ثم أشعلته. كان قويا، وسرعان ما صهر الكتل.. وأسالها في مختلف مناطق الآنية، بحيث عاد الفتيل القديم الصغير إلى الظهور واشتعل تلقائيا، فزاد من سيولة الكتل ففاضت الدموع في الآنية المؤقتة.

فكرت أن أستمع إلى الأخبار.. لكني تراجعت.. فالأخبار التي أتوقعها، لا يستطيع أحد إنجازها الآن.. نحن مضروبون على رؤوسنا (بشومة) قوية، لم نستطع أن نفيق منها بعد. انتبهت إلى أن الجو حار، وكان لا بد من تشغيل المروحة مما يعني أن شمعتي الجديدة ستنطفئ، قلت فلأجرب. شغلتها فانطفأت الشمعة فورا، ولم تكن قد أصبحت جسدا متماسكاً بعد، حاولت إشعالها مرارا فلم أفلح.

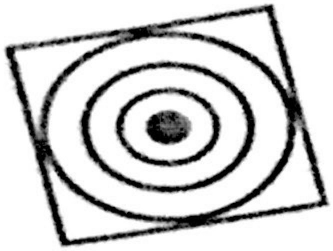
قلت فلنخفض سرعة المروحة. ولم أفلح أيضا: قمت فخفضت سرعة المروحة أكثر، وضغطت زناد القداحة فاشتعلت الشمعة التي لم تكن شمعة بعد.

في هذه الأثناء كنت قد أعدت الدموع التي تساقطت في المخزن المؤقت إلى الآنية.. في المواقع الفارغة أو الأقل ارتفاعا. ومن ثم، حين عادت الشمعة إلى الاشتعال، أخذت توزع لهيبها وسائل دموع بنوع من العدل النسبي على كافة الجوانب إلى الحد الذي حقق الحد المطلوب من تماسك جسد الدموع.. الحد الذي يرضيني ويجعلني أسميها شمعة جديدة حقا.

أطفأتها.. وزدت سرعة المروحة:

كانت الساعة الثالثة، موعد الأخبار في القناة الثانية فتحت التلفزيون، لم يكن ثمة أخبار وإنما مباراة تنس لم أعرف بين من ومن.. أغلقت التلفاز ونمت في المساء، وبعد أن ذهب كل الضيوف، وحان موعد البلكونة سعيت حثيثا لأحضر شمعة صفراء أخرى، ممنيا نفسي بالنتيجة التي سأحصل عليها اليوم. لم أكن أدري ماذا انتظر بدقة، لكن استكمالا من نوع ما لما حدث بالأمس.

وضعت الشمعة فوق الشمعدان وقدحت



القداحة.. فلم تشتعل الشمعة.. كنت في شبه ظلام. فأعدت القدح ولم تشتعل. خلعت النظارة وقربت عيني منها فكانت المفاجأة.. ليس هناك فتيل. لأول مرة في حياتي أرى شمعة دون فتيل. كانت مفاجأة مذهلة ومربكة في نفس الوقت.. كتلة من الدموع لكنها متماسكة وطويلة كيف سأتصرف بها.. هل أفتتها في أواني؟ أم يجب تحويلها هي ذاتها إلى شمعة.. انتهيت إلى الحل الثاني أن أغرس فيها فتيلا.



كان الأمر يحتاج إلى فتيل طويل، وهذا عندي، لكن لا بد من مسمار كبير أو مفك أو سلك طويل.. عندي كل هذا في القاهرة، لكني لم أستطيع الانتظار. قمت لأبحث، فلم أجد سوى مسمار ٣ سم. قلت يصلح مؤقتاً. فحين تنتهي صلاحية هذا الفتيل القصير، نضع غيره.

سخنت المسمار وغرسته في رأس الكتلة فانفلقت أكان المسمار أسمك من أن تحتمله. على الفور قلبت الكتلة، وسخنت المسمار وغرسته في قاعدتها. كانت أوسع. فانغرس، أخرجته وأعدت تسخينه كي أوسع الخرم، ثم أخرجته ودفعت الفتيل قدر الإمكان.

ثبت رأس الشمعة على قاعدة الشمعدان، ثم أشعلت الفتيل وعدت بظهري إلى الوراء. انتظر.

في المساء كان بعض الزوار يتناقشون فيما حدث في مؤتمرات القمة.. كان واحد من التيار الإسلامي يدعو إلى ضرورة دعم الفلسطينيين بالدعاء والتبرع بالمال.

قلت له.. أصبحنا ممنوعين الآن..!. لم يفهم وواصل خطبته مؤكداً أن الله سيجد لنا مخرجاً، وإن الشعب لن يهزم.

على نحو ما كان كلامه مريحاً لي، رغم الاختلاف، وانتظرت ماذا ستقوله لي الشمعة. لم أنتظر كثيراً، فقد بدأت بداية عادية، لكنها لم تدم إذ سرعان ما تحول الفتيل إلى الدوران حول الشمعة بنهم يسيل منها أكبر كمية من الدموع، ثم فجأة وجدته ينتحي بالجانب الأيسر منها وينهش فيه - بالطول - نهشاً، تاركاً الجانب الأيمن قائماً مستقيماً، لكنه مع الوقت ومع استمرار نزول الفتيل إلى الأسفل، أخذ يضعف ويتهافت ثم تسقط بقاياه في قاع نصف الآنية فيما بقي الفتيل مشتعلاً لمدة قصيرة ثم انطفأ.

كنت قد أدركت - منذ بداية الاشتعال - مسؤوليتي عمّا حدث. أدركت أنني تسرعت باستخدام المسمار القصير، ولم أنتظر حتى أمتلك أدواتي الكافية.. ومع ذلك لم أتدخل أو ربما لم أكن أستطيع التدخل لأن النار كانت تأكل الجسد وتسيله بسرعة فائقة، رغم أن الهواء كان ساكناً. قلت إذن لا أملك إلا انتظار النهاية. وحين انطفأ الفتيل، وكان قد سقط في بركة صغيرة من الدموع وحوله بقايا متماسكة منها، لم أحاول إنقاذه وإعادة إشعاله.. لم يكن سيبقى طويلاً، تركته ولجأت إلى جسد الدموع الذي كنت قد نجحت في تحويله إلى شمعة في آنية هذا الصباح أشعلتها وقلت: في الصباح أحول الدموع الجديدة إلى شمعة أخرى.. فلم تعد لديَّ مشكلة في الأواني. بعد أن اشتريت واحدة، ووجدت في أشياء أمي القريبة التي بحثت فيها بعد المغرب - واحدة أخرى صغيرة، ووجدت ثالثة صغيرة - كانت غطاء لعلبة شيكولاته كنا قد أحضرناها هدية لأمي من إحدى سفرياتنا.

تراجيديا النكبة في السينما العربية

صورة مبهمة دون ملامح نافرة!

لبسير خلف

لم تقر تراجيديا النكبة الفلسطينية السينمائيين العرب، رغم أن هذا الحدث المفصلي أسس لكل الهزائم التي تلته. وبقيت نكبة عام ١٩٤٨ صورة مبهمة دون ملامح نافرة تظهر بين الفينة والأخرى في أحد الأفلام العربية كقصة حب رومانسية في فيلم «فتاة من فلسطين» للمصري محمود ذو الفقار، أو كخلفية تاريخية كما هي في فيلم «المخدوعون» للمصري توفيق صالح و «الترحال» للسوري ريمون بطرس، أو كوسيلة لتحديد إطار زمني للأحداث كما في فيلم «قبطان» للمصري سيد سعيد. أو كإسقاط سينمائي لنكبة معاصرة متواصلة كما فيلم «الليل» للسوري محمد ملص.

يطغى حضور النكبة في فيلم «الليل» على أي حضور آخر

النكبة في فيلم بطرس، خلفية تاريخية كبرى لجميع الأحداث والتحولات التي تمر على سوريا

فيلم «قبطان» أساسا لا يقدم صورة اللاجئين وحدث النكبة إلا بوصفهما نقطة علام زمنية لأحداث الفيلم

مخدوعو توفيق صالح

يتأسس الحدث السينمائي في فيلم «المخدوعون» لتوفيق صالح من إنتاج المؤسسة العامة للسينما في سوريا والمأخوذ عن رواية «رجال في الشمس» لغسان كنفاني، على خلفية تشكل نكبة عام ١٩٤٨ العنصر المهم فيها ولكنها لا تظهر إلا كعنصر داعم للشخصيات الدرامية الغارقة في هزائمها وعجزها. وحتى نمطيتها التي أرادت الرواية أن تقدم من خلالها معادلات موضوعية لتوجهات اللاجئين الفلسطينيين. ومن أجل ذلك كانت شخصية مثل (أبو خيزران). ولكن توفيق صالح تجاوز رمزية الشخصيات في الرواية وخلصها من ثقل الأمثولة والمعادل الواقعي ونقلها إلى فضاء درامي يعتبر فتحا سينمائيا عربيا على كافة الصعد الفنية والجمالية والفكرية وأسس دون أدنى شك لصورة فلسطين الجديدة في المشهدية العربية المعاصرة. فمع فيلم «المخدوعون» ولت إلى الأبد رومانسية حدث النكبة الذي ظهر في عدد قليل من الأفلام العربية وتكرر في أعمال إبداعية متنوعة، لتحل محلها صورة قريبة من الواقع ولكنها ليست الواقع ذاته.

ليل لا يتجلى

يطغى حضور النكبة في فيلم «الليل» الذي أنتجته المؤسسة العامة للسينما في سوريا وشركة مرام (باريس) مطلع التسعينات على أي حضور آخر، ومع ذلك لا نرى أية صورة للاجئين فلسطينيين أو خيامهم في الفيلم. فالمجاهد السوري الذي يضرم النار بنفسه لحظة علمه بوقوع النكبة يختصر كل الكلام الذي يمكن أن يقال في هذه المناسبة، والمجاهد الآخر الذي يتخذ من الصمت بداية ثم الصراخ الهستيري بعد ذلك وسيلة للرد على البيانات النارية للإذاعات الرسمية يعبر هو الآخر عن موقف عفوي بليغ يدين تخاذل الأنظمة وتفريطها بفلسطين.

ولكن الأمر لا يتوقف عند ذلك فقيلم/ملص يصور لحظة النكبة كحامل ومؤسس لظواهر المغامرين العسكريين المتناسخين أمثال/حسني الزعيم، وسامي الحناوي وأديب الشيشكلي وغيرهم من الديكتاتوريين، الذين انقلبوا على الديمقراطية و استمدوا مشروعيتهم من نكبة فلسطين بوصفهم منقذين ومخلصين



من فيلم المخدوعون

من فيلم السكين



وأنصاف آلهة تنحت التماثيل لهم وتقام النصب التذكارية لمنجزاتهم الوهمية!.

إنه ليل يشبه ليل امرئ القيس متتابع كموج البحر ملىء بشتى صنوف الهموم دون أن يكون هناك أمل بأن ينجلي، ليل بدأ مع نكبة فلسطين ومازال متواصلا حتى أيامنا هذه.

فيلم ملص يصور إذن انعكاسات النكبة الفلسطينية على مدينة القنيطرة السورية التي كانت دائما معبرا إلى فلسطين ومحطة إجبارية لأي قادم منها وإليها، إنها المدينة ذاتها التي تنبأ الطفل (على الله) في أحد مناماته بنكبتها اللاحقة!.

صورة اللاجئين

يستهل ريمون بطرس فيلمه «الترحال» (المؤسسة العامة للسينما في سوريا-١٩٩٧) بصورة قدوم اللاجئين الفلسطينيين إلى مدينة حماة السورية في قطار، رابطا ذلك بيوم الجمعة الحزينة يوم صلب السيد المسيح، ويوظف بطرس موضوعة الصلب في أكثر من موضع في الفيلم محاولا أن يسقط هذه القيمة المحورية في الديانة المسيحية على نكبة الشعب الفلسطيني والتي تجد تجسيدا واقعيا لها في سيرة بطل الفيلم السوري الحموي الذي عاش وعمل في فلسطين قبل مأساتها الكبرى.

النكبة في فيلم بطرس، خلفية تاريخية كبرى لجميع الأحداث والتحولات التي تمر على سوريا وكأن التاريخ الحقيقي لها بدأ بعد هذا الحدث الجلل.. ولكن خلافا لفيلم ملص الذي أدخل عنصر النكبة إلى صلب شخصيات الفيلم وذواتها، نجد ريمون بطرس يركز على الحدث ببعده التوثيقي أكثر من تركيزه على حالة النكبة كمفهوم وجودي رغم أن في الترحال إشارات «ميثولوجية» كما أسلفنا.

فالتأريخ عامل حاسم في طريقة تعامل بطرس مع موضوعه وقد تجلى ذلك في حرصه الشديد على إعادة تركيب مشهد وصول اللاجئين الفلسطينيين إلى مدينة حماة، وفي بنائه لمخيم فلسطيني وحرصه على أسماء العائلات وأزيائها وأدواتها التي جلبتها معها من فلسطين، بينما لا نجد أيا من هذه العناصر في فيلم الليل لمحمد ملص الذي كان مشغولا بحالة بطله المهزوم والمأزوم والمنتحر بصمت، احتجاجا على سلبية واقعه.

هذه الدقة في توثيق صورة اللاجئ الفلسطيني لا نجدها في فيلم «قبطان» لسيد سعيد (١٩٩٧) والذي عرض في أكثر من مهرجان سينمائي إلى جانب فيلم ريمون بطرس، مما خلق نوعا من المقارنة بين الفيلمين على صعيد صورة اللاجئين الفلسطينيين.

وفيلم «قبطان» أساسا لا يقدم صورة اللاجئين وحدث النكبة إلا بوصفهما نقطة علام زمنية لأحداث الفيلم. رغم أنه أتبع ذلك بشخصية مستلهمة من الصورة المثالية للفدائي كما تصورها المخيلة العربية.

تبدو صور اللاجئين الفلسطينيين القادمين من البحر في فيلم سيد سعيد أشبه بصورة العرب في كلاسيكيات هوليود من حيث الأزياء غير الواقعية والمجاميع الصامتة التي لا وظيفة لها إلا ملء الشاشة.

موضوع نكبة فلسطين لم ينل حقه في المشهديات العربية بشكل عام، ربما لأنه يمثل الهزيمة الأكبر في تاريخ العرب المعاصر، وربما لأننا كعرب لم نواجه سؤال النكبة حتى هذه اللحظة، هذا السؤال الذي تتأسس عليه جميع الأسئلة اللاحقة!!



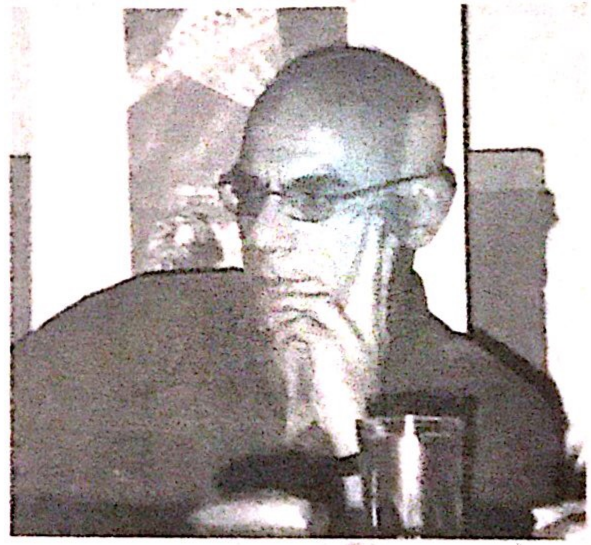
من فيلم الترحال

إذا ما تأخر الفجر !!

إبراهيم صموئيل

في حمأة البحث الصادق عن دور عملي، أو موقع فعال، في سياق الانتفاضة العظيمة لشعبنا الفلسطيني، طرح عديد من الكتاب والمثقفين في عالمنا العربي تساؤلاتهم عن الدور الممكن - أو الواجب - الذي لا بد للكتاب والمثقفين أن يمارسوه، وإلا همشوا أنفسهم، ونبذوا ثقافتهم في سياق التغيير المحتمل الذي تقوده، أو تشير إليه ، الانتفاضة الشاملة في فلسطين.

بيد أن حمية البحث عن دور فعال قادت البعض إلى وضع الثقافة العربية المعاصرة على طاولة التشريح والتمحيص، وساقت البعض الآخر إلى التشكيك بدور الثقافة في عالمنا الراهن، معتبرين أن المثقفين قصروا في أداء أو احتلال دورهم وموقعهم، وتقوقعوا، أو ترفعوا عن الشارع الشعبي، أو علقوا تعطيل فاعليتهم، وتهميش ثقافتهم وفكرهم على شماعات الأنظمة السياسية المتخلفة وقمع السلطات الحاكمة ... وإلى غير ذلك مما يفيد معنى التقصير الذاتي، أو التذرع بالقمع والتلطي وراء تخلف الأنظمة.



وإذا كان من المفهوم أن تقود الحمية والحاجة إلى البحث عن أي منجى من الحصار والمحدودية أو اللافاعلية.. فإن من غير المجدي التعويض عن قصور الواقع وتخلفه المزمن بجلد الذات وتأنيب النفس وتحميل فئة، من مجموع فئات لا حصر لها، مسؤولية التراجع المستمر .

من غير المجدي أن تقوم زوجة بلطم وجهها وضرب رأسها بالجدار والدعاء على نفسها بالموت كرد فعل على استعصاء تقويم زوجها، وكبح عدوانه والتخفيف من شراسته وتسلطه على حياتها! وفي اعتقادي أن المثقفين والكتاب في ظل ، ذكورية ، الأنظمة العربية الحاكمة وظل الاستكانة المجتمعية المتضخمة في السنوات الثلاثين الماضية . وظل الأوضاع الدولية التي باتت إقليمية ومحلية على نحو فاضح ومباشر ... ليس بإمكانهم أن يتجاوزوا دور ،الزوجات المقهورات، أو ،الأبناء، المذلين المجوعين بل والمشردين أحيانا!

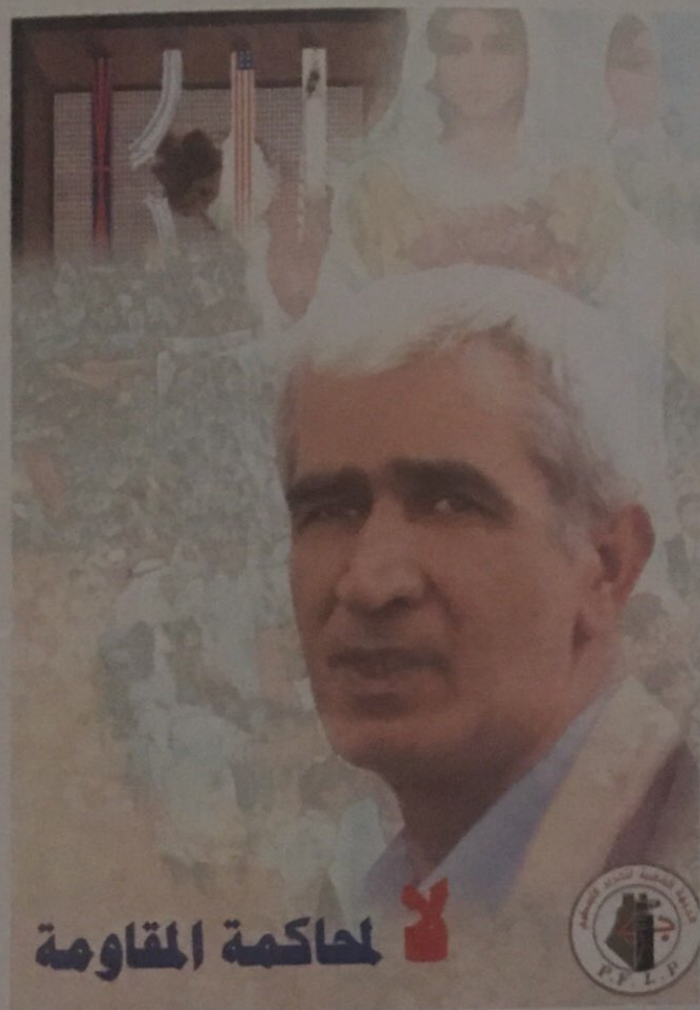
لا أقول ذلك لأنفي الذريعة الموجهة للثقافة والمثقفين بالتذرع بها مرة أخرى، ولا لأتولى دور محامي الدفاع.. بل لألفت النظر إلى أن أصحاب الرأي المدين للمثقفين هم مثقفون أيضا، أسهموا من جهتهم بما استطاعوا كما ساهم الآخرون من جهاتهم، دون أن يتمكن لا هؤلاء ولا أولئك من تغيير الواقع أو احتلال موقع فعال، أو وقف الانهيار العربي الشامل !! الأزمة ليست في الطريقة، ولا في تغيير النظرة، ولا في عمق فهم الشارع أو سطحيته، ولا في انفتاح الثقافة وتجددها أو انغلاقها وسكونيتها ، ولا في معالجة هموم الناس وقضاياهم وحاجاتهم . ولا في التصدي لسياسات القمع وتيارات فقهاء الظلام... لأن كل ذلك جرب، وتمت المحاولة في مجاله، وما زالت المحاولات جارية هنا وهناك، على نحو فردي وجماعي ونصف جماعي وبطرائق وأشكال وصيغ عديدة... بيد أن صياح الديكة - كما يقال في الأمثال - لا يصنع الفجر!

فلم، كلما تقهقر الوضع العربي أو أضاءت في فضائه شعلة (كالانتفاضة الحالية) يسارع البعض إلى عقد مجالس الندب واللطم والنواح على حال الثقافة العربية المتردي، أو تقصير المثقفين العرب؟! بعض المثقفين يبخرون للسلطات، وبعضهم يشاركون في آلية القمع، وبعضهم يعتصمون بالصمت المبين... نعم، ولكن بعضهم يواجه ويتصدى ويعري ويدفع الثمن، وتلك حال الثقافة في العالم عبر التاريخ وحال الكتاب والمثقفين أيضا، تماما كحال العمال والفلاحين والمحامين والمهنيين والفنانين والمستشارين وخلق الله أجمعين! فمن أين يولد العجب !

لا علاقة للنظرة الطهرانية إلى المثقف على أنه المنارة الوهاجة، المضحي، المقدام، الصاعد كالمسيح نحو الجلجلة يبغي الحق ويرنو إلى العدل ويشخص إلى عالم المثل على الدوام وبلا تردد أو خيانة. كبار مثقفين نظروا للطغاة، ومجدوا وبخروا لأشخاصهم، وخانوا لا بشر كتاباتهم فقط بل أنفسهم أيضا، ومنهم من لم يخن، بل عمل في تثقيف نفسه على ذلك!

ورغم هذا، ما الذي في مكنة المثقفين تقديمه للانتفاضة، مثلا، غير تكريس أقلامهم وأدبهم وفكرهم ونشاطهم وأشخاصهم في خدمتها والدعوة إلى استمرارها وتعميمها؟! ما الذي يمكنهم القيام به غير توقيع البيانات وكتابة المقالات وعقد الندوات وإقامة التظاهرات وحض الناس على دعم الانتفاضة ومساندتها؟! هذا يحدث وبمختلف الأشكال والطرائق والمنابر، فلم عقد مجالس الندب والنواح، وإقامة محاكم الإدانة على الطالع والنازل؟! ما الذي بإمكان الديكة أن تفعله، في غابة مزدحمة بالوحوش الكاسرة، إذا ما تأخر الفجر، أو تم تغييبه بالظلام الحالك؟!

الحرية لسجناء الحرية





المناضل عاهد أبو غلمة



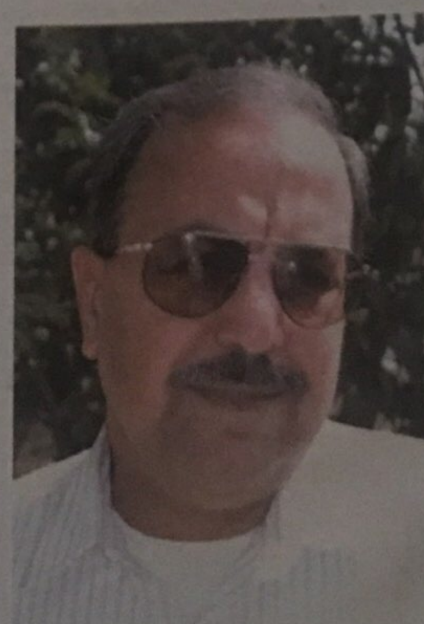
المناضل باسل الأسمر



المناضل حمدي القرعان



المناضل مجدي الريماوي





لا أحد يعرف طبيعة الفوران الذي يجيش في صدر الأسير المحرر وهو يخطو خطواته الأولى نحو الحرية، خارج جدران السجن. ربما حتى هو شخصيا. ولم نتمكن حتى الآن من معرفة أيهما أجمل الحرية أم الطريق إليها، أو كما يقول الدرويش الكبير البيت أم الطريق إلى البيت؟

ولكننا نعرف أن الأسرى لن يغادروا السجن إلى بيوتهم بالضرورة، وها نحن نسمعهم يتساءلون عن حال البيت؟ هل مازال قائما؟ أم دمرته جرافة عمياء.

في قصص السجن والاعتقال الكثير من الكآبة والقهر، ولكن أيضا ما سيفاجئ الكثيرين ربما أن بها الكثير من الفرح والغرابة أيضا.

فالذكريات المريرة تتحول مع البعد الزمني إلى مشاهد تنضح بسخرية تثير الابتسام المتحسر. وساعات العزل الطويلة في الزنازين المتعفنة ستتذكر بألم التذكر والمحاولات المهلكة لاستحضار وجه الأم أو الأب أو الحبيبة أو ضحكات الأطفال، متحدية كآبة السجان المتجهم وغلظته المملة.

منذ سنوات طويلة كتب (هنري شاريير) قصة مذهلة عن محاولاته للهرب من سجنه في جزيرة الشيطان، تلك الرواية كان اسمها (الفراشة) أو (بابيون)، والاسم مأخوذ من وشم كان قد رسمه السجين على صدره، أصبحت كل محاولة للهروب موسومة بنهاية معذبة ، سنوات إضافية في جزيرة الرعب.

كانت حكايات الهرب أكثر روعة وإثارة للفضول من نهاية الهارب، حتى أنني لا أتذكر مصيره الآن. وهكذا تتحول المعاني لتصبح الحياة الفعلية من أجل هدف معين أكثر إثارة للاهتمام من الهدف بذاته.

ربما يكون هذا مجالا مهما لعلماء النفس، ولكن ما يهم الإشارة إليه هنا أن الحرية باعتبارها هدفا، لا يمكن أن تنفصل بحال من الأحوال عن الطريق إليها، بل إنها تكتسب قيمتها من طبيعة الدروب المسلوكة في سبيلها، لهذا يكون فرح السجين بالحرية مرتبطا ربما بعدد سنوات السجن، أو بعدد أيام العزل، وهي فرحة قادرة على إعادة توليد نبض متقد في صدور العائدين إلى حريتهم، نبض جدير بحملهم من جديد إلى ذات الطريق، لأنهم يدركون في قرارة قلوبهم أن الطريق لم ينته، وأن المسألة هي حرية الشعب لا حرية الأفراد.

لعل هذا ما يقض مضجع الجلاد ليل نهار، وهذا ما يجعل التبادل صفقة خاسرة بالنسبة إليه حتى لو أنه نجح في الاحتفاظ مؤقتا بمن يريد الاحتفاظ بهم، إلا أنه يدرك تماما أن ساعة الحرية إذا دقت، فان لا أحد على الإطلاق قادر على وقفها، ومن يحاول يندم ويدفع الثمن غاليا، فهل يتعض فاشيو تل أبيب، أم أنه (لاحياة لمن تنادي).

ساعة الحرية إذا دقت

أحمد جابر